غالب هلسا

ثلاثة وجوه لبغداد

آفاق

رواية





غالب هلسا :

ثلاثة وجوه لبغداد ـ رواية

غالب هلسا :

ثلاثة وجوه لبغداد - رواية

الطبعة الاولى - ١٩٨٤

الناشر : آفاق للدراسات والنشر

نيقوسيا - قبرص ص . ب : ٣٩٩٧

الغلاف الفنان يوسف عبد لكي

غالب هلسا

ثلاثة وجوه لبغداد

إلى من بس التي مدت يدها

عبر جحيمها لتنتشلني ....

غالب

الوجه الأول

من خلال عيون مصرية

- ١ -

وعندما هبط من الفندق ، سمع اللهجة المصرية في كل مكان . منذ ساعة ، فقط ، كان يطير فوق بغداد . بدت له ، ساعتها ، قطعة من المخمل الاسود ، موشاة بآلاف الدبابيس المضيئة . اعلنت المضيفة ، بثلاث لغات : « ايها السيدات ، والسادة . نحن نطير ، الأن ، فوق بغداد ، وستهبط الطائرة ، خلال عشر دقائق . . . »

ثم عبرت عن املها أن يكون الركاب قد استمتعوا برحلتهم ، ونقلت لهم تحيات قائد الطائرة . واشتعلت بثلاث لغات عبارات حمراء : « ممنوع التدخين ! اربطوا الاحزمة ! » ثم هاهو يسمع اللهجة المصرية تشيع في الجو ، وكأنه عاد الى القاهرة ، بدلاً ان يغادرها الى بغداد .

وهو يسمع وقع خطواته ، ويراقبها ، والاصوات ، بلهجتها المصرية تتكاثر ـ دون تنوع ـ دهمه ذلك الاحساس الذي راوده كثيراً في الايام الاخيرة : انه يحلم . لقد اكتشف خلال وجوده في الزنزانة ، في سجن القناطر الخيرية ، وسجن مطار القاهرة الدولي . . . . اكتشف انه يصعب كثيراً التأكد من انه ليس في حلم . في الحلم ، أيضاً ، يصعب عليه ذلك ، في نوع خاص من الاحلام : الكوابيس . في الاحلام الاخرى ـ كان يعرف انه يحلم ، وكان يقول لنفسه ، في هذا النوع من الاحلام : « مادمت في حلم فلافعل ماأريد ، دون خوف من شيء »

احساسه الأن هو الكابوس .

كان الشارع عتيقاً ـ رائحته ـ نمط المعمار ، ارضيته الموحلة ـ وتحط عليه ظلمة رخوة ـ تخفف من تماسكها اضواء ذابلة تنبعث من البيوت القائمة على الجانبين . كان

معك ، مع هذه الاوجة المصرية التي تنبثق من مجموعات معتمة ، بعضها يسير ، وبعضها واقف ، ان يكون هذا احد شوارع القاهرة ، في حي عابدين ، او بالتحديد ذلك الشارع الذي يصل بين شارع عبد العزيز وارض شريف .

« ويصعد السلالم الزلقة . في الدور الثالث ، وحوليهث ، الباب ينفرج انفراجة ضيقة ، لاتكاد تلحظ . تتسع انفراجة الباب ، ويختفي الشبح الواقف وراءه . يدخل . تنظر اليه من باب حجرة النوم . تنظر اليه بعينين بيضاوين ، وتقول :

- اقفل لباب . . . »

لا . هذا الشارع لايشبه ذلك الشارع . ولكنها تلك اللهجة ، التي تفضح اصول متحدثيها الشعبية ، هي التي اوجدت مكانها .

- بنت القحبه ، مسميه نفسها سوزي !

هذا ليس اسمها بالطبع انه من الاسماء المستعارة لمومسات السائحين العرب ، لراقصات ملاهي الدرجة الثالثة . . وحاول ان يرى وجه المتكلم . لم يكن له وجه في هذه العتمة .

ثم ذابت الظلمة . ببطء ، في اول الامر ، تسللت اليها اضواء سمراء عكرة ، اعني خضراء باهتة . واخذت ذرات الظلام تتوهج ، كما يحدث في شاشة التلفزيون ، عندما ينقطع الارسال فجأة ، وترقص آلاف الذرات الرمادية فاحة كصخور ماء . ثم ، اذ بالظلمة ، تنسف نسفا .

حدث هذا بعد خطوة واحدة . كان هنالك شارع جانبي . على زاويته مطعم ، تحتل واجهته الزجاجية الزاوية على الجانبين ، وكان الزبائن ، والجرسونات ، وحلل الطعام تسبح في ضباب النيون والابخرة .

على رأس الشارع الجانبي ، وقف بائع اللحمة المشوية (الكة) امام منقل طويل ، صفت فوقه اسياخ اللحمة المشوية ، على طرف المائدة مروحة تعمل بسرعة خارقة وضجيج ، يندفع هواؤ ها الى جمرات الفحم ، فتصعد منها لهبة تتخلل اسياخ اللحمة . فوق رأس البائع مصباح كهربائي ، تنبعث منه اشعاعات قوية ، فبدا كنبتة شوك .

في الزاوية المواجهة - مقهى . بدا محشوا بالضوء الشبحي ، الابيض لانابيب النيون . الزحام في داخله جعله اشبه باتوبيس مزدحم . وتتوالى الاضواء على امتداد الشارع الجانبي - مصابيح الشارع ، اضواء من داخل المحلات ، اضواء معلقة على

مدخل المحلات . . . من جميع الاتجاهات يسقط الضوء ، فكان الناس ، والموائد ، والدكك الخشبية امام المقهى بلا ظلال .

رائحة الزيت المقلي ـ رائحة الطعمية والباذنجان ، والبطاطس المقلية ، والفول ـ لاتخطئها الانف .

اي كابوس !

توقف امام بائع التكة . قال :

ـ عاوز سندويش ، لو تسمح .

جاءه الصوت حلقياً ، خشناً ، منزعجاً :

ـ شنهو ؟

هو عراقي اذن ـ قال غالب لنفسه . اعاد اليه ذلك احساسه بالتوازن ، فاخذ يشعر بآلام الالتهاب في حلقه . كلم البائع بالعربية الفصحى ، مسكّناً نهايات جميع الكلمات :

ـ اريد اربعة من اشياش اللحمة هذه ، في رغيف من هذا ، واريد طماطم معها . تفهمني ؟

فهز البائع رأسه بتتال سريع وهو يردد :

ـ صار عيني ، صار ، صار . . .

ـ رفع غالب اربعة اصابع ، وقال :

ـ اربعة ، اريد اربعة .

والبائع يردد ، دون ان ينظر اليه ، بتمتمة :

ـ افتهمت عيني ، صار ، صار . . .

في تلك اللحظة ، بينما كان ينتظر انتهاء البائع من اعداد السندويتش ، سمع كلمتي « صالون حلاقة » ، ملفوظة باللهجة المصرية ، لم يسمعها في سياق كلام متصل ، بل كأنهما انفصلتا عن الحديث ، وتوجهتا اليه . كان هنالك ثلاثة شبان ، يجلسون على احدى الدكك الخشبية الموضوعة امام المقهى . كانوا صامتين وابتعدت عيونهم عنه فجأة عندما نظر اليهم . احس انه كان موضوع الحديث . « صالون حلاقة » فكر غالب ، ان ذلك لامعنى له .

القى احد الشبان الثلاثة نظره الى غالب ، فالتقت عيونهما . ادار الشاب

وجهه ، ثم نهض ودخل المقهى .

سمع صوت البائع . التفت غالب اليه ، فرأى السندويتش في يده . تناوله ، ونقده الثمن . ثم سار وجلس على دكة خالية ، امام المقهى . قال لرجل يقف بباب المقهى ، ظنه ـ خطأ ، كما تبين له فيما بعد قليل ـ نادل المقهى :

ـ ميه من فضلك .

التفت الرجل الى داخل المقهى ـ وقال :

ـ ميه للبيه ، يامحمود .

قال غالب للرجل :

ـ متأسف .

لم يكن بالامكان اطالة الاعتذار . ولكن الرجل ، كان يقف بالباب مسترخيا ، مستغرقاً في شيء ما ، فبدا منتمياً الى المكان بقوة . سمع غالب صوت الشاب ـ الذي يجلس على الدكة ، المجاورة لدكته ، يخاطبه :

ـ خد منك كام ؟

فوجيء ، وقال :

ـ مين ؟

قال :

ـ بتاع التكه .

نظر اليه غالب . هذا الوجه ينتمي الى قاهرة المعز : الدرب الاحمر ، الغورية ، بين القصرين . . .

ـ ربعميه وعشرين فلس .

فقال الشاب الذي يجاوره .

ـ الراجل الحرامي . .

وابتسم . لم يستطع شكله الغلامي ان يخفي كونه تعدى الثلاثين . شعر اكرت ـ وعينان حادتان ، وخدان ضامران . عظمتا الوجنتين بارزتان ، والانف طويل ، بثقبيه الطوليين ، بارز ، كأنه وجه آخر . كان يعلق كاميرا على كتفه ، فوق قميص سور .

يعرف هذا الوجه . يستطيع ان يراه في شارع ٢٦ يوليو ، يميل بعنقه الى اليسار ، والكاميرا موضوعة فوق عينيه ، ثم تكة الكاميرا ، يعقبها .

ـ صورة يابيه ؟

ثم سؤال من لابس النظارة الطبية :

ـ جيت من مصر امتى ؟

قال غالب :

ـ من شويه ، يعني . . .

وتوقف . شعر بآلام حلقه ، وبصعوبة ابتلاع الطعام واشار بيده الى نهاية الشارع ، حيث يظهر فندقه ، بواجهته المطليه بلون احمر ، قبيح ، كأنه دم متجمد ، وقد علقت على اسفل شرفاته انابيب نيون حمراء .

كان الجرسون قد وضع امامه صينية ، عليها كوب ماء ، وكوب شاي . شرب الماء دفعة واحدة . كان لها طعم غريب .

تزايد عدد محدثيه . كانوا يسألون اسئلة لايجاب عليها باكثر من كلمة ولما كان الوقت قد اقترب من الحادية عشرة، وهم في نوفمبر الآن ، قال انه يشعر بالبرد . فانتقلوا الى داخل المقهى . لم يكن احساسه بالبرد حقيقياً ، ولكن المصور بقميصه السبور اوحى له بذلك .

انتقلوا الى داخل المقهى . كان ذلك اشبه بدخول قاعة الاجتماعات ، بعد راحة قصيرة ، تناول فيها المشاركون المرطبات والقهوة تعابير وقار ارتسمت على الوجوه ، وساد الصمت فجأة . ثم ارتفعت العيون ، زاغت منه ، واتجهت الى الباب . . الى شاب ، سار نحوهم . توقف امام غالب ، وضع امامه قطعة نقدية . قال :

ـ تفضل من بتاع التكه .

وتوجه الى الاخرين :

ـ راجل حرامي . قلت له : هات الخمسين فلس . مانطقشي .

ثم الى غالب :

ـ ازاي مصر ؟

السؤال موجه اليه .

كانت صورة القاهرة ، التي يحتفظ بها في ذهنه ، تلك اللحظة ، هي منظرها ساعة العصر ، كما بدت من الطائرة . صفراء ، معصفرة : مدينة من حجر ، خالية من الشجر والناس . وبالنسبة له ، كانت قرية اردنية ، تستعاد في الذاكرة . كان

احساساً غريباً قد استولى ، ساعتها : ان تكون قاهرة خان الخليلي والحسين والازهر لها مثل هذا المظهر ! كانت لحظة شوق ، استقرت في قلبه كالخنجر . وللحظة خاطفة ، اعتقد غالب ، انه مطالب بوصف ذلك المشهد ـ والاحساس الذي رافقه ؛ واثقل عليه ذلك حتى الاختناق . ولكنه ابعد الذكرى كأنها عائق مادي ، وقال :

ـ كويسه .

ـ مافيش حاجه فيها تغيرت ؟

انه مرهق بالفعل ، وعاجز عن التركيز . يشعر بحلقه يابساً ، وهو يتذكر : الكوبري الجديد ـ الواقع بين كوبري قصر النيل ، وابو العلا . منظر النهر وهو يصعد من الزمالك ، حتى يلتف حول الجزيرة ، الكازينوهات ، واشجار النخيل والعشاق . . . كان ذلك يعتصر قلبه . قال :

من الزمالك ، حتى يلتف حول الجزيرة ، الكازينوهات ، واشجار النخيل والعشاق . . . كان ذلك يعتصر قلبه . قال :

ـ زي ماهيه !

فترة صمت . وانتقل الحديث الى المسائل العملية .

.مسألة السكن ، اولاً . هنالك فندق يجب ان ينتقل اليه غداً .

ـ قل له جاي من طرف محمد المصوراتي .

ـ روح معاه ياأخي .

ينظر للمتحدث ، ثم يتنفس بعمق ويعدل وضع الكاميرا على كتفه ، ويقول :

ـ خوش .

ويتـ.م . ثم اخـذ يتكلم . صاحب الفندق ، رجل عنده نظر . يعني ، بالنسبة للايجار ، سوف يصبر . واضاف ، مرجهاً حديثه للمجمع . هنالك عراقيون رجال حقيقيون ، اولاد بلد بصحيح ، يستطيع الانسان ان يعتمد عليهم ـ وهنالك . . .

ولم يكمل كلامه ، بل اشار برأسه اشارة سريعة نحو بائع التكه .

وجاء دور الحكايات . ثم انتهت سريعا ، امام الحاح الضرورة العملية . بائع التكة كان الشخصية الشريرة ، التي تحدث التوازن في الموقف .

بدا واضحاً لغالب ان بائع التكة ، قد اقترف من الحماقات ، اكثر من مجرد

اضافة خمسين على ثمن السندويتش . وتبين غالب ان بائع التكه كان يدرك ان الحديث يتناوله بالسوء . فقد كان يرفع رأسه ، ويتوقف عن وضع قطع اللحم الصغيرة في الاسياخ ، ويحدجهم بنظرة بيضاء ، صارمة . ثم يحني رأسه ويواصل وضع قطع اللحم في السيخ الذي مازال يمسكه بيده اليسرى .

قرر غالب ان يتخذ موقفا حازما منه .

جاء الجرسون ، حاملا صينية عليها اكواب شاي ، بعدد الجالسين ، ووضعها امامهم وانصرف . تناول محمد المصوراتي كباية شاي ووضعها امامه . قال :

ـ شكرا ، انا شربت قبل شويه .

وارتفعت الاصوات :

ـ اشرب ياراجل . . !

ـ دي حاجة بسيطة يعني . . !

ـ دا الواحد بيشرب ، في اليوم ، بيجي عشرين كباية شاي . . !

الضجيج جعله يرضخ . طعم الشاي ماسخ في فمه ، مز لم حين يمر من حلقه . فتح علبة السجاير فاكتشف ان اللفافات قد نفذت . مد الشاب ، الذي جاءه بالخمسين فلسا ، يده في الفراغ القائم بين الدكة والجدار ، واخرج خرطوشة سجاير (كنت) . فتح الخرطوشة ، واخرج منها علبة مدها الى غالب . لم يستطع ان يرفض . اخذها ، وحاول ان يدفع ثمنها . نظر الشاب للفلوس ، وقال :

ـ ايه ده ؟

علا الصخب :

ـ ياراجل عيب ، مايصحش ، يعني . . . انت له واصل . . يعني احنا برضه اولاد بلد !

وبسبب هذا الضجيج وحسب ، اعاد النقود الى جيبه . هكذا في كل مرة ، ينطلقون صاخبين ، دون ان يتيحوا له فرصة للشرح ، اولقول جملة كاملة ، مفيدة . فهم مثلا ، اعتبروه حلاقاً ، واخذوا يرتبون اموره على هذا الاساس . وهو متأكد انه لم يقل لهم ذلك . وكيف له ان يقوله !

قال الشاب الذي جاءه بالخمسين فلساً ، واهداه علبة السجاير ـ وقد تبين فيما بعد ان اسمه احمد ـ : انه بعد تدبير مسألة السكن ، هناك مطعم مصري ، صاحبه مصري ، والطعام مصري ، والعاملون مصريون ، يستطيع ان يأكل فيه على

الحساب . . . كلنا . بالطبع نعرف ظروف بعضنا .

قال غالب :

ـ بس . . .

اراد أن يقول انه ليس حلاقاً . ولكنهم قاطعوه :

ـ مفهوم ، طبعاً ، مفهوم . . . الشغل ؟ . . . مسأله سهله ، ترتاح بكره ، وتلاقي سكن وبعده ندور لك على شغل .

ورسموا له صورة سريعة وعملية : يبدأ العمل عند حلاق ، وعندما يتجمع لديه بعض الفلوس ، يفتح محلاً .

ثم تحدث ذلك الشاب ، الذي يبدو انه سبب الكوارث كلها . كان شديد الهدوء ، خافت الصوت ؛ وبمجرد ان بدأ الكلام ، صمت الجميع . صمت المقهى ، حتى الشارع . قال :

ـ انا اعرف اليه .

واخذ نفساً من سيجارته . ثم اضاف :

ـ كان يشتغل في صالون فاروق ، في الدقي . ولما شفت داخل الاوتيل وشايل شنطة العده ، كلمت الواد محمود .

قال المصوراتي :

ـ محمود اللي في صالون الهدير .

نظر اليه الهادىء نظرة سريعة . اسكته . قال :

ـ محمود اللي في صالون الهدير . قال لي ، عايزين حلاق . . .

ادرك غالب عندها ، انه لن يستطيع الا ان يكون حلاقاً ، لقد حسم الشاب الهادىء المسألة ، بالنسبة له وللآخرين .

وعندما انتهى من كلامه ، شعر الجميع ان اية محاولة لاطالة الحديث ستكون سخيفة . عندما اخذت الجلسة في الانحلال . بدت الوجوه مرهقة . تثاءب احد ، فتثاءب آخرون . واتخذ الحديث طابع الثرثرة ، التي تمهد للانصراف .

ـ اكل العراقيين مش حايعجبك . . اكل ملوّن . احمر واصفر وبمبي واخضر . . .

ـ الباجه

ـ الباجه يعني الكوارع .

ويضحك البعض ضحكات فاترة . الكلام العراقي سوف يكون صعباً في البداية : شاكوماكو واكو . .

قال غالب :

- دول بعرفهم .

- اشلونك يعني ازيك . وخوش . يعني كويس . وجوه يعني تحت .

- تحت ؟

- تصور !

الح غالب :

- جوه . تحت ؟

يبدو انهم فسروا التعبير ، الذي ارتسم على وجهه ، تفسيراً خاطئاً . اذ قال احد :

- همه عرب زينا ، طبعاً ، بس لهجه ، يعني ، زي ماتقول اللهجة الصعيدية . .

قال غالب ، انه متعب . كلهم متعبون ، قالوا ؛ ولم يبق في المقهى الا عدد قليل من الزبائن .

نهض غالب . نلتقي غداً .

- بكره . . بكره العصر .

وخرج وحيداً من المقهى . كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة والنصف . سار عكس اتجاه فندقه . الجامع في مواجهته تماماً . اضواء صفراء ، مسلطة على الباب .

بعد خطوات قليلة ، كان في شارع الرشيد . طالع الرصيفين المسقوفين - والاعمدة التي تمضي الى آخر ماترى العين . ذكره بشارع محمد علي ، والبواكي تتوالى اقواسها متسارعة من ميدان العتبة الى ميدان باب الحديد ، مكتنزة تاريخا من الشبق ، والجريمة ، والحنين . . . « شفت الوليه ؟ عامله زي بتوع شارع محمد علي ! » ولكن هذا الشارع صامت ، والضوء شحيح ، كأنه ضوء ساعة ماقبل الفجر ، ماقبل خلق العالم بلحظة . الشارع خال من البشر ، مشحون بتوقع غريب ، يتراوح بين الخوف وتحقيق المستحيل سار . وكان لوقع اقدامه صدى .

كان ذلك اشبه بانتظار قدوم المحبوبة ـ بانتظار وقع اقدامها ، واصبعها على جرس الباب .

لن نحكي عن ذلك العهد الذي قطعه غالب على نفسه امام بغداد الصامته ، ولا عن ذلك الحلم ـ التوقع ، الذي عاشه ، للحظات ، في ذلك الشارع . فمن يستطيع ان يأتي بغداد ، ولايحلم ! سيكون التاريخ ـ استعادته ، اعادة صياغته ـ هو موضوع حلمه . ولعل احد اسباب امتناعنا ، هو ان غالب قد عاش حلماً آخر ، مناقضاً تماماً لهذا الحلم ، وذلك عندما دعي الى حفلة ، او اعتقد انه دعي اليها .

كل مانستطيع قوله هنا : ان الشارع ، بدا له في صمته العريق ، يحتبس قهقهة طويلة ، مرحة جداً .

ـ ٢ ـ

في طريق عودته ، رأى المقهى يستعد للاغلاق . وكذلك المطعم الذي كان الجرسونات ينظفون موائده بقطع من الاسفنج . بائع الكة ، هو الذي ظل محتفظاً بمكانه وصوته . عندما اصبح قريباً منه ، نظر بائع الكة الى غالب بعينين مزهرتين ، ضاحكتين ، متوقعاً التحية . كان ابتسامته كالمغناطيس . حاول غالب ان يتجاهله ، ويواصل سيره ، دون ان يحييه . ولكن يده ارتفعت بالتحية ، وكأنها تفعل ذلك من تلقاء نفسها . وسمع رد التحية :

ـ هلا بيك عيوني !

وكان صوتاً مليئاً بالمرح والترحيب . لقد خطف قلبه ذلك الوغد . وابتعد عنه ، وهو يحاول الا ينظر خلفه ، اليه .

ثم اتخذ ذلك القرار .

كان قد تجاوز الجزء الاكبر من الشارع . ثم فجأة رأى الشجرة . شجرة كبيرة ، مليئة بالاوراق ، والاغصان . قدّر انها شجرة تين . كان تقع على يساره ، وراء سور . وكان الضوء يتخللها من جميع الاتجاهات . بدت خارج سياق الشارع .

اللبص ، المعتم ، ولكنها تندرج في سياق بغداد . شجرة مرحة ـ هل يمكن ان يقال ذلك ؟ اعني ، كانت كأنها ضحكة ، في وجه قاتم . ليس هذا معنى ، على اية حال . رأى الشجرة ، فاتخذ القرار :

سيعيش بين هؤلاء الناس ، العمال المصريين العراقيين ، الذين هم رجال حقيقيون . لااوغاد امثال بائع النكة . . . وعندما غشيه رعب القرار ، قال لنفسه « لبعض الوقت ، على الاقل » ، وسوف يبتعد عن المثقفين ، ابتعاده عن الوباء . ستكون حياته في هذا الشارع ، بين هذه البيوت .

وكأنما اتخذ هذا القرار منذ زمن بعيد ، فقد كان معه في القاهرة محبطاً . عاشه ، آنذاك ـ كحلم يقظة . اذ دائماً يصطدم بعقبة ما . وهاهي الظروف قد تم اعدادها لتحقيقه . وتشكلت الصورة ببطء في ذهنه : العمل اليدوي ـ لم يحدده ، بل اخذ يحسه منذ تلك اللحظة في ذراعيه وكتفه ـ الحجرة الصغيرة التي سوف يسكنها في هذا الحي الشعبي ، الفتاة التي تسكن في الحجرة المجاورة . وتبه ، للحظة ، انه عاش ذلك في حي معروف ، في القاهرة ، ولكن الصورة استمرت في التشكل ، مستعيرة معطياتها من تلك الحجرة . في حي معروف . سوف يكتب هنالك مائدة تصلح للطعام والكتابة .

تذكر انه في اللحظة التي اعتقل فيها شعر بالراحة ، بان حياة جديدة سوف تبدأ . بدأت ، بالفعل ، ، مع المخبرين الذين كانوا يحرسونه ، او كانوا يأتون للتوقيع ـ الحضور والانصراف من العمل ـ حين ظل اثني عشر يوماً في مباحث امن الدولة . ثم فترة الاسبوعين مع المسجونين العاديين في سجن القناطر الخيرية . وكم كانت غريبة وخصبة تلك التجربة . ثم تلك الليلة الرهيبة في سجن الترحيلات ، التابع لقسم الخليفة . وبعدها في سجن المطار .

وفجأة تجسدت له الاسطورة التي سوف ينسجها . الكاتب الذي يعيش في بغداد ، بعيداً عن الاضواء . سوف يقرأ له الناس ، ولكنهم لن يروه . سيقال ، انه يعمل عاملا يدوياً . لن يصدق الكثير ون ذلك . سوف يقولون انه غادر بغداد ، او انه يعتكف في مكان ما . سوف يراهم ، ويعرفهم ، دون ان يروه .

كان ذلك رائعا الى حد ، جعله يستعجل الصباح . لست حلاقاً ، ولكنني سوف اعمل عملاً يدوياً ، في مكان مزدحم بالعمال المصريين والعراقيين .

صعد سلم الفندق العالي الدرجات ، الزلق ، الضيق جداً . الدرجات

القليلة جعلته يلهث . كان شابا ، لم يره من قبل ، يجلس على مكتب صغير ، وقد علقت خلفه لوحة المفاتيح . قبل ان يغادر غالب الفندق ، كان يجلس على المكتب صاحب الفندق السمين .

ألقى غالب تحية المساء ، رد الشاب بغمغمة غير واضحة . قدّر غالب ، انه فعل ذلك ليمنع حديثاً قد يبدأ . رأى حجرته مفتوحة ، فاتجه اليها . استقبله مشهد مقبض .

كان يضيء الحجرة مصباح معتم ، صغير جداً ، مطلي بلون احمر قاتم . جعل الأشياء تبدو قاتمة ، شبحية . استطاع ان يميز اجساد - جثث ؟ - اربعة رجال ، ممددة على الارض . كان احد السريرين خالياً . والرائحة . رائحة الاجساد في حجرة حارة ، صغيرة ، مغلقة النوافذ . ورائحة دورات المياه . رائحة البطانيات التي تختزن عرق الاجساد ، عرقاً قديماً يتجدد كل ليلة . . . وباختصار رائحة حجرات السجن المزدحمة في الصيف .

استولى عليه غضب اختنق به . لقد قال له صاحب الفندق انه سينام في الحجرة وحيداً . وهاهم خمسة رجال ، خمسة اجساد ، تفوح بر وائح قاتلة ، يضافون اليه . ويختفي الرجل ، دون حتى ان يعتذر . سوف يملأ الفندق صراخاً . . . ولكنه كان يعلم ان ذلك لن يفيده في شيء . اخذ غضبه يهدأ . هي ليلة وتمضي . خلع الحذاء ، والجاكتة فقط . وتمدد فوق البطانية الخشنة .

فكر : هكذا ، اذن ، تكون حجرات الفنادق الرخيصة ، في العتبة والازهر والحسين ، التي تنام فيها شخصيات روايات نجيب محفوظ . لماذا ، اذن ، لم يصف هذا المصباح الكريه ؟ في الصباح ، سوف يذهب الى حي الحسين ليرى تلك الحجرات من الداخل . سيتظاهر بأنه يرغب في استئجار حجرة .

ثم تذكر انه في بغداد . كان يحتاج الى قدر من الارادة واليقظة ليتذكر انه في بغداد . لم يكن ذلك سهلاً . القاهرة تحتويه تماماً ، فتظل بغداد عابرة .

غفا للحظة . ثم استيقظ باحساس من تأخر في نومه عن موعد هام . وتذكر معركته التي لم تتم مع صاحب الفندق ، وكيف ان عليه ، الآن ، ان يظل في هذا المكان حتى الصباح ، كان ذلك اشبه بالاختناق : البطانية الخشنة ، الرائحة الثقيلة . . . وبين النوم واليقظة ، استعاد تلك الليلة في سجن الترحيلات ، قسم الخليفة ، كما يستعيد عاراً .

لم يستعدها بالتواتر الزمني ، الذي نحكيه هنا ، بل كان يستحضرها كمشاهد ، يتأملها ، ويعيد استرجاعها الى حد تعذيب الذات . وكانت تلك المشاهد ، تندغم في ذلك التحلل والخلط الذي يدهم التذكر ، واحلام اليقظة ، في اللحظات الفاصلة ، بين النوم واليقظة .

الحجرة التي ادخله اليها امين الشرطة واسعة ـ بدت له واسعة جداً ـ وتكاد تكون خالية . السقف العالي والجدران المتربة اضفت عليها سمة الاماكن المهجورة . على امتداد الجدران ، دكة حجرية ، علوها متر تقريباً ، تحيط بارضية الحجرة العارية ، وتنقطع عند دورة المياه ، الواقعة في الطرف الآخر للحجرة ، المواجه الباب . قريباً من الباب ، على يسار الداخل كان يجلس عدد من الاطفال ، فوق الدكة ، صامتين ، محدّقين .

قال له امين الشرطة ، وهو يتوقف قرب الباب :

ـ فيه هنالك من جماعتك .

ـ سياسين ؟

ضحك امين الشرطة ، وقال :

ـ سياسين ! فلسطنيين ! سميهم زي ماانت عايز .

كان مرحاً . فلقد ابتز من غالب جنيهاً ، وهما في السيارة ، وهاهو يقدم له خدمة مقابلها .

المكان الذي اشار اليه امين الشرطة ، كان ركناً في نهاية الحجرة ، بين دورة المياه ، وزاوية الحجرة . كانت مميزة بحصيرة مفروشة على الارض وبطانيات مطوية لصق حائط الدورة . وكان يجلس هنالك خمسة اشخاص كان احدهم يدقق فيه النظر منذ دخوله . وعندما اقترب ، نهض وقال :

ـ اهلاً غالب .

ومد يده فصافحه غالب . كان سعيداً حين وجد احداً يعرفه . سلم غالب على الآخرين . بعد جلوسه ، قال له الشاب الذي رحب به :

ـ انت مابتعرفني . كنت في الندوة . وسمعت لما اعتقلوك . اسمي سامي .

يستعيد الآن غالب الجالسين ، لاكمارآهم ساعتها ، بل كما يتذكرهم الآن : الفلسطيني الآخر ، برأسه المحني ، والذي كان يرفع عينيه ببطء وينظر الى غالب . كان يصغي بوجه محايد ، ونظرة صارمة . ولم يكن يقول الا القليل .

كان الفلسطينيان قد افسحا مكاناً له فجلس . وعرف ، فيما بعد ، انهما يعملان في الكويت . اعتقلهما المخابرات الحربية المصرية ، منذ اسبوع ، تقريباً . حققت معهما بتهمة الانتماء الى تنظيم فدائي فلسطيني .

لم تقتنع انهما جاءا للفسحة . ثم صدر الامر بتر حيلهما . بعد دقائق من وصوله ، اعتبرا غالب واحداً منهما ، في الطعام ، ومكان النوم ، والقضية . وجرى الحديث بين الثلاثة بتلك اللغة الملغزة ـ انصاف العبارات ، والنظرات التي تقول كثيراً ، الصمت ـ التي يتقنها ابناء الفكر السياسي الواحد .

الثالث ، كان رجلاً نحيلاً ، عابساً ، قاتم السمرة ، له جبين واسع ، وعينان لامعتان ببريق غضب دائم . كان يجاوره صبي ، يلبس كنزة صفراء ، له وجه ودود ، وعينان ضاحكتان . كان يبدو عارفاً بكل مايحدث في السجن ، وله وسائله في الحصول على الشاي والسجاير والطعام .

الخامس ، كان ابو راتب . دمشقي ، متهم بقضية حشيش . كان سميناً ، يرتدي ملابس سوداء ـ بذلة سوداء واسعة ، وكوفية سوداء ـ يبرز منها وجهه الابيض الكبير ، بشاربه الكث . كان ناعماً ، ذلك الدمشقي . رقيق في حديثه ، لايقحم نفسه في شيء ؛ ولكنه على استعداد لتأدية اية خدمة ، او للاصغاء بانتباه لكل حديث يوجه اليه . ولكن غالب ، لمس ، تحت هذا المظهر ، ذكاء حاداً ، وصلابة كالفولاذ .

ثم الأطفال !

اغرته سعة الحجرة بالمشي . يتذكر انه توقف امام الأطفال ! رغم وضوح هويته كسجين . عامله الاطفال بحذر وخوف ، في البداية . عندما حياهم ، ردوا جميعاً بصوت واحد ، مستعار من رجال اكبر منهم سناً :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله .

سألهم عن سبب توقيفهم : انت ؟ وانت وانت ؟ كلهم قالوا ، واقسم واحد منهم ، ان ذلك تم بلاسبب .

قال غالب :

ـ ماشيين في الشارع ، كده ، ومكوكو ؟

انفجر احدهم بالضحك .

ـ بتضحك ليه ؟

قال :

ـ دا نشال .

اشار الى طفل له وجه مرهق . فالتفت نحو الطفل الضاحك وقال :

ـ ماتلم ياابن القحبه .

كان له صوت رجل ، وغضب رجل . قال له غالب :

ـ وايه لزوم الشتيمة بقى ؟

قال ، مشيراً للطفل الآخر :

ـ اصله عيل ، يابيه .

شعر غالب بنفور منه . تساءل : هل هوطفل دمرت الحياة كل مرح الطفولة فيه ، ام رجل توقف عن النمو ؟

قال غالب :

ـ بيضحك معاك ياأخي .

لم يكن ودوداً حين رد قائلاً :

ـ ضحك يودي في داهيه .

هل شعر غالب بالخوف من هذه الصرامة ؟ احس بالطفل يصرفه من حضرته ، فتملكه التحدي :

ـ امال مسكوك ليه ؟

ـ نصيب .

ثم انتبه ان سامي يقف بجواره ، فوجد فيه خلاصاً من مأزقه . قال :

ـ شيء غريب !

قال سامي :

ـ رياض الاطفال في دولة العلم والايمان .

ثم سارا سوياً ، صامتين . كان غالب مازال مستفزاً ، وهو يسترجع كلمة « نصيب » ، التي قالها الطفل . لقد نطقها بصوت عريض ، فيه تحدي البلطجي الذي يتأهب للعراك ، وفيه انهاء لحديث لايعجبه .

قال سامي دون ان ينظر اليه ان عليه ان يكون حذراً في حديثه . التفت اليه غالب ، وقال :

ـ اللي قاعدين معنا ؟

فقال سامي ان الصبي الذي يلبس الكنزة الصفراء ينقل كل مايسمعه لرجال المباحث . التقت نظرات الصبي بنظرات غالب . . كان الصبي يبتسم . ينتفض جسد غالب . فيجلس فوق السرير . احد النيام يهمهم بشيء يصعب تبينه . يتمطى غالب . فيسمع طقطقة عظامه . ولكن ماكان يريد الهروب منه . يفرض نفسه عليه : نظرة الصبي الذي كان يلبس الكنزة الصفراء . كانت نافذة . وقحة . ضاحكة . ولكن شيئا ما . دنيئا . فيه استغاثة نفذ منها الى غالب . فشعر بالقشعريرة تنساب كالماء البارد . في قمة رأسه . وظهره .

كره نفسه . والصبي . وهذا الحديث . قال لسامي :

ـ السجن قاضي .

نظر اليه سامي فجأة . لم يكن يتوقع ردا كهذا . على ماقاله . ثم عاود السير . قال بعد قليل : انتظر حتى المساء . لن تجد موطئا لقدم .

عادا للصمت . مواصلان سيرهما .

كالمغناطيس اجتذبه وجه الصبي . حاول ان يقاومه . فلم يستطع كانت ثمة غريبة تتلبس الوجه شيء ما في انحناءة الرأس . والعينين المسبلتين . ثم . تلك الحركة السريعة برأسه الى الوراء . يرد خصلة من شعره الكستنائي . وخلال تلك النظرة السريعة . اللامعة . التي ابتعدت على الفور . بعد ان التقت بعيني غالب . . .

كان غالب خائفا . مايزال خائفا في هذه اللحظة وجدت الكلمات لتصف وتريح : « الصبي يفوح جنسا وعنفا » . وتمدد غالب على السرير وهو يستعيد وجه سامي : جادا . صلبا .

كانت لحظة من الخدر . بين النوم واليقظة ـ ربما نام دون ان يدري ـ اختلطت فيها ملامح الصبي . بالطفل الشاب . اصبحا واحدا . او على الاصح . واحدا انقسم الى اثنين . شيء ما يربط بينهما . قال غالب لنفسه . عدم استيقظ على حركة . كان احد النيام يئن . ثم رآه ينهض . يسير متعثرا في مشيه . ويغادر الحجرة . متجها الى الممر .

نظر غالب في ساعته . كانت الثانية وبضعة دقائق

يعود غالب الى سامي . ليهرب به من الصبي . والطفل الشاب كان سامي يقول : في المساء سوف يأتون بعشرات من مهربي البضائع بين ليبيا ومصر .

واحد هنالك صامت ، يقظ ، يفيض بتحفز ، خلق فراغا حوله . رغم ضيق الركن الذي يجلس فيه ، كان هنالك مسافة بينه وبين الآخرين . غالب يعرف هذا النمط من الرجال . يعرف هذا الهدوء الخارجي ، والحركات المحسوبة ، والادب الشديد في التعامل ، والصبر على التفاصيل العملية ، ولكنه متحفز على الدوام . وفي اللحظة المناسبة ، هو الذي سيطلب الى ركاب الطائرة ان يلزموا اماكنهم ، والى الطيار أن يغير اتجاه الطائرة .

لقد كان احمد هذا ، في اليوم التالي ، عندما نودي اسم غالب ، طالبين اليه ان يستعد للرحيل ، هو الذي تحدث اليه . قال :

ـ الى بغداد ؟

قال غالب :

ـ الاغلب .

اخرج عشرة جنيهات ، وكنزة صوفية ، وبعض علب السجاير واعطاها لغالب . قال :

ـ خليك حذر

وبدا سامي كالغريب حين ودعه . سارابجوار احمد وودعاه عند الباب . قال احمد :

ـ مع السلامة ، رفيق .

في مشيته بجوار سامي ، يتذكر ، الابتسامة الحلوة للطفل الضاحك يتذكر الطفل الشال ، محدقا امامه ، يحاول الاتلتقي عيناه بعيني غالب تلك النظرة المتجاهلة ، كانت تستفز غالب . مازالت تستفزه .

عند المساء ، قبل توزيع طعام العشاء بقليل ، اخذ المكان يمتلىء . عشرات الرجال اخذوا يتوافدون . حاملين على ظهورهم كتلا ضخمة ، ينوؤون تحتها . يضعونها على الارض ، ثم يجلسون فوقها ، او بجوارها ويتكئون عليها ، او يدفعونها لصق الدكة الحجرية ، ويسندون ظهورهم اليها .

ظلوا يتوافدون رغم انه كان يبدو ان لامكان لقدم . كنا نرى امين الشرطة وراء الاعمدة الحديدية لباب الحجرة ، يتقدم طابورا منهم . يفتح الباب ويدخل ، يلقي نظرة على الجالسين ، نظرة مدققة ، كأنه يبحث عن وجه بعينه ، ثم يصرخ :

ـ ارجع لورا ، ارجع لورا انت وابنه .

وتحـدث حركـة تراجـع عامـة . تبـدو امام عيني غالـب الآن . بلا صـوت ، بلا حركـة . يعطي الصـورة حركـة ، لايستطيـع استعـادتهـا ، الآن : حركـة تمايل الى اليمـين والشـمال ، ثم ـ وهم جلوس ـ قفـزة الى الـوراء . يحدث فراغ في مقـدمـة الحجـرة ، يشكـل الجالسـون خطـاً مستقيماً على حدوده ، وراءهم خطوط مستقيمة حتى نهاية الحجرة . ويلقي اللاهثون القادمون احمالهم . تنزلق الاحمال الى جانبهم الايسر ، تهبط ، ويهبطون معها حتى يصلان الارض .

ـ ٣ ـ

غفا . لايدري المدة . ثم استيقظ . كان الصبي ، الذي يلبس الكنزة ، قريباً منـه . كان عليـه ان يفتـح عينيـه ، يطـالـع المصبـاح ، المطلي باللون الاحمر ، النيام الحجرة ، وحتى يطرد الصبي . يجعله ذكرى .

يستعيده كذكرى . من الواضح ان الصبي يتجاهله . عندما تلتقي عيونهما ، تنطفيء نظرة الصبي . لقد ادخله غالب في سياق ميلودراما . وهاهو يحاول ان يزداد معـرفـة به . ادرك انـه يبـالـغ في ملاطفة الأخرين وعندما تشكلت الكلمات ، في فم غالب ـ « العاهرة » ـ ، احس بقشعريرة تغزو جسـده .

اعـد سامي العشـاء ، واخذوا يأكلون : جبـه ، بوليـف ، زيتون . كان احمد يأكل باستغراق . قال الصبي لنا :

ـ عايزين شـاي يابهوات ؟

قال سامي :

ـ هات اربعة .

قال ابو راتب :

ـ لا ، لا ، هذا واجب علينا .

وضـع يده في جيبـه واخرج بعض القطع النقدية . اختار منها شلنين ، ومدهما للصبي . قال سامي بحسم :

ـ زي ماقلتلك .

بلهجتـه الفلسطينيـة المتمصـرة . اقسـم ابـوراتـب ، بلهجة دمشقيـة نقيـة ، انـه هذه المرة ، هو الـذي سيـدفع ولكن الصبي مضى ، دون نقوده ، التي مازال يمدها بين سبابـة وابهـام يده اليمنى . تنهد ثم اعاد الفلوس . استغرب غالب اهمال سامي

للرجل الآخر ، الذى كان عابساً جداً .

راقب غالب الصبي ، يسير بخفة بين الأجساد ، ينهر ويشتم الذين يعترضون طريقه ، وهو يتحرك بخفة ، ورشاقة . لم يكن احد من الجالسين يحتج ، اويبدي اعتراضاً . كانوا يميلون باجسادهم حتى يعبر ، دون ان يلتفتوا اليه . وفي لحظة ادرك غالب كل شيء : كان الصبي بقفزاته الرشيقة ، يستعرض مفاتنه . واحس ، بشكل غامض ، ان ذلك قد اغضب الرجل الجالس وحيداً ، وزاد عبوسه .

اخذ الصبي ينادي :

- ياحضرة الكابتن ، ياحضرة الكابتن !

ظهر امين الشرطة من خلف قضبان الباب ، وفتح الباب ، فخرج الصبي .

نظر سامي الى غالب نظرة متواطئة . انه يذكره بما قاله عن الصبي بأنه ينقل كل مايسمعه الى المباحث .

مضت نصف ساعة قبل ان يعود الصبي . قال غالب لنفسه : لابد انه نقل لرجل المباحث ، الذي يجلس في حجرة مريحة ما ، من هذا السجن ، العلاقة التي نشأت بين الشابين الفلسطينيين وغالب .

بعد ان شربوا الشاي ، انطفأ النور عن الحجرة . كان الضوء مازال مشتعلاً خارجاً . انفتح الباب واطل امين الشرطة ، يحمل شمعة . حدّق في الداخل ، ونادى :

- ياحسن ! راح فين ابن القحبه ؟

قفز الصبي من بيننا ، وصاح :

- حاضر .

تحدث امين الشرطة ، وكان رقيقاً :

- صبركم ياجماعة شويه . حانجيب الكهربائي يصلح النور .

يتذكر غالب ابو راتب ، وهو يحمل الشمعة . اخرج شلنا من جيبه ، وقال :

- تبرعوا ياجماعة مصاري للكهربائي

اخرج الجالسين نقوداً ، ووضعوها في يد ابوراتب ، الذي سار بين الآخرين ، يشرح لهم ، ويتناول النقود منهم . وعندما وصل الى الباب ، نادى امين الشرطة ، ووضع النقود في يده :

- هاي مصاري للكهربائي .

اخـذهـا امـين الشـرطة ، واسـتدار مسـرعاً . وعندما عاد ابوراتب ، راح يشـرح فضـائل النور .

★★★

كان ذلك قبل ان ينقطع النور .

الـرجـل في حوالي الخـامسـة والثلاثين . الصلع لمس مقدمة رأسه ، ولكنه كان وسيماً . اثنان من امناء الشـرطة كانا يقفان وراءه . خاطب مهربي البضـائع :

ـ انا مدير القسـم .

علت همهمة . قال :

ـ خليني اكمل كلامي . انا ماشي دلوقتي .

ارتفع صـوت :

ـ بالسـلامة ، ان شـاء الله .

واصـل :

ـ يجـب اقول لكو ، خليكو رجاله . . فاهمين كلامي ؟ دول . .

اشـار الى اميني الشرطة ، اللذين كانا يقفان صـامتين . واضـاف :

ـ وامنـاء الشـرطـة التانيين رايحين يقولوا لكوراح نفتشكم . فاهمين يعني ؟ كل واحد عايز يهبش له هبشة . انا ، المدير ، بقول ، ماحدش يرضى يتفتش . ابقوا رجاله . . .

وقال كلاماً كثيراً . ثم انصـرف ، يتبعه امينا الشرطة .

مضـت خمس دقـائق ، اوربما اقل . وفجأة كان احد امناء الشرطة ورجلا اخر يقفان بين المساجين . الرجل كان يقف هادئا ، اما امين الشـرطة فكان يقف ، ممسكاً حزامه بيده ، ويزعق :

ـ المدير قال مافيش تفتيش ؟

واشار بيده الى الرجل الأخر وقال

ـ ده المدير .

كان المدير الجديد يبتسم . عاود امين الشرطة الصراخ :

ـ يعني ، ماتفتشوا . . . فاهمين ياولاد القحبة ؟؟

واخـذ صـوته يعلو ، ويعلو ، وكأنما امتداد لذلك العلو اخذ يضرب من حوله دون تمييز . حاول المسـاجين ان يبتعدوا ، ولكن حركة الابتعاد اثارت امين الشـرطة

اكثر . فأخذ يوجه ضرباته اليهم .

ثم توقف .

يتجمد المشهد ، فيدقق غالب في تفاصيله . يراه لصيقاً بالمصباح الاحمر الكريه يستعير ذلك المصباح ليضيء المشهد . مئات الكتل المدورة ، بجلاليبها وعمامتها البيضاء ، بلا وجوه . وامين الشرطة يمسك بالحزام العريض . والمدير واقف يراقب بحياد . . . عندما ثبتت الصورة اصبحت لوحة من لوحات بروغل .

ثم ينفجر المشهد ، كما في فلم صامت . المدير وامين الشرطة يمسكان باحد المساجين ، الذي يمسك ببضاعته . يخرجون هكذا من الحجرة .

قال ابو راتب :

- لاحول ولاقوة الابالله .

التفت الى احمد ، وقال :

- اخذوه للزنزانه .

كان صوته فاجعاً . ولم يدرك غالب دلالة العبارة الا في ما بعد الزنازين الداخلية يحتلها العريقون في عالم الجريمة . ومن يدخل اليها من المساجين العاديين يخرج فاقدا كل شيء حتى رجولته . الشذوذ الجنسي هناك ، وسيلة للاذلال .

ساد صمت طويل تخللته الحركات المعتادة : تحضير الطعام ، اعادة تنظيم المكان ، تبادل الكلام حول شؤون عملية بحته ، فانتهى التوتر الذي ساد منذ قليل . ثم ساد الظلام ، وادخل امين الشرطة الشمعة ، وجمعت الفلوس ، واخرجت مع الشمعة . وفي الظلام والصمت . اخذوا يسمعون مايحدث في الخارج .

انطلقت صرخة ، شلت الحركة والهمس في داخل الحجرة المظلمة . تلت ذلك اصوات مكتومة ، اشبه بسقوط اجسام كبيرة على الارض ، ثم صمت تلاه انفجار ضحكة عالية ، شعر بها غالب تسري تحت جلده كماء مثلج . ثم تكاثرت الاصوات . كان لها جرس الحوار الذي يدور حول مسائل عملية ، تنقصها اللهفة والحرارة . لم يكن بالامكان فهم مايقال ، بل ايقاع رتيب ، تكررت في داخله كلمة « طبعاً » .

ثم انطلقت الصرخة مدوية ، اخترقت الاصوات ، واسكتتها . وانفجر صوت آمر ، قوي ، بدا وكأن صاحبه يصعد السلالم مسرعاً :

ـ كفاية بقى !

تبعت ذلك اصوات متخاذلة كأنها رجع الصدى .

ثم ساد الصمت طويلاً . تتخلله اصوات حركة : وقع اقدام ، سقوط شيء ما ، ابواب حديدية تفتح . . . كل ذلك على خلفية من الصمت وكان للصمت صوت : الانين .

الظلام ، والمكان الغريب جعلا ذلك يبدو ، وكأنه يحدث خارج سياق هذا العالم . جعله جدياً كالطقوس ، كحركة الافلاك في فراغ رمادي .

مرت في ذهنه فكرة ـ نصف فكرة : ماالذي يفكر فيه هؤلاء الفلاحون ، الجالسون بصمت ، وهم يحتضنون بضائعهم المهربة ؟ كيف سيحكون ، في قراهم ، عن ذلك الفلاح الذي يغتصب ، الأن ؟ بدا ذلك تافهاً جداً ، وسط ذلك الصمت .

ثم اضاء النور . ومعه دهشة وخيبة امل . فكل شيء عاد كما كان .

قال سامي :

ـ الكلاب !

نظر اليه احد ، وهز رأسه .

بعد ذلك اخذت الاشياء ، والبشر ، والحادثة حجمها الطبيعي علا لغط مفاجيء بين الفلاحين ، خاصة الجالسين قريبا من الباب .

ثم سمعت همسة ، كان لها دوي :

ـ لاحول ولا قوة الا بالله .

اخذ الفلاحون يتعدون عن الباب ، وعيونهم متجهه اليه . كان هنالك صخب في الخارج، وانفتح الباب ، وادخلت تلك الكتلة الدامية ، الممزقة الثياب : الذراعان تلتفان حول عنقي امين الشرطة ، والساقان لاتكادان تلمسان الارض ، والجلابية البيضاء مشقوقة من النحر ، حتى منتصف الجسم .

دخل امينا الشرطة من الباب ، وسارا به بين الجالسين ببطء ، تخيل غالب للحظة وكأنهما يعلمانه المشي .

وانفتح فم الرجل المحمول ، وصاح :

ـ اي ، باي !

قال امين الشرطة الذي على يساره

ـ خليك راجل ، امال !

رأى غالب ان فم الفلاح المفتوح كان يسيل بدم وزبد .

قال الصبي ، هامساً :

ـ دول كسروا اسنانه !

نظر اليه احمد ، ولم يقل شيئاً .

توقف الثلاثة . واخذ الرجل يهبط ببطء .

ارتفع صوت :

ـ لاحول ولاقوة الابالله .

صرخ امين الشرطة .

ـ اخرس انت واياه !

ثم فجأة ، وكأن اميني الشرطة ، قد سئما ذلك كله ، دفعا الرجل فهوى الى الارض .

قال احد الامينين :

ـ افندم ! اي خدمه !

واخذ يتفرس في الجالسين .

جذبه زميله ، وقال :

ـ سيبهم بقى !

وخرج الاثنان وهما يغلقان الباب بقوة .

ساد الصمت .

ثم ارتفع صوت احد الفلاحين :

ـ امال حاجته فين ؟

اخذ الرجل العابس ، الجالس قرب احمد ، يقهقه .

التفت الفلاح نحوه ، وقال :

ـ البضاعة يعني .

ـ ٤ ـ

كان نومه متقطعاً . يصحو لثوان قليلة ، يبحث بعينين مرهقتين عن الشباك ـ الباب ، المؤدي الى الشرفة ، عن باب حجرة النوم ، الذي ينفتح على الحمام ، عن

الـدولاب . ولكن الحجـرة تتمرد ، وتخفي تفاصـيلها المألوفة . يحاول ان يرغمها على ان تكـون حجـرة نومـه ، في شقتـه ، في ميـدان الـدقي ، ولكنها تعصى . ثم يباغته المصبــاح المعتم ، ونفـس النيـام ، فيقـرر ان يطفىء هذا ، ويتعجب كيف جاء الى بيته ، ثم يعـود الى نوم كابوسـي ، ثقيل .

صحـا مرة اخـرى . حاول ، وعينـاه مغمضتـان ، ان يتعـرف على المكـان . الـرائحـة الغريبة وشيء اخر يلحّان عليه . شيء غريب يحدث ، وعليه ا ن يتخلص من هذا النـوم ، ليمنـع حدوثـه . يفتـح عينيه فيهاجمه الضوء كصدمة ، فيغلق عينيه ويأخذه النوم .

ثم اسـتيقـظ ، فرأى الضـوء الابيض يتـسرب من الشـباك . اصبح ضوء الحجرة مجرد مصبـاح مدهـون بطـلاء احمـر خشـن : ذكرى مفرحة انبعثت في داخله حاول ان يـستعيدها ففشـل . وعندما هبط من الـسرير تذكر انه في بغداد ، مازال الجميع نياماً ، ممددين على سجادة قديمة ، فوق ارضيـة الحجرة . احد النيام كان يهمهم بكلام مبهم .

في الخـارج ، احـس ، بالتهـاب حلقـه يـسبب له المـاً حقيقيـاً . الشـارع خال تقريباً ، عدا بعض النـساء . كن يلبـسن عباءات ، تخفي الجسـد والشعر ، فلا يظهر الا الـوجـه . كانت الوجوه تفيض سـذاجة ودهشـة . كذلك بدت المدينة كلها : حادة وطيـبة القلب . قال لنفـسـه : « هكـذا تبـدو كل المـدن لاول وهلة ! » . ولكن فرح فاض عن حكمته .

سـار الى نهايــة الشــارع ، يشم رائحــة الـزيت والطعميـة . تأكـد من اسـم الشارع ، قبل ان يتجه يـساراً في شارع الرشـيد . كان اسـم الشارع : سـيد سـلطان علي .

رائحـة اللحم المشـوي تشـيع في الشـارع ، وفي وقت واحد ، احس بالجوع ، وبـالم حلقـه . لمحت عينـاه يافطـة مكتـوب عليها « صـيدلية المنار » . كانت مغلقة . واحـس غالب ان المدينة قد ارتكبـت اول خطاياها .

دخـل احـد المطـاعم . كان صـغيراً ومـزدحمـاً . جاءه الجـرسون واخذ يعد د اصـناف الطعام : تكة ، جلفراي ، كباب ، . . واصـناف اخرى مبهمة . قال :

ـ كباب .

فجاءه الجـرسـون بكفتـة . لم ينـاقش . على اية حال ، فالجرسـون لم يكن في

حالـة تـسمـح بالنقـاش . فقـد وضـع الطعـام امـامه ، وزعق بكلام غير مفهوم فوق رأسـه ، واختفى .

في الشارع ، سار باحساس الشخصية العامة ، التي تسير متكرة ، كان ذلك مضحكـاً ؛ ولكنـه حلم يقظـة قديم ، يتجـدد . ينتهي الحلم دائـماً بأن يتعرف عليه شـخص من خيشيع المسألة ، في الشارع كله ، والمدينة .

ثم كانت المفاجأة التي اذهلته بالفعل !

كان يود ان يعبر الشـارع نحـو الصيـدليـة . كانت المكتبة على يساره ، وقد صفت امام البـاب اعـداد كبـيرة من الكتـب . كتـاب ما ، غير محدد اجتذبه قبل ان يغـادر الـرصيـف . فوقف امـام الكتـب واخـذ يقرأ عناوينها . وخفق قلبه . كان هناك كتـاب يحمـل اسـمه ، بعنوان « زنوج وبدو وفلاحون » . امـسك بالكتاب وتفحصـه . انه من اصـدار وزارة الثقافة والاعلام العراقية . الغريـب انه لم يرسـل مخطوطة لتنشر في العراق . فكيف حدث هذا ؟

اتجـه نحـو سـاحـة التحـريـر ، حيـث قال له صـاحب المكتـبة ان وزارة الثقـافـة والاعـلام توجـد فيهـا . فكـر ان كل شيء سوف ينتهي في دقـائق ، يعود بعدها الى المقهى ، في انتظار مجيء اصـدقائه المصـريين .

وارتـسمت في ذهنه صورة لمايتوقعه :

تصـور الوزارة مكاناً عتيقاً ، شبيهاً بمصلحة الشهر العقاري ، بباب الحديد ، في القاهرة . الموظفون الذين يتناولون السندويتشات وينظرون بسأم الى المراجعين . تصـور الارشـيف يغص بمئـات الملفات والاضـابير التي يعلوها التراب . وفي الداخل موظف عجـوز جداً ، يلبـس نظـارة طبية ، ذات اطار معدني ، تنزلق على طرف انفه حين يرفـع رأسـه عن الـورق ، ويطالعك . وسـوف تكون له طيبة العجائز وخبثهم . مثـلاً ، سوف ينـادي الفـراش ، ويطلب اليه ان يحضر فنجان قهوة للزائر ، وقد اتفق معـه مقـدمـاً الا يلبي الطلب . ثم يأخـذ بالشكوى من فراشي هذه الايام . الذين لايلبـون لك طلباً ، حتى لو بححت صوتك وانت تطلب وترجو . اين هم من فراشي ايام زمان ؟ وسوف يتظاهر غالب انه انخدع ، فيكتم ضحكه . ولكن العجوز سوف يكـون كفـوءاً في عمله . حركتـه بطيئـة ، ولكنـه كفؤ . سوف يسأل عن سبب « تشريفه » فيشرح له غالب ، انه يريد ان يسـأل عن مكافأة كتاب صدر له . سوف يتأكـد العجـوز من اسـمـه اكثـر من مرة ، مـستغربـاً « هلـا » ثم سوف ينهض العجوز

ببطء ، ويزيح كرسيه الى الخلف ، محاولا الصعود فوقه ، ليأتي بالملف . يقول له غالب :

ـ بعد اذنك .

فيشير العجوز باصبعه الى الملف ويقول :

ـ هناك .

فيمد غالب يده ، ويأتي بالملف ، وسوف ينتهي كل شيء في دقيقة . يتأمل غالب المشهد كأنه امامه فيكاد يضحك .

ثم يتذكر ان بعض تفاصيل المشهد قد استعارها من احدى تمثيليات التلفزيون المصري .

ـ ٥ـ

لم يكن هنالك بناء عتيق ، ولاارشيف ، ولاموظف عجوز . . . بل بناية حديثة ، وحجرات انيقة ، بها مكاتب من طراز ايديال ، واجهزة تليفون ، وشبان وفتيات بملابس انيقة . . . (هل فوجيء غالب بالفعل ؟ الم يكن في داخله يعلم ان هذا ماسوف يجده تماماً ؟) . . .

بمجرد ان ذكر غالب اسمه انتهى تماماً . اسماء القصاصين والروائيين والشعراء ، الذين يزحمون المكان ، معروفة لديه ، واسمه معروف لديهم . . . بل انهم كانوا يتوقعون مجيئه . ولكنهم ـ تأدباً ـ سألوا :

ـ ماذا حدث ؟

وحكى لهم ان ندوة اقيمت في القاهرة عن « المخطط الامريكي في المنطقة العربية » ، وانه كان يرأسها ، وعندما انتهت ، القوا القبض عليه ، ثم وضعوه في طائرة متجهة الى بغداد .

انهم يعرفون . وكانوا يتوقعون وصوله قبل هذا الموعد . لقد نشرت الصحف انباء الندوة ، وانباء القاء القبض عليه .

وتداعت الامور : دعوة للغداء ، ثم الجلوس في مقهى البرلمان ، ثم النقاش في الشكل والمضمون . تحدثوا باعجاب عن فوكنر . سألوا عن آخر اخبار ادباء القاهرة ـ وادباء القاهرة ، بالنسبة لهم هم الذين يداومون الجلوس في مقهى ريش نهارا ، ونادي الاتليه ليلا ـ . ثم تناقشوا عن علاقة الايديولوجية بالفن .

وهكـذا نجحـوا ، في نهايـة الامـر ، أن ينـزعـوه من بغداد ، التي لايعرفها ويجاهـد ان يتعـرف عليهـا ، ويضـعـوه في قلـب بغـداد الكوزموبوليتانية ، بغداد التي لاتختلف في رطـانتهـا ، عن الـرطـانـة التي تـسمعها ، حين تدخل مقاهي المثقفين في القاهرة ودمشـق وبيروت وتونـس والدار البيضاء . شعر غالـب انه في محيطه الطبيعي ، واندفع مع الموجة .

(للحظات ، تذكر اصـدقاءه المصريين ، في شارع سيـد سـلطان علي ، واجرى مقـارنـة سـريعـة ، نفـذت في قلبـه كالسكين : في ذلك الشـارع استغرقوا في تفاصيل الحيـاة اليـوميـة ، زاد الكـاتـب وماؤه ، المادة الخام للفكر والادب الحقيقيين ، مصـدر التنـوع والجدة . لقد بدأوا مؤكدين الخصوصية والتمايز ، الاحداث الصغيرة المشبعة برائحـة الحيـاة ، وانتهـوا الى التشـابـه « كلنا عرب ، ولكنها لهجة » . اما مع هؤلاء المثقفين ، فتنتفي الفـروق ، وحين تذكـر ، فانـها كطرائف . (شعر بأنه يتخلى عن وظيفتـه الحقيقيـة ، عن الكـاتـب الحقيقي في داخله . لم يبق له الا الحـذق والخبرة التكنيكيـة ، وتلك الحكـايـة ، التي لاتنتهي : حكاية حياته . احس انه سوف يظل يدور لما لانهـايـة ، في داخـل هذه القبيلة ، التي تعيد انتاج مانقرأه في دائرة لاتنتهي ، سيظل في اطار هذه القبيلة ـ قبيلة المثقفين العرب ـ في مدن العرب كلها . .)

كانت لحظة وعبرت .

وســارت الامـور في تتال متوقع ، ومريح . انتهت بسـيارة مرسيدس 220S ، وقفت امام الفندق البائس الذي يسكن ، فحمل ملابسـه القليلة ، وسارت به السيارة الى فندق فاخر ليصبح ضيفاً على الحكومة العراقية .

في اللحظـة ، التي تحركت فيهـا السـيـارة ، من امـام الفنـدق رأى ذلك الشـاب الهـادىء ، الـذي تصـور غالب حلاقـاً ، ودبـر له عملاً في صـالون المدبر . طلب من السـائق ان يتـوقف قليـلاً ، وغـادر السـيـارة . كان الشـاب المصري ينظر الى اللوحة المعـدنيـة ، المطليـة باللون الابيض ، والمكتوب عليها « وزارة الاعلام ـ وفود » ، ثم يدقق النظر في غالـب . بدا واضحاً ان الامور قد اختلطت عليه . قال له غالـب :

ـ الجماعة ، يعني الحكومة . . . زي ماانت شايف . . .

قال الشـاب بتردد :

ـ اشتغلت ؟

قال :

ـ لا ، لا ، انا ضيف الحكومة . . . ماهوه بصراحة ، انامش حلاق ، يعني انا ماقلتش . . .

ـ حضرتك يابيه اشتغلت سواق ؟

قال غالب بنفاذ صبر :

ـ لا ، لا ، انا ضيف ، انا صحفي . . . كاتب يعني . . .

وشعر غالب انه ، اطال ، فقال :

ـ عن اذنك .

فقال الشاب بصوت قوي ، استغرب غالب صدوره عنه :

ـ تفضل يابيه ، تفضل يابيه .

ـ ٦ ـ

شارك غالب في بعض النشاطات الثقافية ، ولكنه لم يحقق المشروعات الكبيرة ، التي كان يحلم بانجازها . شرب البيرة في بارات شارع السعدون ، والوسكي المغشوش في دار اتحاد الادباء ، والشاي صباح الجمعة في مقهى البرلمان . كان طرفاً في بعض المؤامرات الادبية ، وتعرض لكثير منها . تحدث عن المساواة بين المرأة والرجل ، فنالت اراءه موافقة جماعية ، ولكنها قلت من احترام الآخرين له . قال : آراء في الحياة الاجتماعية اعتبرها السامعون نكاتاً ، وقال نكاتاً اعتبروها آراء . ازعجه هذا الخلط فحاول ان يشرح فاعتبروه ظريفاً جداً ، فانتهى الامر به الى اليأس .

اما شارع سيد سلطان علي ، والاصدقاء الذين التقاهم في الليلة الاولى ، فقد كانوا ، في خياله ، ذكريات حدثت في مكان آخر . لقد بدا له ، انه لمجرد ان غادر ذلك الشارع ، راكباً سيارة المرسيدس ، ان ذلك الشارع نهض ، في التو واللحظة ، وهرول خارجاً من بغداد .

★★★

ثم يبدو أن غالب دعي الى حفلة .

الوجه الثاني

الحفلة
أو
كوميديا بالأسماء

- ١ -

هذا الحي ، من احياء بغداد ، له خصوصية . هواؤه ، رغم حر بغداد القاتل ، ناعم ونقي . تشيع فيه عطور الياسمين واريج زهور القدّاح المسكرة . هواء تحب أن تذوقه ، او ان تحتفظ به . بيوت هذا الحي حلم يقظة ، يتراوح بين التجدد والمراوغة ، باسوارها الحجرية ، وحدائقها الكثيفة الاشجار ، والضوء الملون يشيع في المكان كالضباب ، وضوء النيون الابيض ، عذرياً ، بريئاً ، يجاهد بمعابثة ضاحكة للنفاذ من الاغصان . ولكن نسمة خفيفة تسد بعض المنافذ ، وتفتح أخرى ، فتعتقد ، انت السائر في الشارع ، ان تلك هي لعبة الضوء الأبيض ، القادم من انابيب معلقة في جدار البيت الخارجي .

هل هذا كل شيء ؟

لا . فهنالك الشرفات الواسعة ، والزجاج النبيذي والبرتقالي والاخضر ، يبدو وكأنه يشع الضوء من سطحه المحبب ، وهنالك العشب الذي يكسو الحديقة ، والطرقات الاسمنتية التي تتخلله . وهنالك ، بين الاشجار ، المراجيح ـ الكراسي ، وكراسي الخيزران المنّجدة بالمساند المحشوة بالاسفنج ، تتناثر في فراغات بين الشجر . وفي الممر ، الذي يؤدي اليه باب الخارجي ، ترى سيارة تيوتا واقفة ، ودراجة طفل ، ولمحة من شباك المطبخ الذي ترى زجاجة خلف ارابيسك من المعينات والمثلثات الحديدية ، و . . . ظل امرأة يسقط على الزجاج .

والمرأة ؟ وتئن احشاؤك شوقاً ، وتمتلىء بانفعالية مضى زمنها ، اذ تراها ـ تلك المرأة ـ في اطار التاريخ ـ الاسطورة حلم اليقظة متجذّر في التاريخ ، في عراقة الماضي ، وحكايات الف ليلة وليلة ، وكتاب الاغاني و . . . هذه بغداد في النهاية ، والذاكرة لازمن لها . وهذاالشارع ذاكرة الاسطورة والتاريخ والحلم ، وانت في

قلبها .

ثم تدخل واحداً ، من تلك البيوت ، وترقب : فترى الحلم يتفكك ويتبعثر : الحديقة ليست بتلك السعة التي تصورتها . مجموعة من الاشجار قد لاتزيد عن العشرة . وفي داخل الفيلا تصدمك الفراغات ، التي لاوظيفة لها ، تلتهم المكان ، فيبدو ضيقاً ، رغم اتساعه . ولقد اوحى لك المكان ، انك تستطيع ان تتوه وتختبىء في سراديبه ، ودهاليزه ، وحجراته السرية ، واذا به مفتوح على الهواء والشمس ، وعلى تلصص العابرين . تلك الشبابيك التي تحيط بالبيت من كل جانب ، وليس لك الا الستائر تخفيها وراءها ، والصمت ، الذي يجعل الهمسة ، والخطوة ، في كل جزء من البيت تنتشر الى كل الاجزاء الاخرى ، فاضحة الاسرار ، عابثة بالخلوة ، فتشعر وكأنك تعيش في العراء .

ولكن الغريب في الامر حقا ، هو انك ماتكاد تغادر هذا البيت وانت مفعم بالخذلان وخيبة الامل ، حتى ينبعث حلم اليقظة ، مرة اخرى ، اقوى مما كان . اقول « اقوى » لأن الحلم استمد حياة جديدة من المشاهدة . انك تعيد بناء البيت تغرس له جذوراً عميقة في الارض ـ اقبية وسراديب وزنازين ـ توسّع حديقته ، تصنع له حوشاً داخلياً كحوش (المسافرخانة) في القاهرة ، وشبابيك ضيقة ، عالية ، بزجاج معشّق ، وتضع حواجز للصوت . . . وماذا يفضك ! فكل تكنولوجيا احلام اليقظة

ـ ٢ ـ

شعر غالب ، منذ اللحظة الاولى ، ان هنالك خطأ ما في دعوته الى هذه الحفلة . او ، ربما ، في قبول الدعوة اليها . ولكن ، هل دعي اليها حقا ؟ هذا مالايستطيع الجزم به . كان يجلس في مقهى البرلمان ، ثم تتالت الاحداث . كانت هنالك سيارة تقف امام المقهى . . . ثم . . . لم يعد يتذكر . . . واذا به هنا .

والكـارثـة ، التي مابعدها كارثة ، ان يكون غير مدعو اصـلا ، وانه جاء يفرض نفسه عليهم ، دون لبـاقـة . . . وان يكـونوا حائرين كيف يتعاملون معه ! هل يهمسـون في اذنـه باعتـذار رقيق ـ ان هذه حفلة خاصـة ، وان مكـانـه ليس هنا ، ثم يقودونه الى البـاب ؟ ام هل يتحملون وجوده على مضض ؟

اخذ يطالع الوجوه . هنالك بعض المعارف . ولكن ، هل هم معارف حقاً ، ام مجرد وجـوه مألـوفـة ؟ كان يحدث له هذا حين يدخـل مبنى التلفزيون . يرى وجهاً يعتقـد انـه يعـرفه . يبتسـم ويرفع يده بالتحية . فيرى الوجه يطالعه باستغراب . ثم يكتشف الحقيقة . ان هذا الوجه لممثل او مذيع يتكرر ظهوره على الشاشة ، وان هذا هو سبب الخلط .

الايمكن ان يكون هؤلاء المعارف ، مجرد وجوه شاهدها في مكان ما ، ولم يقم صـلة مبـاشـرة بها حتى الآن ؟ انـه غير متأكـد انه يعرف اسماءهم . فهو يسـمع اسماء ينادي بها : كاظم ، نجم ، حسين ، جاسـم ، رعد ، فهد ، وسعاد ، واسماء وبتول وسنـاء . ولكن الاسـماء تراوغ ، وتتملص ؛ تتلبس جسـداً ، ثم تنفلت منه ؛ فتظل الـوجـوه بريئـة ، عارية ، تكاد تلمح في العيون نوعاً من الخجل ، او الحيرة ، اوربما الالم ، لكـونهـا وجـوهـاً دون اسـماء ، او صفـات ، او تاريخ ؛ في حين تظل الاسـماء معلقة ، تنتظر ، في الفراغ ـ تظل مجرد علامات سؤال .

كان الـدوار الـذي استـولى على غالب ـ وربما ـ هو ماجعله يشعر ، انه يعيش اول يوم في تاريـخ العـالم ، حين كانت اللغـة تقـف على جانـب ، والموجودات على الجانـب الآخر ، يعيش اللحظة السـابقة لانسياب اللغة نحو الجانـب الآخر .

ولم تكن هذه هي المعضلة الوحيدة !

فقـد كان من الصعب ، ايضـاً ، تصنيف هذه الحفلة . لم يكن ـ ابتـداء ـ هنالك مناسـبة محددة لاقامتها . ام ان هنالك مناسـبة ما ، ولم يكلف احد نفسـه ابلاغه بها ؟ كما عجز غالب عن تحديد اصحاب البيـت ، الداعين الى الحفلة . يبدو هذا او تلك وكأنهـما اصحـاب البيـت لدقـائق . ولكنهـما يجلسـان فجأة في اماكن الضيـوف المميـزين ، ويتصـرفـان كضيفـين خجولين . تكرر ذلك المرة بعد المرة ، حتى اصبح هنالك شبه يقين عند غالب ان اصحاب البيت لاوجود لهم .

هل اقتحـم المدعوون هذا المكـان ، في غيبـة اهله ؟ ، لم يكن ينقصني

الاهذا ! » قال غالب لنفسه .

وأي نوع من الحفلات ، هي هذه ، على اية حال ؟ انها بالقطع ليست حفلة كوكتيل ، رغم ان مجموعات ، من ثلاثة او اربعة اشخاص ، تقف حاملة كؤوس الويسكي في ايديها ، ورغم تلك المائدة الطويلة التي استعملت كبوفية . وضعت في طرف منها زجاجات الويسكي ، والجن ، والفودكا ، والبيرة ، وجرادل الثلج ؛ بينما تكومت فوق جزئها الاكبر اسماك مشوية (مسقوف) ومقلية ، لحوم مشوية ، لحوم مطبوخة مع مواد غامضة ، سلطات ، طرشي ، عنبا ، ثم كوم هائل من لحم الدجاج المحمر الخ . . . وهي ليست حفلة راقصة ، رغم ان البعض كان يرقصون في نهاية مكان الحفل ، الذي يتكون من قاعة كبيرة ، مكوّنة من حجرتين ، فتحتا على بعضهما . ورغم المكياج الثقيل على وجوه النساء وملابس السوارية السوداء التي يرتديها بعضهن ؛ ورغم البذلات السوداء ، والقمصان البيضاء ، ذات الازرار الذهبية ، واربطة العنق الفاخرة ، فالحفلة لم تكن رسمية . والا فاين كبار المسؤولين والحراس الذين يقفون على الباب ، والسيارات التي يجلس سائقيها ، خلف مقاودها بانتظار خروج المحتفلين !

ولكن ماالهية تصنيفها ؟ الحفلات وجدت قبل التصنيف وسوف توجد بعده ، وبالاضافة الى هذا ، فليست هذه هي القضية .

واشد ماازعج غالب ، وجعله يشعر بالوحدة والغربة ، هوعجزه عن فهم الحديث الدائر . كان يفهم نتفاً منه ، عبارات وكلمات مفردة ، ولكنه لم يستطيع وضعه في سياق . كان الجميع يشاركون في احاديث متفرقة ، بحيوية ، ولكن موضوع الحديث كان مبهما ؟ والكلام مدغما ، مختنقا . تعلو اصوات احدى المجموعات المحتفلة ، وتتحول الى صراخ وترتفع وتتردد كلمة : « قواد » احيانا مفردة ، واحيانا في صيغة المضاف اليه : « رب القواد » ، واحيانا اخرى بصيغة الاستنكار « غير قواد ! » ، ومرة أكثر بصيغة الجمع : « قواويد ، قنادر ! » . . . ويتوقع غالب ان يتحول الصراخ الى معركة بالايدي . ولكن الاصوات تهدأ فجأة ، وتصبح جزءاً من دوي الحفلة ، وانين المبردة ، وفحات المرواح .

ثم اخذ غالب يلاحظ امرا غريبا . فعندما يستغرق في ذاته ، وتصبح الحفلة ، بالنسبة له ، مجرد صوت ، لاانفصال له ؛ صوت يمتزج بحركة جسده الداخلية . . . يتبين لديه ان هذه الحفلة ايقاعاً خاصاً كان يبدأ بطيئا ، على شكل

همس رقيق ، خلقي . هنا ، يستطيع غالب ان يلتقط عبارات ، مثل : « انه وداعتك ، ووداعة ابويا » « هلا بالورد ، هلا بيك عيني » « آني ممنون » . ثم يتسارع الايقاع ويزداد علواً ، يترافق مع ضحكات قوية ، اوشتائم من نوع : « قواد ، قندره ، زمال » ويظل يتعالى الايقاع ، ويتسارع الى ان يصل قمة ما ، يعاود بعدها هبوطاً متدرجاً ، ينتهي الى شبه همس او سكون .

حين يصل الايقاع الى لحظة السكون . يتمايز انين المبرّدة ، وحشرجة المراوح . كانت قمة الكريشندو هي : « عباس » ، أو ربما « بالعباس » . بعد قليل تأكد لدى غالب ، انها عباس . فكّر غالب ان ذلك قد يكون مجرد صدفة ، اوربما انه هو الذي يسقط ايقاعه على دوي الحفلة . فاخذ يصغي ، باقصى قدر من الحياد ، فرأى ان ذلك يتكرر ، المرة بعد المرة ، دون تغيير . ولاحظ ، ايضاً ، ان اسم عباس يأتي بصياغات مختلفة ، مثل : « خوش ! عباس ! » او « عباس من هو عباس ؟ زين ، زين ، زين . . . » او « يابه ، عيوني ، شنهو عباس هذا ؟ »

على نحو غير واضح ، وبشيء من الخوف الذي لم يعرف له سبباً محدداً احس غالب بأنه مقصود بالحديث الدائر . كيف ؟ لايدري . هل هي العيون التي تراوغ ، تتملص بسرعة عندما تلتقي بعينيه ؟ للحظة ، تلتقي عيناه بعينين . فيرى الانف ينتفخ ، وتتفقد العينان تحددهما ، وتترددان هنا وهناك ، ثم يختفي الوجه . هكذا اذن ! فكر غالب . اصبحت مشكلتهم : هل انصرف ؟ قال لنفسه . لابد ان خطأ ما ، او ، على الاصح ، سلسلة من الاخطاء ادت الى مجيئه . هل يعتذر لهم عن هذا الخطأ المقصود ، ويغادر المكان ؟

ولكن شيئاً حدث ، حسم الموقف !

تشكلت بعض المجموعات المختلفة ، على شكل دائرة ، كان غالب مركزها . بدا وكأن ذلك ، قدتم دون تعمد . ثم وقف رجل في مواجهته . كان يلبس بذلة سوداء ، بدت ضيقة عليه ، خاصة الصديري ، الذي جعل غالب يعتقد ان كرش الرجل سيأخذ مداه الطبيعي ، ويمزق الصديري تمزيقاً . كان الرجل يلهث . (هل سبب ذلك ضيق ملابسه ؟ فكر غالب) . وكان قصيراً ، منتفخاً من الوسط ، يكاد يكون بلارقبة . له انف كبير ، ووجه سمين شاحب .

مد الرجل يده نحو غالب ، قبل ان يتكلم . وقد تشكلت اليد الكبيرة وكأنه يمسك بها برتقالة ، وسبابتها تقترب من غالب ، متجهة الى بطنه ـ موضع الصرة

بالضبط ـ واخذ يردد وهو يلهث :

ـ ايه ؟

قال غالب :

ـ انا ؟

قال الرجل بصوت عصبي مختنق :

ـ ايه ، انت !

ـ انا ؟

قال الرجل :

ـ رأيك . شنهو رأيك ؟

ـ رأيي ؟

ـ رأيك .

عن اي شيء يتحدث ؟ وماذا يحدث على وجه التحديد ؟ وتتالت اصوات الآخرين متسارعة ، متصاعدة في العلو ، وهم يقتربون وكأنهم يهددونه :

ـ قول !

ـ اشيك ساكت .

ـ احكي يابه !

ـ قابل اخرس !

ـ خرا بمذهبك ، دي قول ، احكي !

قال الرجل :

ـ اخرس ؟

بدا لغالب ، من طريقة القاء الرجل للسؤال ، وكأنه بالفعل يود ان يعرف .

قال غالب :

ـ لا .

ـ زين ، ماتحكي .

ـ صدق لله ، قابل نبوس ايده ، احكي عيوني !

وغالب يحاول ان يصد هذه الهجمة ، وان يشرح ، ويقول لهم انه لايعرف . .

قال :

ـ يعني .

كان واضحاً ان الرجل الذي بدأه بالسؤال ، قد انتهى الى نقطة لم يعد يطيق معها الصبر . كان يتنفس بصعوبة ، واخذ يزيل العرق من على جبهته بقطعة من الكلكش ، ويمر بها على حاجبيه وعينيه ثم توقف وصاح ، موجهاً حديثه للآخرين :

ـ عوفوه لخاطر الله !

قال غالب :

ـ بس يعني . . .

ـ ايه . هاي . بس يعني !

ـ زين سويت ! بس يعني .

ـ بس يعني . صدقه لله !

ـ ٣ ـ

اخذت الامور في التحسن . يبدو ان قراراً اتخذ بهذا الشأن . قدر غالب انهم اخضعوه لامتحان ما ، وانه نجح فيه . ولكن عجز عن فهم الاختبار الذي خضع له ، وعن الكيفية ، التي اثبت فيها جدارته .

دعاه الرجل القصير اللاهث ان يستريح . وسار امامه ، ثم اشار الى كنبه تتسع لاربعة اشخاص على الاقل ، كانت خاليه ، فجلس عليها غالب . جلس آخرون على نفس الكنبه ، وعلى كنبات مجاورة ، قد وضعت على شكل نصف دائرة .

قال الرجل القصير لغالب :

ـ الله بالخير .

فرد غالب :

ـ الله بالخير .

وتتالت التحايا ، الله بالخير ، وغالب يجيب .

بعد فترة صمت قصيرة ، بدأ الحديث . كان الكلام مفهوماً ، واخذ بعضهم يوجهون الحديث اليه . كان حديثا عن الجو . وافقهم غالب على رأيهم ، أن هذا الحر استثنائي ، حتى بالنسبة لبغداد ، رأى ان سعادة قد عمت الوجوه وكان عبثا قد

انـزاح عنهـا . ابتـسم البعض له ، واطـرق البعض خجلا . كان غالـب مليئا بالكلام عن الجـو في مختلف البلدان ، وقـد كاد ان يمتـدح الحر الذي لاترافقه رطوبة ، ولكنه قرر ان يتأنى قليـلاً ، قبـل ان يقـول كلامـاً يجعلهم يغضبـون منه ، وينطلقون في ذلك الحديـث الغامض .

عاد الصـمت . كان مريحـاً . البعض نهضـوا واتجهـوا الى المـائدة . عادوا وقد ملأوا اطبـاقهم بالطعـام ، وكؤوسهم بالـويسـكي . يتهامس اثنان ثم يتوقفان . وقد انطبع على وجهيهما تعبير تقوى .

اخـذ غالـب يراقب الـراقصـين . قدّر انهم هم ، ذاتهم ، لم يتغيروا منذ بداية الحفلة . الرجال بوجوه كالاقـنعة ، عيونهم مسـبلة ، واطراف انوفهم سـاقطة ، وكأنهم يسـيرون نيـامـاً . والنـسـاء يتحـركن بسـرعة ويدرن في المكان عيوناً لامعة ، ضـاحكة ، وكأنهن يتعرفن على كل وجه يقع في مجال رؤيتهن ، ويلقين اليه تحيه . لم يدع غالـب للرقص ، ولم يتـح له ان يراقص أي من النـسـاء الحـاضرات . الاغلب ان الرقص ، هنا ، كان مقتصراً على المتزوجين ، او من له اقارب من النـسـاء .

ثم لمح الفتاة . انخطف قلبه حين رآها تمر امامه . تصور ان الرجل القصـير يود ان يقـول له شيئـاً ، وحينـما التفت اليـه رآه يهمس الى رجـل بجواره . اما الفتاة فقد تاهت . اخذ يبحث عنها بعينيه ، في كل مكان ، ولكن دون جدوى .

اكتـشف غالـب ان كأسـه قد تجدد ـ كمية كـبيرة من الويسـكي ، وبعض قطع الثلج . كما وجد امامه طبقاً فيه نصف سمكة مشوية ، وبعض قطع اللحم المشوي ، وطبقاً آخر فيه سلطة . اندهش قليلاً ، فلم يكن ليختر طعاماً غير هذا ، لو كان هو الـذي قام بالانتقاء . ثم نسي كل شيء ، واخذ يبحث عن الفتاة . « انها هي ، اوربما تشبهها » ولكنه لم يستطع ان يتذكر من تكون ، او من تشبه .

يئـس غالب من العثور عليها . ولقد اعتاد مثل هذا اليأس في بغداد فالنـسـاء الجميـلات لم يخلقن له . اين ذهبـت تلك اللعينـة ؟ سـأل نفـسـه . وقـد شـعر بنفسـه عاشـقـا حقيقيـاً . سـوف يمضي وقت طويـل قبـل ان ينـسـاها . ثم ، اذ بها تباغته من الخلف . قالت :

ـ استاذ غالـب !

هذا النـداء الملعـوب ، والصـوت الـسـريع ، المليء بالضحك النقي الصـافي ، وخفة الدم ، يعرفه ، يعرفه كما يعرف اقرب الناس اليه . ويقلب ملهوف ، قال انها

هي ،هي بذاتها . قال :

- ليلى .

وكأنه يستغيث . التفت اليها . . فلم يعثر لها على اثر . واخذ يتلفت حوله : اين ذهبت ؟ مامعنى هذا كله ؟ ثم اذا بها تقف على يساره ، قريبة حتى ان ركبتها كانت تلمس كتفه ، منحنية عليه ، ووجهها قريب . قالت هامسة :

- ايه ؟

ثم ضحكت ضحكتها التي يعرفها جيداً ، ضحكتها الطلقة ، الصافية كالكريستال . قال :

- ايه الحكاية ؟ شفتك . . .

قالت :

- جاوب على سؤالي .

كانت اللهجة مصرية ، الا انها قد تكون هي غير مصرية شيء ما في الايقاع غير مصري . قال :

- مش واخد بالي . سؤال ايه ؟

- روايات نجيب محفوظ الاخيره . بحب اعماله الاولى اكثر ، خان الخليلي ، زقاق المدق ، بداية ونهاية .

واكمل لها غالب :

- القاهرة الجديدة ، السراب ، بين القصرين . . .

فقاطعته ضاحكة :

- قصر الشوق ، السكرية . . ايه اللي جرى له ؟ ولا ان ذوقي متخلف ! ،

وضحكت . وضحك .

لم يجب على الفور . اخذ يتأملها . يتذكر هذا الوجه ، يبدو مألوفاًالى درجة مذهلة . ماعليه ان يبذل مزيداً من الجهد ، ان يتخلص من حالة الحذر العقلي ، ويتحكم في إرادته ، حتى يستعيد عالماً باكمله . ولكن اين رآها قبل الآن ؟ الانتفاضة الرقيقة للخصر النحيل تدعوه لاسترجاع ملمساً ما . اجهد نفسه في التذكر ، ولكن الذكرى تنفلت منه . اللهجة التي تحدثت بها لاتنتمي الى مكان ، أو بلد بعينها وهذا يعني أنه بامكانها انْ تنتمي الى جميع الامكنة . تبدو خارج سياق هذا الحفل ، والمدينة كلها . ولكن من الواضح انها تمتلك الحيوية والجرأة واللباقة التي

تجعلها منسجمة مع المكان والحفلة ، وتعرف طريقها جيداً كأنها عاشت حياتها كلها في هذه المدينة ، وبين هؤلاء الناس .

ضحكت ضحكتها الطلقة وقالت :

ـ سارح دايماً . زي عوايدك .

يتذكر هذه الضحكة . . يتذكرها . . كيف بامكانه ان ينساها ! ولكن اين ؟ الشفتان الجميلتان ، الحمراوان كشفتي طفلة يستعيد مذاقهما على شفتيه . هل هي طالبة في جامعة القاهرة ؟

قالت ، وهي ماتزال تضحك :

ـ آه ، ياني منك !

وطالعته بنظرة مباشرة ، صريحة نظرة مشحونة بشيء حلو ، حلو الى حد البذاءة . . . فيها تواطوء ، أو تذكير بشيء خاص جداً ، لايعرفه احد سواهما . تلك النظرة كانت اشبه بتلك النظرة الودودة التي تلقيها احدى المحارم عليك لتذكرك بلحظة غبتما فيها عن مواضعات هذا العالم واندمجتما في علاقة حميمة ، مضت الى نهايتها المعلومة .

قال :

ـ ليلى !

اعترتها حيوية جامحة ، وكأن هنالك من يزغزغها ، فبدت كمن ترقص ، وهي منحنية فوقه ، وكان الضحك اللعوب يشيع في وجهها كالضوء .

قالت :

ـ ساكت ليه ؟ ماتتكلم !

قال :

ـ انا موافق على رأيك ياليلى .

قالت وهي تكركر بالضحك :

ـ موافق على ايه ؟

التفت اليها احد الجالسين . كان قصيراً ، نحيلاً ، له انف كبير ، مقوس ، مدبب الطرف ، كالمنارة تتخلل وجهه غضون كثيرة وندوب . وعلى وجنته اليسرى كانت حبة بغداد ، مدوّرة ، بيضاء وسط وجهه الاسمر .

قال :

ـ تفضلي ، استريحي ، عيني سهام .

والقى الى غالب نظرة لم يستطع تفسير معناها ، وقال :

ـ تعرفوا بعضكو ؟

قال غالب :

ـ طبعاً .

ضحكت ليلى بتلقائية وصخب ، ضحكة كالانفجار . كأنها سمعت نكتة بذيئة . وحاولت ـ احتشاماً ـ الاتضحك ، غير ان الضحكة انطلقت منها ، رغم ارادتها .

لم تفت غالب السخرية التي تضمنتها عبارة الرجل ، ولكنه تجاهلها ، كما تجاهل الرجل تماماً . وقال للفتاة بلهجة ودودة :

ـ اقعدي ياليلى .

بحث بعينين عصبيتين ، وبقدر كبير من التهريج وخفة الدم ، عن مكان تجلس فيه . لم يكن هنالك ، رغم النية الطيبة ، الا حيز ضيق بجواره . فحاول ان ينهض ويجلسها . ولكنها ، بحركة سريعة وبارعة ، احتلت ذلك الحيز الضيق . كانت ملتصقة به تماماً ، الاانها لم تكن تضايقه . كان سعيداً بهذا الالتصاق . وودّ ان تسكن ، ليستمتع بحس جسدها . ولكن ليلى ، لم تكن من نوع الفتيات الذي يلتصق بك في السينما ، ولا يتحرك الابالقدر المرغوب فقالت بقدر كبير من المرح :

ـ ماجاوبتش على سؤالي ، عايزة افهم ايه السبب ؟

حاول ان يتذكر : « عن اي شيء تسأل ، قطعة المارون جلاسية هذه ؟ »
قال :

ـ لاموٓاخذة ، نسيت الموضوع اللي كنا بنتكلم فيه .

ـ نسيت ؟

يبدو ان ذلك ازعجها فقد كان وجهها حزينا . فكّر غالب : ان المسألة ليست مأساوية الى هذا الحد . سمع امرأة ، لم يستطع تحديد مكانها ، تقول بانفعال :

ـ لذيذ !

« من هو اللذيذ هذا ؟ » ثم قدّر انه هو المقصود بذلك . « ان الامور تسير نحو الاحسن . »

قالت ليلى :

ـ ليه لما يكبر الانسان ، لمايتقدم الكاتب في السن ، يفقد قدرته على الكتابة الجيدة ؟

قالت :

ـ مثلا .

بدت مختنقة بعذاب مجهول . كأنها تسترجع ذكرى رهيبة مرت بها ومازال تعكر صفو حياتها . وادرك غالب ، ساعتها ، ان المرح والطلاقة اللذين ابدتهما ، لم يكونا سوى المظهر الاجتماعي ، القشرة الخارجية ، الذي يحاول به الانسان القوي ، الكبير ان يخفي ألمه عن الآخرين . قرر ان يربطها اليه بخيط من الرعاية الابوية ، وبنفس القدر يشدها اليه ، بمعابثة عاشق ماكر . هذا لا يعني انه هو لم يكن يشاركها الالم . فلقد لمست الفتاة عصباً حساساً في داخله ـ التقدم في السن . قال بحزم :

ـ ليلى .

نظرت اليه بعينين بنفسجيتين ـ رماديتين مختنقتين ببكاء مكتوم قالت :

ـ ايوه .

قال :

ـ كفاية بقى .

قالت بعناد طفولي :

ـ انت دايما كده .

وفي صوتها رعشة البكاء .

وغالب يحاول ان يتذكر . يتذكر وجهاً باكياً ، ثم ، ان ماتقوله ليلى استمرار لحديث ، اوربما لاحاديث سابقة . ولكن اين ؟ ومن غيره وليلى شارك فيه ؟ كل مايستطيع ان يتذكره هو قبة الجامعة ، المفروض ان تكون خضراء ، وهي ليست كذلك .

كانت ليلى تتنهد ، تنهدات البكاء المحتجز . واما غالب ، فعندما عجز عن التذكر ، ابتكر ذكرى ، ووضع ليلى ضمنها . الجلوس في كافتيريا كلية الآداب ، والتمشية ، عصراً ، على كورنيش النيل . . . ثم تكلم . بصوت يتخلله يأس من خبر الحياة ، وعانى خياناتها ، فتعلم كيف يوازن الامور وكيف يتجاوز ردة الفعل العابرة قال شيئاً كهذا :

ـ ماذا تعرفين ، ايتها الطفلة العزيزة جداً ، عن ذلك ؟ هل تعرفين كيف يفقد ، الكاتب روحه ، وتوهجه ، وكيف تتمزق الخيوط التي تصله بالحياة الحقيقية ، الحياة الحارة ، البكر ، لأنه يخلق حياة اخرى بديلة على الورق ؟

ازداد التصاقها به ، فاخذ يهذي :

ـ سيصبح العالم شاحباً ، لأن الروائي قد اعتصر كل مافيه من حياة ، فلم يعد بامكانه ان يشعر بطزاجته . . . انه يعيش اللحظة ليكتب عنها ، فينتزع حدتها . . . هل تفهمين ماعني ؟

بدا له ذلك فاجعاً جداً . كالموت يأتي بعد حياة مليئة بالآلام والعذاب ، يأتي قبل ان يمتلىء الانسان بالحياة . وبصعوبة استطاع ان يمنع دموعه .

حاول غالب ان يتوقف عن الكلام ؛ ولكن الكلام كان يضغط عليه ، يكاد يخنقه . فمضى :

ـ عن اي شيء يكتب بروست ، بعد ان انتهى من روايته « البحث عن الزمن الضائع » ؟ اخبريني ! لقد امضى سبعة عشرة سنة ، مسجوناً في حجرة ، مبطنة بالفلين . وكتب خبرة حياته كلها . كلها ، لم يهمل شيئاً . ماذا كنت تريدين منه ان يكتب بعد ذلك ؟ ماذا ؟ تكلمي !

كان صوتها غريباً حين قالت :

ـ كمّل الاول .

واكمل :

ـ هل كنت تريدين منه ان يكتب رواية ، عنوانها « سبعة عشر عاماً من العزلة » ؟ وحتى لو كتبها ، فماذا يكتب بعد ذلك ؟

سمع صوت رجل يتساءل :

ـ سيعطاعش ، لو مائة عام من العزلة ؟

لم يلتفت اليه غالب ؛ فقد كان الكلام يلحّ عليه . قال :

ـ الآن تصمتين ، كعادتك . تثيرين المسائل المؤلمة ، ثم تمتنعين عن مواصلة الحديث .

صمت ، حين تخيل ان ليلى لم تكن مصغية . توقف تدفق الكلمات في داخله ، وهمس :

ـ مابتر ديش ليه ؟

كان ردها عملياً .

اعانها على ذلك ضيق المكان ، والتصاقها . كانت تمد ذراعها خلف ظهره ، وتعبث بخاصرته . ثم تزايد ضغط جسدها عليه ، بحنكة امرأة مدربة عندما نظر الى

وجهها ، رآها تنظر الى الطرف البعيد من الحجرة ، وتبتسم لنفسها . وعندما قرر ان يعيد سؤاله ، احس بثديها ناعماً ، صلباً ، مراوغاً يحتك باعلى ذراعه ، بايقاع خفيف ، ولكنه فعّال للغاية . ادرك انها ، بذلك ، تدعوه للصمت .

وصمت .

اخذت يدها تعبث في ظهره ـ « مامعنى هذا ؟ » قال لنفسه ـ ثم اذيها تجذب القميص والفانيله من تحت الحزام ، وتدخل يدها ، وتسير بها يبطء الى بطنه . ثم اخذت تهبط بها .

قال غالب :

ـ ساكته ليه ؟

اكتشف ان صوته قد اخشنه التوتر . ولدهشته ، اكتشف ان جسد ليلى يرتج ، وان تنفسها قد تسارع ، وازداد عمقاً . رغم ذلك ، مضت اصابعها في عبثها بجسده ، باستغراق ودون توقف . رفع غالب ذراعه ، واحاط به كتفي ليلى ، ليتيح لها وضعاً انسب في مداعباتها . واخذ يداعب خصرها ، ثم يصعد الى ابطها ، ويمسك بثديها ، ثم تهبط يده مرة اخرى الى خصرها .

ربما بهدف اخفاء مايحدث بينه وبين ليلى ، اخذ يطالع الجالسين حوله ، متخذاً وضع اصغاء .

كانت الحلقة المحيطة بغالب ، مستغرقة في الحديث عن الاسباب ، التي ادت الى ارتفاع درجة الحرارة في العالم كله . اخذوا يرددون مانشرته الصحف ، عن موجة حارة تجتاح العالم كله .

قال الرجل القصير ، النحيل ، ذو الانف المقوس كالسارة ، ان ذلك يعود الى الانفجارات الشمسية ، التي تطلق طاقة حرارية هائلة .

قال رجل صارم المظهر ، يبدو على وجهه آثار جدري قديم :

ـ ياه انفجارات شمسية ، ياه طاقة حرارية ، عيني . . . هاي كلها قشمريات ، اخويا !

كان انفه ، يرتعش وهو يتكلم ، وكأنه يستنكر رائحة المكان .

قال الرجل القصير :

ـ او عندك تفسير ثاني ؟

قال ذلك وهو يبتسم .

فقال الرجل الصارم المظهر :

ـ طبيعي اكو . الحرارة الزايدة لأن الارض تقترب من الشمس . الارض ماشيه عدل للشمس ، ورايحة تطب جواها . العلماء متفقين على هذا .

قالت سيدة نحيلة ، تلبس نظارة طبية ، وهي تهزّ ساقها الموضوعة فوق الساق الاخرى بعصبية :

ـ شلون خربطات هاي !

لاحظ غالب ان لها ساقين جميلتين .

قال الرجل القصير مستنكراً :

ـ خربطات ؟ هاي وينها الخربطات ؟

قالت السيدة بحدة :

ـ صدقه لله . السبب مفهوم ، مايتراد له (واخذت تقلد الرجلين) الانفجارات الشمسية ، التي تطلق طاقة حرارية هائلة ، ولا (وأخذت تحرك انفها مقلدة الرجل الصارم) الارض ماشيه للشمس ، ورايحة تطب جواها . .

ـ شنهو تفسيرك انتِ ؟

قال لها الرجل القصير . فقالت :

ـ التجارب الذرية الاميركية هيه السبب .

قال غالب :

ـ لكن التجارب الذرية الامريكية تقام تحت الارض ، اوهكذا كانت في السابق ، اما الأن . .

غير انه لم يستطيع الاستمرار . فبد عوى الانصات للحديث الدائر ، مالت ليلى بجسدها نحو المجموعة ، حتى اصبح رأسها مستقراً على صدره تقريباً ، واصبحت اصابعها اكثر حماقة في تنقلاتها داخل البنطلون . وعندما ابتدأ يتكلم عن التجارب الذرية الامريكية احس بكوعها ، وكتفها يداعبان ابطه وجانبه بالحاح ، فكاد ان ينفجر بالضحك ، لولا انه امسك نفسه بصعوبة .

حاول غالب ان يتجاهل امام الأخرين ملاعبة ليلى ، فمال بجسده قليلاً نحوالجماعة ، واخذ يصغي باهتمام . ولكنهم تجاهلوه . بل بدا واضحاً ان احداً لم يسمع ماقاله ـ ام هم قد سمعوه ، ولم يعتنوا بالرد عليه ؟ـ . وادرك غالب فجأة انهم

متنبهون لوجوده ، ولكنهم يتجاهلونه عن عمد . ان عصبية السيدة النحيلة ، وهزات قدمها العصبية ، السريعة التي لاتتوقف ، وصرختها « شلون خربطات » كانت استنكاراً لسلوكه - او حتى لمجرد وجوده - وقدّر غالب انها ، هي نفسها ، لم تكن تؤمن ، بالفعل ، ان التجارب الذرية الامريكية هي سبب موجة الحر التي تجتاح العالم ، وانها اوردتها لتعبر عن اشمئزازها لما يدور بينه وبين ليلى .

لم تكن تلك المرأة ، وحدها ، التي جعلته يشعر بذلك التجاهل المتعمد ؛ بل احسه ، ايضاً ، بابتعاد كتف من يجاوره عنه ، وميله الى الطرف الآخر من الكنبة ، متظاهراً بالاستغراق في الاصغاء للحديث عن الجو . احسه ، ايضاً ، بالمناظر الجانبية للوجوه ، وقد انطبعت عليها بسمة لاتكاد تلحظ ، استقر مافيها من الاستهانة به ، والاستنكار لمايفعله مع ليلى ، في اعماقه .

« كان عليهم أن يتمهلوا قليلاً ، أن يسألوا ، حتى يعرفون ماحدث بالفعل ، وماهي نيته في المستقبل . . . اي مستقبل ؟ الآن . . . » كذا قال غالب لنفسه ، وقد عزم ان ينفذ قراره فوراً . قرر أن يقول لليلى انه يحبها ، وان عليهما ان يتزوجا ، الآن ، في هذه اللحظة . وان يقفا امام الجميع ، ويعلنا قرارهما . هنالك حجرات للنوم ، وفي داخلها نفعل مانريد . . . كان ذلك رداً على الاستنكار الذي يحيط بهما ، ودعماً لشجاعة ليلى التي عرضتها للمخاطر .

وحين التفت الى ليلى ليقول لها ذلك ، رأى رأساً صلعاء تتكيء على صدره . رعب اصم استولى عليه ، للحظة ، ثم ادرك ان الرأس للرجل الذي يجلس بجواره ، وانه مال على هذا النحو ليصغي الى الحديث الدائر عن الحر . وتصور للحظة ، ان ليلى مختبئة بينهما . ثم تبين الحقيقة كاملة . ليلى لم تعد بجواره .

اين ذهبت ؟ هل غادرت المكان بسبب خطأ ارتكبه ؟ عليه ان يجدها في الحال ، قبل ان تنصرف ، ويعلن لها حبه ، ورغبته في الزواج منها . اخذ ، ملهوفاً ، يفتش عنها بعينيه . تصورها تلك التي تقف امام البوفيه . ولكن تلك الفتاة التفتت اليه بسرعة ، وثبتت بوجهها الذي يواجهه . « كأنها صورة فوتوغرافية » قال غالب لنفسه . تصور غالب انها تقف هكذا التؤكد انها ليست ليلى . وتتحداه ان يثبت عكس ذلك . ثم استدارت فجأة مواصلة تحديها الى المائدة . تناولت طبقاً وشوكة واخذت تضع الطعام في طبقها ، وراحت تأكل ، لكن غالب لم يتوقف عندها طويلاً . فلم يعد يبالي بها ، او بأي شيء آخر . كان همه ليلى وحدها ، العثور عليها

في التو واللحظة .

ثم بدا الرجل ، الذي يتكىء برأسه على صدر غالب ، معابثته . اعتقد غالب في البداية ، ان ذلك لم يكن متعمداً . ثم كلّمه الرجل القصير ، النحيل ، ذي الانف المقوس .

قال غالب وقد فوجىء :

ـ افندم ؟

وكرر الرجل :

ـ متونس ؟

ـ نعم ؟

قال بصوت اعلى :

ـ اقول ، متونس ؟

استفهم منه غالب :

ـ من تونس ؟

ابتسم له الرجل وضيّق عينيه . كانت ابتسامته جميلة ، قال وقد امتلأ وجهه مرحاً وخبثاً :

ـ اقول . . .

ـ نعم ؟

ـ سهام وينها ؟

تعمد غالب ان يتحدث بلهجة عراقية غير متقنة :

ـ سهام منهو ؟

ـ سهام يابه ، اللي كانت قاعدة يمك .

ـ ماكو واحدة اسمها سهام كانت قاعدة يمي .

قال الرجل باستنكار :

ـ صدقه لله . البيه اللي . . .

رد غالب بعنف لايتناسب مع سياق الحديث :

ـ اسمها ليلى .

ان معابثات الرجل الذي يجاوره تجاوزت الحدود المعقولة . كان يزغزغه في خاصرته ، وكأنه يود ان يدفعه الى الضحك ، ثم اذ به يمسك بخاصرة غالب

بعنف ، جعلته يرد على الرجل القصير بتلك اللهجة الحادة .

شعر غالب انه قد اخذ يفقد ليلى . هنالك خطة محكمة لابعادها عنه . وعليه ان يفعل شيئاً ما ، حاسماً وسريعاً ، حتى يحتفظ بها . وضع يده على صلعة الرجل ، المستقرة على صدره وقال :

ـ اعتقد انا لم نتعرف على بعض .

اصبحت صلعته حمراء . كانت صلعة انيقة ، نظيفة ، رفع الرجل وجهه نحو غالب . كان غاضباً جداً ، وقال بعصبية وحدة :

ـ بلى ؟

وضع الرجل القصير يده على يد غالب ـ وقال :

ـ ليلى ؟ تقول ليلى ؟

وضحك ضحكة خشنة ، اشبه بالسعال وردد :

ـ يقول ليلى !

قال غالب :

ـ ليكون معلومك ان اسمها ليلى .

توقف الرجل عن الضحك . سقط جانبا انفه ، وضاقت عيناه ، واخذ ينظر الى غالب بحدة :

ـ اقول لك اخويا ، ليلى زوجتي .

نهض غالب ، وهو يدفع الرجل الذي بجواره بقوة ويقول للآخر :

ـ كل شيء ممكن !

اخذ يتمشى دون هدف . عيناه تبحثان عن ليلى ، دون جدوى خلال تجواله التقى باناس ، اعتقد انه يعرفهم . يبتسم لهم ، فينظرون اليه بدهشة : يدقق النظر في وجوههم فتصدمه غربتها . فيقول لنفسه ألن يتوقف هذا السيل من الوجوه المألوفة ، والغريبة عنه في الوقت ذاته ؟

احس بخاصرته تؤلمه . فاخذ يمسدها . وارتفع غضبه : « ذلك الوغد . كان عليّ ان اصفعه ! » . ثم انبثق ذلك الوجه ، مبتسماً ، من زحمة قرب المائدة . « هل يبتسم لي ؟ » ثم تذكر . انه صاحب السيارة التي جاءت به الى هذه الحفلة . اقترب من غالب ، وقال بحماس :

ـ هاي انت وين ؟ د دوّر عليك !

ـ وانا برضه بدوّر عليك . فيه بينا حساب .

ـ حساب ؟

عبس الوجه الضاحك ، وغشاه الذهول ، وهو يقول « حساب ؟ » واخذ يحدّق في وجه غالب ، كأنما ليتأكد ان هذا الوجه ، هو الذي صدرت عنه تلك الكلمة . بدا انه لن ينتهي ابداً من التحديق والذهول . ثم تمتم ، دون ان يتغير تعبير وجهه ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ حساب ؟ حساب شنهو ؟

قال غالب :

ـ سيب الموضوع دلوقتي . فين ليلى ؟

ـ ليلى ؟ من هي ليلى ؟

قال غالب بضيق :

ـ كفاية ، الله يخليك « واخذ يقلده » ليلى ؟ من هي ليلى ؟ حساب ؟ حساب شنهو ؟ وبعدين . . . ! ليلى اللي كانت قاعدة جنبي هناك . . .

واشار غالب الى الكنبة التي كان يجلس عليها . اعاد الرجل رأسه الى الخلف ، وقال :

ـ ايه ، ايه ، ايه !

ثم ابتسم ، واخذ يهز رأسه ، وكأنه يلوم نفسه على غفلته . ان مابدا له ، في اول الامر ، لغزاً محيراً ، قد اتضح الآن ، انه مجرد سوء تفاهم بسيط . وقال :

ـ ايـ . . . ـه . . . سهـ . . . ام . . . سهام . . .

ثم ضحك واضاف :

ـ اريد اقول : من هي ليلى هذي !

قال له غالب برجاء :

ـ ارجوك تقول لي الحقيقة : اسمها ليلى فعلاً ؟

كان انفعال الرجل يفوق كل توقع ، واخذ يزعق ، حتى ان غالب تصور ان الجميع صمتوا ، واخذوا يصغون اليه :

ـ عمري كذبت عليك ياعباس ؟ انا اعتبرتك دايماً اخ ، وحتى اكثر . .

ابتعد غالب عنه متعجلاً ، وهو يقول لنفسه : « يحمل لي كل هذه العواطف ، ولايعرف حتى اسمي ! »

ثم فجأة ، اكتشف حل اللغز الغامض :

انها ليلى في البيت . وعندما كانت تجلس على مكتبها ، عابسة ، صغيرة ، جادة ، تذاكر دروسها ، وينادونها فترفض بعناد طفولي ، فيشدونها من شعرها ، ويطلبون ويرجون ويلحون ان تعد لهم الشاي ، فتضحك تلك الضحكة الطفولية ، العابثة ، الصادقة ، الصادرة من القلب ، وترفض :

ـ عيني ، دا اقرأ . . . مادا تشوفوا !

فيقبلونها على جبهتها ، ويداعبون كتفيها وظهرها بايديهم الكبيرة القوية :

ـ ايه عفيه ليوله ، دي قومي وداعه ابوكي . . .

وتكركر بالضحك ، وقد اعجبتها اللعبة ، وتنهض ببطء ، وتتنهد ، شأن الكبار ، تنهيدة شكوى واستسلام وتتجه الى المطبخ . . . ويسمونها ليلى حين تطالعها الضيفات مبتسمات ، ويقلن لامها ان ليولة كبرت ولابد من البحث لها عن عريس ، فيتضرج وجهها حتى جذور شعرها ، وتحاول الهرب منهن ، ولكنهن يحتوينها بقوة ، ويتأملن وجهها « شلون كيكه ! » يصرخن ، ثم ينهضنها ، ويجلسنها بجوارهن ، وهي تصارعهن ضاحكة بعصبية ، متضرجة الوجه ، لاهثة من الانفعال ومقاومة النساء ، والعريس يتراءى ويتجسد خلال ذلك ، فيخفق قلبها ، وتحس بالشوق غامضاً ، تحسه كلسعة النار في احشائها ثم

ـ ليوله ، عيني ، سوي لنا قهوة . .

ـ ليوله ، بعد كبدي ، فرد شاي . .

ـ ليوله ، ياوردة ، اعصري لنا نومي

وهي :

ـ آني ممنونة ، آني ممنونة ، آني ممنونة . . .

وتعدو ضاحكة ، ترتفع تنورتها عن فخذيها . . . اما سهام ، فهو ذلك الاسم ، الذي لاطعم ولارائحة ولالون ولاتاريخ له . . . نبض ثديها في كتفه ليلى ، وكذلك يدها العابثة ، والتعبير الحزين المطبوع على وجهها . . . اما سهام فهو ذلك الاسم الذي يكتب في الاوراق الرسمية ، والذي تقدم به نفسها في الحفلات المقيتة ، والمناسبات المملة ، وتسجله في السجلات الرسمية ـ نماذج الالتحاق بالجامعة ، او الحصول على وظيفة ، او طلب سلفة ، وكل هذا ليس له ، لايعنيه في شيء .

- ٤ -

العثور على ليلى لم يكن ، فقط ، بحث عاشق دفعه العشق الى حافة الجنون بل استعادة لكرامة اذهـا الرجل القصير ، والاصلع - يكاد يقول « وكل من الحفلة » - . وخاصة الرجل القصير . لم يعد غالب يراه ، ولكنه يشعر بأنه يراقبه ، من مكان ما ، بنظرة ثاقبة ، شريرة ، يحس بها غالب تتخلله حتى العمق .

واصل التجوال . قالت لنفسه : « كيف انخدعت ليلى واستكانت لهم ؟ هل يضعونها الآن في احدى تلك الحجرات ، ويضعون عصابة على عينيها ، وكمامة على فمها ؟ » لم يخطر بباله ، للحظة واحدة ، ان تكون ليلى شريكة ، فيما حدث له .

« أهي ملقاة عارية ، على السرير ، مفروجة الساقين بالقوة ، والمحتفلون من الرجال ، واحداً إثر الآخر ؟ . . . » ثم سيفكون العصابة من على عينيها ، والكمامة ، ويضعونها بين يديه :

- تفضل استاذ ، حبيبتك ، زوجتك . . .

ولكنه شعر انه يبالغ كثيراً . فالوجوه جادة ، مشغولة بذاتها ، إن كلمتها فوجئت . . . وهذا يعني ان لاشيء يحدث ، وان الامور تسير في مجراها الطبيعي .

وواصل التجوال ، يبحث . الفتيات ، كل واحدة على انفراد ، يكنّ ليلى في البداية . فيخفق قلبه . يكنّ ليلى وهن يرقصن ، اويأكلن ، وهن يصغين بادب ، او وهن يحاورن الاصدقاء والصديقات ، او يتأملن لوحة على الجدار ، اويطالعن وجوههن في المرآة . . . ثم تراهن ينسلخن عن ليلى ببطء ، واصرار ، يضعن انوفاً واعينا أخرى ، وشعرا له تسريحة ولون ولمعة مختلفة ، واثداء وثياباً واحذية وايد وافواه خاصة بهن ، الى ان يتكاملن ويصبحن اخريات ، غريبات غير ليلى او سهام او نيولة ، ويتحولن الى عضوات في جنس ، لايتمايز . تكون الواحدة ليلى وهي تضحك ، ثم يتماسك الانف الذي تسطح ، والفم الذي انفتح على سعته ، والخدان اللذان انبطا ؛ ويحدث صراع بينهن وبين غالب . . . غالب يصبغ لهم ملامح ليلى ، وهن يتمردن ، ينجحن بعض النجاح ، ثم يفشلن ويعاودون ، مرة أخرى المحاولة . وفي لحظة ينهزم غالب ، ويتمكن ، هن .

ربما نسي نفسه ، واخذ يصغي للاحاديث الدائرة . فتاتان تتقابلان . تتعانقان وتتحدثان معاً :

ـ هاي أنت وين ؟

ـ اشو أنت ماكو !

لم ينـدغم الحـديث ، ليصـبح صوتـا خالصـا ، ماعدا بضـعة كلمات تنقلت : حرامات ! جديات ؟ دانقشـمربني ؟

ثم تنأى عن الاحـاديث الخـاصـة ، ويظـل الصـوت . ومـرة أخرى يكتشـف الايقاع ، المتصاعد المتسارع ، الذي ينتهي باسـم « عباس هذا »

نظـل ليلى مطلبـه . وفي داخله ثقـل ، يجثم على صـدره ، كالبكـاء : ثقـل يبهظه ، ويكـاد يخنقـه . وفي داخله التسـاؤ ل كالحمى : تسـاؤ ل لاجواب عليه الا بالعثـرر على ليلى : « اين اخفـوهـا ؟ وكيف استطـاعـوا ان يفعلوا ذلـك ، دون ان يرتـاب فيهم احـد ؟ ولكن من هم ؟ من هم الـذين فعلوا ذلـك ؟ » واعـترته خفة ، وسعار . يجب ان اجدها ، قال لنفسـه .

وبـدا كمن يرقص على انغـام موسيقى اسبانية ، سريعة الايقاع ، وهو يتنقل بين المحتفلين باحثا عن ليلى . عدد من الفتيات يدرن ظهورهن له . كـن يقفن امام المائدة يخترن كميات صغيرة من مختلف انواع الطعام ويضعنها في اطباقهن . خطوط الظهـر ، تحمـل تشـابهـا بليلى ـ متى رأى ظهـرها على اية حال ؟ ـ . وقف بينهن ، وبحجـة التعـرف على اصنـاف الطعام ، تفحصهن واحدة ، واحدة . لم تكن ليلى بينهن . قبـل ان يدير ظهـره تذكـر ان عليه ان يتناول طبقاً ، ويضـع فيه طعاماً . والا اعتقـد الجميـع ـ خاصة ذلك القصير النحيل ، (الاصـلع استبعده من ذاكرته) الذي اصبح رقيبا يجلس في داخله ـ انه انما وقف في هذا المكان ليزعج الفتيات ، او يجتذب انظارهن .

اصبح اختيـار الطعام معضلة حقيقية . فقد اعتقد انهم لن يراقبونه ، فقط ، وهو يضـع الطعام في طبقه ، بل سوف يعملون على التأكد انه اكله كله . وضـع قليلاً من السـلطة في طبقه . اكثـر من الخس للتعمية . وقبل ان يمد يده ، ويختار الصنف التالي سـمع الصـوت بجواره :

ـ جرب هذا .

المتحـدثـة هي المـرأة النحيلة ، التي عزت موجـة الحـر الى التجـارب الـذرية الامـريكيـة لم تكن تلبس نظـارة طبيـة ، ولم تكن نحيلة . كانت تشـير الى دجـاج مطبوخ بصـلصـة بنيـة قال :

ـ شكرا . رايح اجربه .

مد شوكته ، وغرزها في ورك دجاجة ووضعها في طبقه . ثم التفت الى المرأة ، وكأنه ينتظر ان تدله على صنف آخر . كانت تبتسم تلك الابتسامة الساحرة ، المتواطئة ، وقد نظرت في عينيه مباشرة . شعر بالدم يندفع الى رأسه . « اية امرأة » قال لنفسه . ذلك الجسد الرياضي ، المتماسك ، والذي ينبض بايقاع غير ملحوظ ، بكهربية احس بها تلسعه . النهدان البارزان المرتفعان ، والخصر الدقيق ، والارداف القوية . وهي في حركتها وسكونها تجسّد قوة ارادة ، وسيطرة . جعلت مفاتنها وكأنها اسلحة . تنازل بها متى شاءت . قالت ، وعيناها مسلطتان على عينيه :

ـ تحب الافخاذ ؟

كان فمه جافاً . قال :

ـ بلى .

قالت :

ـ فخاذ الدجاج ؟

قال :

ـ الافخاذ عموماً .

قالها ، ولم يدرك التلميح البذيء الذي تحمله ، الاعندما رأى عينيها ترقصان .

قال ، دون محاولة ، ان يستمر في الموضوع ذاته :

ـ اسمي . . .

همست بذلك الفحيح المتواطيء ، المفعم رغبة :

ـ اعرف .

ثم التفتت الى المائدة واخذت تملأ طبقها ، وهي ، خلال ذلك ، تنظر اليه نظرة جانبية ، وعلى شفتيها بسمة خفيفة . قال :

ـ مش عامله رجيم ؟

كان يريدها ان تواصل تلك التلميحات الجنسية . مالت اليه برأسها وهمست :

ـ قميصك وفانيلتك عيوني !

احس بسخرية باردة في صوتها

- اشبيها ؟
نظرت اليه :
- خليها جوا البنطلون .
قال لها :
- طبعاً ، طبعاً .
واخذ يدفع القميص والفانيلا في فتحة البنطلون، بيد واحدة .
تناولت الطبق من يده ، وقالت :
- بايديك الثنتين .
قال بارتباك :
- زين ، زين . . . !
ثم همس لها ، وهو مايزال يحشر قميصه تحت البنطلون ،ويضغط بطنه الى الداخل ، حتى ينتهي من القميص بسرعة :
- عنى فكره . .
- بلي ؟
قالت
قال :
- احب نكمل حديثنا عن الجو والتجارب الذرية الامريكية .
انفلتت منها ضحكة ، كان واضحا انها صدرت رغما عنها ثم قالت ، وهي تحاول ان تكتم ضحكها :
- بعدين .
- متى ؟
- بعدين .
- ماقلت لي اسمك ؟
قالت وجسدها ينتفض معابثة وخفة دم :
- سهومه .
- إمتى اشوفك سهومه ؟
ولكنها استدارت ومضت دون ان ترد . لحق بها وأمسك بكوعها وقال :
- ماقلت امتى ؟

نزعت ذراعها بقوة ، وسارت بتصميم ، دون ان تلتفت اليه .
وقف متردداً ، ثم عاد وتناول طبقه . وفجأة تذكر : « لماذا لم اسألها عن ليلى ؟ »

- ٥ -

كان مرهقا ، ماذا بعد البحث الذي لاجدوى منه ؟
وكما تكون واقفا على رصيف الشارع ، وترى وجهاً في سيارة مسرعة ، هكذا ظهر وجه ليلى ، تعبر الطرف البعيد من الحجرة ، ثم اختفت .
عاد اليه حماسه للبحث عنها . اسرع يصطدم بكل من يقف في طريقه وصاح :
- ليلى !
بصوت سمعه الجميع ! وهكذا اعتقد . ولكن الزحام حول الطعام ، الذاهبون بايد فارغة ، والعائدون باطباق مليئة ، وتوقف البعض امامه وقد تذكروه فجأة - ومصافحته بقبضات قوية ، تكبله وتمنعه من الحركة لبعض الوقت ، ثم السؤال عن الصحة ، وآخر كتاباته ، والالحاح على تحديد موعد للزيارة . . . وخلال ذلك كله يفقد كل أثر لليلى .
اصبح في حالة يائسة ، وهو يتحرك هنا وهناك دون فائدة . جلس في اول مقعد وجده (قال لنفسه : ماجدوى البحث ؟) واخذ يأكل . لقد سار فترة طويلة ، حاملاً طبقه ، وعليه ان ينتهي منه . كان الغضب قد اخذ يتسرب اليه . واتجه نحو ليلى هذه المرة : « من حقي عليها ان تبذل ، ولو مجهوداً صغيراً ، للبحث عني ، لماذا اقوم انا وحدي بالبحث » ثم تراءى له وجهها حزيناً ، وصوتها الذي يحمل رنة البكاء .
اكتشف انه جائع ، فالتهم طعامه ، وهو يشعر بالتوتر ينساب منه . نهض ، ووضع الطبق الفارغ على المائدة ، ثم اخذ يسير دون هدف ؟ او هكذا حاول اقناع نفسه . ولكن قلبه كان يرتعش كلما توهم ان الفتاة التي راها هي ليلى . كان يتجه نحوها ، ويناورها ، حتى يقف في مواجهتها . لم تكن ليلى . بدأ الشك يراوده أن ليلى هي التي تتجنبه ثم استوقفه ذلك الرجل .
وهو مازال بعيداً عرف ان الرجل يقصده . حاول ان يتذكر اسمه عمله ،

مناسبة تعرفه به ـ لكنه فشل . بدا الرجل ، وهو يتجه نحوه ، كأنه يسير ببطء على حذاء للانزلاق . . اذ كان يتقدم وجسده متصلب ، وكأنه في حالة انتباه . كان قصيراً جداً ، عريض الكتفين بشكل ملفت له وجه متجهم ، منتحب ، وجه كبير ، كقناع ملصق على رأس ضخم والرأس قد وضع دون واسطة ـ اعني رقبة ـ بين كتفين العريضين . كان يخفي عينيه بنظارة سوداء ، ذات زجاج لامع ، لاترى فيه الا انعكاس وجهك المزدوج . جعلت النظارة انفه الكبير ، الواسع الفتحتين اضخم من حقيقته . وجنتاه البارزتان جعلتا وجهه الكبير يبدو ضامر الخدين ، كأنه وجه لرجل مريض ، أو يعاني مجاعة

اقترب من غالب كرجل آلي . ملامحه لاتحمل اي تعبير . وقف امامه تماماً ، وهتف :

ـ غ . . . ا . . ل . . ي . . . ب . . !

كانت رائحة البيرة تفوح من فمه قوية ، نفّاذة . ولكن العجيب في الامر ان صوته كان صادحاً ، جميلاً . ولم يستطع غالب ان يتأكد إن كان ذلك يحمل استنكاراً ، ام ترحيباً ، وكأنه عثر عليه بعد جهد ، وفي آخر لحظة قبل ان يفلت منه .

قال غالب :

ـ هذا انت ؟

وكأنه لايتوقع وجوده في بغداد كلها .

كشف الآخر عن اسنان كبيرة بيضاء ـ بيضاء من ذلك النوع الذي يجعلك تتساءل : هل هي اسنان اصطناعية ؟ـ واخذ يكرر وهو يلهث :

ـ غاليب ، غاليب ، غاليب . . !

قدّر غالب ان الرجل لابد ان يكون سكراناً. تشنج الوجه ، وانتفخ الانف

كان يبدو وكأنه يعاني مغصاً لايطاق . ثم ارتفعت ذراعاه القصيرتان جداً ، وانفتحت كفان كبيرتان ، مكسو ظاهرهما بشعر اسود كثيف ، وامسك بكوعي غالب ـ بقبضتين قويتين ، واخذ يردد بصوته الصادح العميق :

ـ غاليب ! غاليب !

قال له غالب :

ـ اسمعك !

وهو يجاهد للتخلص من امساكه . ولكن الرجل شدد من قبضته على كوعي

غالب ، وألقى رأسه الى الوراء ، شاخصاً الى السقف . وكأنه بفعل ذلك ترى غالب الشعر الذي في داخل انفه ثبت الوضع خطات . ثم همس بصوت مشحون . مخنوق .

ـ شف . عيني . شفت ؟

خطر لغالب انه رسول ليلى ، فقال

ـ ليلى ؟

قال الرجل بصوت عميق ، مستنكر مشحون بالموسيقى :

ـ ياه ليلى ، ياه زفت !

واخذ يلهث ، ويهز كوعي غالب بانتظام ، وكأنه يحرك مقبضي آلة ، تعطلت ، وقد ازداد ميلا الى الخلف .

قال غالب :

ـ ايه الموضوع ؟

ـ القصيده اخويا ، القصيده عيني !

حاول غالب ان يكون مرحاً . قال :

ـ قصيده جديدة ؟ رائع ، رائع جداً ! احب اسمعها في اقرب فرصة ؛ لكن مش دلوقتي . زي ماانت شايف . .

مشيراً برأسه ، في حركة دائرية ، احتوت الحجرة الواسعة ، والمحتفلين ، الجالسين منهم والراقصين ، والواقفين امام المائدة ، كما شملت النوافذ والحديقة ، والسلم الداخلي الذي يؤدي الى الطابق الاعلى ، والشاعر وليلى . . . وباختصار بغداد كلها بكل ماتحتويه ، وتخبئه . اضاف غالب :

ـ بس شيء رائع ، حقيقة .

ضيّق الشاعر منخرية ، فبدا انفه طويلاً جداً ، وحاداً ، وفمه الذي يكشف

عن اسنانه البيضاء الكابية ، كان شكل مثلث ، قاعدته ، شفته السفلى . واخذ يتنفس بعمق .

«الى متى يستمر ذلك ؟» . سأل غالب نفسه . ثم قال لمجرد ان يقول شيئاً :

ـ رائع ، حقيقة .

قال الشاعر وكأنه يستغيث :

ـ القصيدة ، اقول القصيده .

شعر غالب انه لن يستطيع التخلص منه بسهولة . حتى جسدياً اصبح ذلك يزداد صعوبة ، والآخر يمسك به بهاتين القبضتين الفولاذتين . بل ان غالب ، في واقع الامر ، كان يحاول طيلة الوقت ان يخلص كوعيه ولكن امساكة الشاعر ، كانت تزداد احكاماً ، في كل لحظة ، قال :

ـ انت تؤلمني .

ولكن الشاعر مضي يردد :

ـ القصيده ، القصيده . . !

قال غالب :

ـ اي قصيدة ؟ انت تعرف ان ذاكرتي . . .

كان الشاعر مغمض العينين ، وازداد ميلاً الى الخلف حتى اصبح رأسه مدلى في الفراغ ، مما اضطر غالب ان ينحني قليلاً الى الامام . وقد اخذ يكز على اسنانه حتى اصبح صريرها مسموعاً ، يبعث القشعريرة في جسد غالب .

ثم قال الشاعر ، ووجهه يتقلص ويتشنج ، كأنه يبكي دون صوت :

ـ القصيده ، لخاطر الله ، القصيده !

« مامعنى هذه الاستغاثة ؟ » تساءل غالب ، وقال :

ـ مالها ؟

تكلم كثيراً ، ودون وضوح كاف : القصيدة ، الا تذكر ؟ قرأتها لك في مقهى البرلمان . ـ . واعجبت انت بها . . نسيت ؟ . . او شيء كهذا .

حاول غالب ان يتذكر . مقهى البرلمان ؟ تراءت له الدكك ، والزبائن ، وجه صاحب المقهى العجوز ، المحفور باخاديد سمراء صلبة ، ويظهر من مكتب يقع على يمين الداخل ، وقد اعتمر الرأس كوفية وعقالاً ، صواني الشاي ، يدور بها رجل عابس ، فوقها العديد من الاستكانات المليئة بالشاي ، عربدة المثقفين صباح يوم الجمعة ، واجهة المقهى الزجاجية ، المارة في الشارع ، نساء بعباءات . . . ولكن

القصيدة ؟ قصيدة هذا الشاعر ؟ قال غالب :
ـ القصيدة . . اه هه ، آه هه . . ممتازة !
قال الشاعر وهو يلهث :
ـ لقد نشروها .
وتساءل غالب : « اذن ، ماسبب هذا التجهم المأساوي ، والبكاء الصامت والنهات !! »
قال :
ـ نشروها ؟ مبروك ، مبروك !
زعق الشاعر :
ـ ياه مبروك ! ياه زفت !
ـ ماذا حدث ؟
قال الشاعر ، وهو يؤرجح غالب :
ـ نشروها ، عيني ، نشروها ، وماحطوا اسمي عليها . قالوا لي . . .
وضحك بمرارة (فكر غالب : الشاب فكه دون ريب . .) واضاف الشاعر :
ـ ماحطوا اسمي عليها . قالوا سقط اسمك سهواً في المطبعة . القواويد ! سقط سهواً في المطبعة .

ـ ٦ـ

هل جاء دور الغناء ؟
لقد اخذ الشاعر يرتل بصوت حزين ، عميق ، صادح ، وكأنه يندب :
ـ سقط سهواً في المطبعة ، سقط سهواً في المطبعة . . .
اخذ غالب يحس بالدم محتبساً في كفيه . اية محاولة للافلات من هاتين القبضتين الفولاذتين اصبح لاجدوى منها .
ثم جاءت الكلمات ، وكأنها معدة ، كلمات تكشف حقيقة عايش وعانى الامها منذ قليل . وهكذا القى غالب خطبة قصيرة ، موجهه الى المحتفلين ، بقدر ماهي موجهه للشاعر ، الذي كان يصغي ، وقد ارتفع حاجباه ، وتجعد جبينه .
في البداية همس للشاعر :

ـ خف شويه ، خفف قبضتك .

لم يستجب الشاعر . فقال له :

ـ انك تؤلمني !

كان الشاعر يرفع حاجبيه ، ويقلّص جبينه فقط ؛ وقدر غالب ان عينيه مملؤتان بالدهشة تحت نظارته السوداء . ثم ضغط الكلام على غالب ، فقال بصوت مرتفع :

ـ هذا مايسمونه اختلاط القيم !

احس غالب بالصمت الذي ساد ـ ام ان ذلك مجرد خيال ؟ ـ ولكن صوته مضى قوياً ، واثقاً :

ـ نسمّي هذا اختلاط القيم ، حيث تفقد الكلمات رنينها وروائحها ، حيث يتم تشذيبها وتعهيرها ، وتنعيمها ، وتأنيقها ، حتى تصبح كالصابون ، كالسمك في الماء ، تنزلق من يديك كلما حاولت احتواءها ، والامساك بها .

لم يكن ماسمعه تصفيق بالضبط ، ولكنه نوع من ضجة الاستحسان .

فمضى غالب :

ـ كلمات لذاتها !

وصمت . كأنه يود للمستمعين ان يستوعبوا ، على مهل ، معنى هذه العبارة الموجزة ، العميقة .

رغم الصمت ، لاحظ ان الجميع لاينظرون اليه ، بل بدوا منشغلين بالطعام ، او الرقص ، اومراقبة الصور على الجدران . كان ذلك اشبه بحفلة صاخبة في فلم سينمائي ، دون صوت . وكأنه يرد على هذا التجاهل ، قال بصوت رنان :

ـ اسمع ياأخي الشاعر ! اكتب مقالاً طويلاً ، عريضاً ، دافع به عن اسمك ، عن حقك ان يكون لك اسم . ضع اسمك في صلب المقال (بلهجة ساخرة) حتى لايسقط سهواً في المطبعة .

دوت ضحكة الشاعر .

وواصل غالب :

ـ قل : من حقي ان يكون لي اسم اعرف به . قل بقوة : يولد جميع الناس ، فيكون لهم اسماء ، ويصبح هذا الاسم جزءاً من الهوية ، كالوجه ، والجلد ،

كالافكار الخاصة بنا ، والانوف والعيون والشعر والصوت . قل هذا باعلى صوت ، واوضحه . . .

سمع عبارة : « منهو هذا القندره ؟ »

علا صوت غالب ، ليسكت المتكلم ، او ربما ليعلن تحديه له ، وقال :

ـ باعلى صوت ، واوضحه . . . !

وانهى خطبته فجأة . انفلت من قبضتي الشاعر واندفع بهوج نحو الباب . فقد رأى ليلى جالسة في الحديقة ، على مرجيحة تهتز ببطء . والضوء يسقط عليها ، من فوقها ، ومن خلفها ، راسماً حولها اطاراً مشعاً . اومأت اليه . كانت طيلة الوقت تومىء اليه . ولكنه اعتقد انها فتاة اخرى ، تومىء الى آخر او آخرين . وعندما ادارت وجهها الى اليسار ، فاضاء النور القادم من الخلف وجهها ، تعرف عليها . وصل الباب المؤدي الى الحديقة . كان الزحام امامه كثيفاً . وارتفعت الاصوات :

ـ وين رايح ؟ من وقت . نوصلك بالسيارة .

ـ القيت خوش خطبة .

ـ خطبة رائعة ، وداعتك .

خاطبه رجل كبير الوجه ، هائج الشعر ، بصوت مبحوح :

ـ رائعة الخطبة ، بس خطية . الشاعر الفقير وقع على الأرض وقال :

ـ حرامات .

نظر غالب خلفه . كان الشاعر فعلاً ملقى على الارض . قال :

ـ حرامات !

قال الرجل النحيل ، القصير ، ذو الانف المقوس ، ان هنالك امراً مهماً يريد ان يكلمه فيه .

قال غالب :

ـ ياجماعة ، انا مش عايز اروح ، عايز اشم هوا في الحديقة .

تعالت الاصوات :

ـ ياه هوا ! حر بره ! هنا تبريد عيني .

وقال القصير انك هنا تجد من يحدثونك وتحدثهم . تعالى الآن ، حالاً لنناقش خطبتك . . .

قال غالب بعصبية . محاولاً ان يقلد اللهجة العراقية :

ـ هنـا تبريـد ، هنـا تبريد ! اريد هواء نقي ، هواء خال من دخان الــجاير . ورائحة ـالاجـــاد . ماقلت اني اريد هواء مبرد . مفهوم ؟

فهقه الرجل ذو الانف المقوس وقال :

ـ رائحة الاجـــاد ! الحق واياك .

ومضى يقهقه . وغالب يشق طريقه ببطء . أخذ الناس يبتعدون عنه ، وفجأة رأى تلك المـرأة التي تلبـس نظـارة طبيـة تقف امـامـه ، وكلهـا ابتــسامات ورقة ، وقد تحولت الى قطعـة من الاغـواء . همــت بصوت مبحوح ، ملي، بالاثارة ، وهي تغمز بعينها وتبتــسم :

ـ زررت بنطلونك ؟

وضـع غالب يده على كتفها ، فاحس به ناعماً ، صلبا ، نابضـاً . اصـبح طلق اللـــان بشـكل مذهل :

ـ بامكانك ان تتأكدي من ذلك بنفسـك .

واخذ يداعب كتفها .

همـــت :

ـ مو هنا !

همـس غالـب ، وهـو يقـترب بوجهـه منهـا ، وهو يقاوم وضـع شفتها الـسفلى ، الدسمة بين شـفتيه :

ـ فين ، اذن ؟

ضـحكت وقالت :

ـ غالـب الـسريع .

قال :

ـ خير البر عاجله .

ـ شلون يعني ؟ واحنا واقفين ؟

قال :

ـ على الواقف .

قالت وجسـدها يرتج بالضـحك :

ـ تعلمت خفة الدم من المصـريين .

قال لها بحدة :

ـ ومن قال لك ان المصريين دمهم خفيف ؟

ـ في السينما دمهم خفيف .

ثم حدث شيء يصعب فهمه . اصبح وجهها جاداً ، وبحركة بارعة تخلصت من يده التي يضعها على كتفها وقالت :

ـ تعالى نقعد وايا اصدقائنا .

قال لها :

ـ انت صديقتي الوحيدة هنا

قالت بضيق :

ـ صدقه لله !

ـ مش فاهم .

قالت بضيق ، مقلدة طريقته في الكلام :

ـ صديقتي الوحيدة ! شلون مخبل !

ثم احتدت عيناها ، واشارت بسبابتها الى الداخل :

ـ ارجع مكانك :

ـ ايه ؟

قالت !

ـ ارجع مكانك :

قال :

ـ مخبلة . الحر سببه التجارب الذرية الامريكية . ماسمعت ان هناك اتفاقية تمنع اجراء التجارب الذرية فوق الارض ؟

ضحكت وامسكت يده . ولكنه انفلت منها الى الخارج .

سار فوق ممر مبلط يمتد لصق جدران البيت الخارجية ، ثم هبط منه الى الحديقة .

ـ ٧ ـ

كانت الفتاة تجلس على مرجيحة منصوبة بين عامودين حديديين . المرجيحة عريضة ، تسع لشخصين على الاقل . فرشت قاعدتها بحشايا اسفنجية شدت الى القاعدة بسيور من قماش . مسند المرجيحة مغطى بفرشة ، ممسوكة بعراو موضوعة

داخـل عامـود افقي ، يصـل بين قمتي العـامودين . والفتاة جالـة تضع وجهها بين كفيهـا ، وقـد اسـتقـر كوعـاهـا على فخذيها ، وراحـت تحرك المرجـيحة جيئة وذهاباً ، بايقـاع بطيء . خصـلات من شـعـرهـا تتهـدل على وجههـا . وبـدت بعيـدة ، مستغرقة في هم ما ، وحزينة كأنها تعيش فاجعة .

وقف غالب امامها حائراً ، في انتظار ان تتنبه الى وجوده . ولكنها استمرت في شرودهـا . اصغى الى اصوات الحفاة . لم يكن هنالك صوت على الاطلاق . تولاه احسـاس انـه هو وليلى وحيـدين ، في غابة بعيـدة عن البشر والناس . والضوء ؟ كان خافتاً ، وكأنها قرب بيت مهجور ، مضاء بشـمعة ، تشعلها اشباح سكان غابرين .

« ألهـذا ابعـدوني عن الحـديقـة ؟ » وكـان تسـاؤله ـ احتجاجه ينصرف الى ابعد من المحتفلين ، ليصـل الى تلك الـروح العملية ، التي تنخر في لباب المدينة كالسـوس ، وتبعدها عن الشعر والغابة ، ولقاء عاشقين تحت ضـوء القمر .

وامتلأ قلبه بالشعر . شعر بغداد ، سحر بغداد الذي استمر يفيض في قلبه منذ زمن بعيد .

همس :

ـ اميرتي .

لم ترد .

همس :

ـ ليلى !

لم ترفع رأسهـا . قدّر انها لم تسـمعه اصلاً . قال لنفسـه ، ان هذا الشرود الطويل ، والحـزن الـذي صمـد للزمـان ، بهما تستعيـد تلك العـراقة التي اخذت تزول . انهما تعـويضـه وعـزاؤه عن تلك الحـركة الخرقاء ، التي تجتاح شوارع المدينة . اقترب منها حتى كاد يلامسـها ، لتشعر بوجوده ، وناداها .

ـ ليلى .

هل قالت شيئاً ؟ ام كان ذلك انسـياب حيوان مجهول عبر الاشجار والعشـب .

كرر النداء :

ـ ليلى !

كانت صـرخة مخنوقة .

قالت بهمـس ومن غير ان تنظر اليه :

ـ استريح .

اي حزن يغلّف تلك الهمسة . لقد قالت كلمتها وتنهدت بعمق . فصرت المرجيحة . ونظرت اليه . وكأنها توصلت في تفكيرها الى نقطة اجلت فيها المسألة التي تشغلها ، وابعدتها عن مجال تفكيرها ، ثم اعلنت احتجاجها على الموضوع بكليته ، بتلك التنهيدة .

قبل ان يجلس فكّر : هل يجلس ملتصقاً بها ، مثلما كانا في الداخل ؟ بدا ذلك خارج سياق الموقف ، لاينسجم مع الغابة والشعر ، ولقاء عاشقين في ضوء القمر ، ولامع اللحظة . وأكد له احساسه ان ذلك لايصح . الالتصاق في الداخل كان وليد الضرورة ـ عندما يستعيده في سياق ليلى الصامتة ، والحديقة السمراء ، والاصوات الغامضة التي توشوش بين العشب والشجر ، فان التصاق ليلى به يصبح وليد ضرورة فرضت نفسها عليها . اين كان بامكانها ان تجلس ، وتتمكن ، في الوقت ذاته ، من ان تسمع إجابة على اسئلتها الهامة للغاية ؟

جلس بجوارها ، ومد ذراعه فوق الجزء الاعلى من المرجيحة ، فوق حشية المسند . كان ذلك ايضاً بفعل الضرورة . وكان يعلم ، وان لم يقل هذا لنفسه بصراحة ، انها حين تتعب من هذا الانحناء ، وتريح ظهرها على المسند ، فسوف تكون ذراعه محيطة بكتفيها ، وقد يستقر رأسها على صدره ، فيلمس شعرها بشفتيه وكأن ذلك لا مفر منه . كان ذلك طبيعياً انه اشبه بالتصاق اناس في باص مزدحم ، لم يتعارفوا من قبل وقد لايرون بعضهم مرة اخرى .

كانت الاضواء قد اختفت من الحديقة . لايدري متى وكيف . الشجر الذي يحيطهما من كل جانب اسود ، متماسك ، يحدده من الخارج ضوء كضوء الفجر .

والصمت ثقيل ، صاف . ليس ذلك الصمت الذي يجعلك تشعر ان الاشياء حولك تكتم انفاسها ، تتأهب لحركة ، بقفزة هائلة ، اولانفجار مدو ، بل كان صمتاً استرخت فيه الاشياء وبدأ يستولي عليها خدر النوم ، وكأن الكائنات الحية قد اخلدت الى نعاس لذيذ حالم .

والفتاة صامته .

يعلن غالب عن وجوده بسعلة ، أو تنهيدة . فلاتجيب . يمتص السكون ذلك الصوت ، الذي عكّره للحظة وكأن ليلى بصمتها تعلن انه اقتحم وحدتها ، عزلة

اختارتها ، لتنهي فيها عملا بالغ السرية والاهمية . وفاضت شحنات من صمتها على العالم ، فدب فيه توتر ، بث الرعدة في قلب غالب ، الذي اصبح متأهباً لوقوع الكارثة .

كان ضعيفاً وخائفاً . ثم تذكر .

حين رآها عبر النافذة ، كانت هي التي تومىء اليه بالحاح ، تدعوه ان يجيء باسرع مايستطيع ، وكأنها تقول له : مالحركتك بطيئة هكذا ؟ مالك تراني وكأنك لاتراني ؟ هل اغوتك أخرى وابعدتك عني ؟ احس انها قالت ذلك بايماءاتها العصبية ، الملهوفة ، وهو ينظر اليها ظاناً انها فتاة أخرى ، تومىء لانسان آخر . اراحه ذلك . وقرر ان يعتبر صمتها نوعاً من الالفة الحميمة ، وزوال الكلفة بين حبيبين ، تجاوزا كل المواضعات . خاصة انه يعلم ـ وإن كان عاجزاً عن التذكر ـ انهما صديقان منذ زمن بعيد جداً ، وان علاقة قديمة جداً تربط بينهما . سوف يتذكر ذلك في يوم ما . عندها شعر بالراحة ، وانسحب التوتر من قلب الاشياء .

لمس كتفها لمسة خفيفة فشهقت وازداد انحناؤ ها . ابعد يده وسكن . وظلا ، هكذا صامتين ، ألفين ، وكأنهما كيان واحد ، انقسم ظاهريا إلى اثنين وحين استدارت تكلم ، حاول ان يجعل صوته عادياً . قال :

ـ ليلى .

احس بها وقد تنبهت واخذت تصغي اليه . ارتجاجة المرجيحة ، غير الملحوظة انبأته بذلك . رأى ان عليه ان يواصل الحديث .

قال بصوت حاول ان يجعله طبيعياً :

ـ ايه اخبار سهام ؟

من الواضح انها فوجئت بشدة . فقد ارتجت المرجيحة بقوة ثم اخذت تتأرجح جيئة وذهاباً . استمر ذلك بعض الوقت .

« ماذا حدث هنا ؟ » قال لنفسه .

استدارت حتى صارت في مواجهته . عيناها تبرقان في العتمة . أهي مندهشة وحسب ، ام غاضبة . لايدري . قالت :

ـ قول تاني !

بعثت عبارتها الخوف في نفسه . فقد قالتها بتلك الطريقة التي توحي ، انه عند تكرار العبارة سوف تقوم بعمل عنيف . تغلب على خوفه ، واستجاب للتحدي :

ـ بسألك ، ايه اخبار سهام ؟

في صوته رعشة جعلته يغضب .

قالت :

ـ سهام ؟ قلت سهام ؟

قال بغضب :

ـ ايه الغريب في دا ؟ سالتك . . .

قاطعته بحدة :

ـ لكن ، انا سهام !

في تلك اللحظة انفتح الباب ، ومعه اندفعت موجات من الضوء القوي ، وصخب الاحاديث ، والموسيقى . ثم انطلق النداء :

عباس ، ياعباس !

ثم اغلق الباب مرة اخرى . احتجب الضوء والصوت ، ولكنهما استمرا بجوبان الحديقة ، حاملين ملامحهما التجارية ـ ملامح الشوارع المزدحمة ، والزحام والشجار ، ومؤامرات صغار الموظفين ، وتمتمات سوء الطوية ـ . كادت الحديقة ، وقد تشبعت بالضوء والصوت وروائح الطعام ، ان تصبح مجرد حديقة منزلية صغيرة .

ـ قلتي ايه ؟

سهام .

كان صوتها غائباً ، وكأنها تحدث نفسها .

وصمتا .

بحثت عن يده وامسكتها ، ولكنه ابعد يده ، فتنهدت ، واتكأت بظهرها على مسند المرجيحة . كانت ذراعه هناك ، ولكنه لم يحاول ابعادها . واستمر الصمت

ثم اخذ غالب يحدث نفسه ، بصوت هامس ، اشبه بالهمهمة : « ما كان علي ان اجيء الى هذه الحفلة » لم يكن يعني ذلك بالضبط . بل كان يلوم ليلى

قالت ليلى هامسة :

ـ اعرف .

قالتها بحزن واستسلام .

فاجأه ذلك واغضبه . قال :

ـ قلتي ايه ؟

قالت :

ـ جيت الى حفلة مادعاك احد لها .

وتنهدت .

دعاه اليها ؟ هنالك شخص ما ـ مااسمه ؟ـ التقى به ، سارا دون ان يحدث احد منهما الآخر ، ثم دخلا هذا المكان . لا . لم تحدث الامور على هذا النحو . كان يجلس في المقهى . وكان يعلم ان هنالك حفلة ما ، وانه مدعو اليها . بل كان يعلم ان ليلى ، هي التي اصرت على دعوته . من قال له ذلك ، ومتى ؟ واي مقهى كان ذلك ؟ ومن هي ليلى بالضبط ؟

ـ ماكان لازم آجي .

قالت :

ـ صحيح .

قال ، وقد تصارعت اللهجات في فمه ، فتكلم بالعربية الفصحى ، وهو يتأتىء :

ـ ولكن كيف اتيت ؟

قالت :

ـ ليلى هيه السبب .

ـ ليلى ؟ هل نعود لذلك مرة ثانية !

لم ترد . ضغطت بظهرها على ذراعه . واخذت تنظر الى النجوم . سألها في نفس الوقت الذي طرأت له الفكرة :

ـ انتي اللي عملتي الحفلة .

واخذت الامور تتخذ شكلاً ما ، يكاد يكون مفهوماً ، في ذهنه . قالت بشكوى :

ـ ماكنت تعرف ؟ ياربي !

في صوتها بكاء ؟

سألها :

ـ ايه مناسبة الحفلة دي ، ولمين ؟

قالت مندهشة ، مستنكرة :

- باالله . حتى دا ماكنتش تعرفه !

- كنت عارف .

نظرت اليه متسائلة ، فقال :

- ماكنتش لازم آجي .

وواصل :

- وبعرف اشياء كثيرة . . كل شيء .

ولكن ماالذي يعرفه ؟ انكون قد اقامت هذه الحفلة على شرفه ، بمناسبة مجيئه من مصر ؟ ولكن كيف وهي تقول انه ليس مدعواً ، وان مجيئه كان غلطة كبيرة . ثم تذكر . قال :

- وسهام ؟ حقيقة اسمك سهام ؟

قالت :

- بتشك في كلامي ؟

كان واضحا من صوتها ، من الطريقة التي تكلمت بها ، انها تكذب ، وانها تريده ان يعرف ذلك .

قال :

- انا متأكد انك ليلى .

وسمع ضحكتها المكتومة . وناداها :

- ليلى .

لم ترد . كان جسدها ينبض بجواره ، يلمس جسده لمسات رقيقة ، ناعمة ، فاخذ يتشي . قدّر ان محاولتها الفاشلة في الامتناع عن الضحك ، وتحوّل ذلك الضحك الى اهتزاز داخلي ، هو الذي يمنعها من الكلام . قال بتأكيد :

- ليلى !

همست :

- اسمعك .

كانت قهقهات عالية جداً تأتي من الداخل . امسكت يده ، وضغطت عليها . احس بها لدنه ، مرنه ، غضروفية بلا عظام ، كحيوان حي . رفعها الى شفتيه وقبل باطنها ، اكثر من مرة ، ثم ابقاها على فمه . شهقت ، وارتعشت .

تساءل : « هل فعلت ذلك احتجاجا واستنكاراً ؛ ام تعبيرا عن متعة دهشتها ؟ »
قالت ببطء :
ـ ولكن . ايه اهمية الاسم ؟
قال غالب :
ـ الاسم هو كل شيء .
ولكن العبارة « ماهي اهمية الاسم ؟ » رسخت في قلبه ، واخذت تتوالد .

ـ ٨ـ

عندما قال :
ـ ليلى !
ضاغطاً على حروف الاسم ، وكأنه يدعوها لأن تكون ليلى ، حتى وإن كانت سهام ، قالت ببطء :
ـ ولكن مااهمية الاسم ؟
اية فجيعة تكمن وراء ذلك الصوت !
كان الصوت رقيقاً ، حزيناً ، مفعماً بالبكاء . كان نوعاً من البكاء الداخلي . الرقة والحنان ، اللذان ينبعثان منه ، قادمان من الماضي البعيد . يعيد ان الى الحياة تنويمة الطفل ، ايقاع البكائيات ، صوت الحادي يتخلل ليل القرية من مسافر يعبر اطرافها ؛ حاد وحيد ، خائف ، وسط ظلمة ثقيلة ، مشحونة بالرعب . . وابتسامة ملتبسة لامرأة في كهف معزول ، تصيب الصبي بالدوار . وتوالت الصور الثابتة ، كأنها صور فوتوغرافية ، ماتكاد تبدو ، حتى تثير معها انفعالات قديمة ، منها : جبال الاردن الشرقية ، الغور ، البحر الميت ونهر الاردن ؛ الحصادون ولاقطات السنابل ، وترفع اللاقطة وجهها ـ العين الصارمة ، المحدقة ، البذئية الايماء لفتاة شبقة ، لام عين بيضاء .
ودخل في غيبوبة الالوان الكامدة ، الالوان الصارخة ـ الشمس والسماء ، والزهور ، والماء ، والغروب ـ والمشاهد الثابتة تتمخض عن انفعالاتها وهي ساكنة ، والعطور القديمة . . . وروائحها تعيد انتاج الصور . وصوت ليلى ـ هل كانت تتكلم حقاً ؟ ـ يأتيه دامعاً ، شاكياً ، ضارعاً ، حنوناً (ربما كان يقول : وماأهمية ان يكون

للانسان اسم وهوية ، ايها البورجوازي الصغير ! هل نسيت متطلبات الحياة الاولية ، ان تجد ماتأكله ، ان تستمتع بضوء الشمس ، ونسيم الليل ، وبفراش يؤويك !) ويقول الصوت صامتاً ، باكياً ، حزيناً حتى الموت :

تذكر - ياجنيني - عذوبة اماسي الصيف ، ليالي الشتاء والقهوة المرة ، والشاي . . . تذكر مذاق الحلوى - عندما كان لها مذاق يشيع في فمك ، وانفك ، واذنيك ، بفتح مسارب صدرك - والحكايات المخيفة ، يقودك رعبها للنوم مخدراً ، خائفاً من الهمسة ، وتملأ احلامك بموجودات صماء ، تتحرك في قلبها حياة غامضة ، فتتشكل ، وتحاصرك ، واذا بها تلك الغولة التي تستعد لالتهامك . فتخبيء رأسك في نحري ، وتذوب بين نهديّ . . . هل نسيت ذلك كله ، حتى تلغيه وتدمره من أجل هوية واسم ! ماذا استفدت من عالم الكبار برتابته ، ومنطقيته ، وشعاراته ، ونظرياته . . . !

ويمضي الصوت محملاً باللوعة والشكوى : الايكفي مابيته لي من عذاب !

ويصبح للصوت لون ، وملمس ، ورائحة . لون ضباب وردي ، كثيف ، رجراج ؛ ضباب له ملمس جسد الطفل الطري ، المبلول ، ولباب الفاكهة الناضجة ، ورائحة الارض المعشبة ، وليل اريجها في الصيف ، قارورة عطر الليمون . . . وهو في داخله جنين ، يعوم في ذلك الرحم . .

ورأى غالب نفسه يحتج ، او يحاول ان يحتج - ربما على هذه الغيبوبة ، التي استكن اليها ، ويسعى جاهداً لانتزاع نفسه منها ، ولكنها ، في الوقت ذاته ، مشتهاة ، ذات اغواء ، يخوض دون مجهود على الاطلاق عبر ضبابها الوردي ، الرطب الملمس ، اللدن كاللبن ، المتع كحليب الام - . واعلن ، وربما دون صوت ، ولكنه مسموع تماماً ، ومفهوم ، ان علينا ان نخرج من هذا الخدر ، الذي له طعم الحلوى القديم ، من هذه السوائل الراكدة التي نعوم فيها ، الى حيث يكون لنا اسم ، اسم واحد ، نعرف به ؛ فاكثر من اسم يساوي لا اسم . ولكن احتجاجه كان واهناً ، جاء لمجرد اثبات موقف .

ثم انحبس الصوت في داخله ، وتلاشي . لم افعل شيئاً في حياتي سوى تسجيل مواقف . ولكنه يسمع الصوت ، صوته هو ، آتياً من خارجه . فوجيء بغرابته ، وعذوبته . كان الاستماع اليه مريحاً جداً . والصوت يعلن عن حب الى

الابد ، عن لقاء تم بعد فراق طويل ، سخيف ، لامعنى له ، عن حياة لامعنى لها دون ليلى ، اوسهام ، او اي اسم آخر . . المهم انها بقربه ، وانها هي ، لاامرأة اخرى . وعاينهما ، غالب وليلى ، يتهاسان ؛ غالب مسترخ تماماً ، مغمض العينين ، وليلى تميل عليه ، تقبله على وجهه قبلات سريعة ، متلاحقة ؛ ووجهه كبير جداً ، ساكن جداً ، كأنه رأس تمثال ، اورأس دمية هائلة الحجم ، مصنوعة من المطاط المقوّى .

ثم ذاب غالب المراقب ، واندمج في غالب الساكن المستلم ؛ وغاص في نشوة مطلقة . كانت ليلى تعانقه ، وهي تئن ، وتدعوه أن يلتهمها ، ويمزقها ، ولايبتعد عنها ابداً . يحس بملمس جسدها العاري ـ متى خلعت ملابسها ؟ ـ على جسده . وهو ، ايضاً ، لايدري متى وكيف قد تخلص من ملابسه .

لم يكن ، لما يدور بينهما ، علاقة بالجنس . بل ان تفاهماً عميقاً قد نشأ ، وادرك كل منهما بعمق المأساة ـ المأزق اللذين يعيشهما الأخر ، فتجاوز الاثنان الشكليات ، واخذا يبحثان عن وسيلة مناسبة وكفوءة للتعبير عن التعاطف والتطامن . وها هما قد توصلا اليها . كان ذلك اشبه بتهوين المصيبة عن اخ ، تحتضنه اخته ، تضع رأسه على صدرها ، وتواسيه .

احس غالب ان ليلى ـ اسمها حقاً وصدقاً ـ قد عزمت امرها ، وقررت ان تقول كلمتها بصراحة وشجاعة . لقد تفادت ، في البداية ، الاعلان الصريح ، مراعاة لظروف اكثر اهمية . خبرتها الناضجة بالحياة جعلتها تكتم حقيقة مشاعرها . ولكنها الأن ، في لحظة صفاء ومودة ، قررت ان تكشف تضامنها ، دون خشية . فمن خلال ذلك العناق ، والعري ، والاندفاع الجسدي ، وبذلك الجسد الافعواني ، المرن ، المجدول بصلابة اسفنجية ، عبرت عن رفضها ان تعيش حياتها دون اسم او هوية ، عن محاولة ابعادها عنه عبر تحويلها الى سهام . . . عبرت عن تعاطفها مع بطولة لاجدوى منها ، سوى اثبات موقف ، عن حزنها على ذلك الشاعر الذي سقط اسمه سهواً في المطبعة ، والذي سقط على الارض ، ولم يحاول احد من المحتفلين ان يمسك بيده ، وينهضه .

كان ذلك العناق اشبه بالشكوى ، بحوار لفته جسداهما ، يشرحان فيه عبء ذلك الخلط ، المدبر بتصميم شرير ، وقد وجدا نفسيهما في شباكه الكابوسية ، المعقدة ؛ والذي سوف ينتصر عليهما في نهاية الامر ، مهما احتجا ، وقاوما . لهذا رسما

بجسديها حس الفراق المقبل ، حس وداع محتوم ، لاحيلة لها فيه .

●●●

ولكن الامور اخذت مجرى آخر .

قال لها :

ـ ولكن . . .

كان يريد ان يقول : « فلنبحث عن مكان آخر ، اكثر اماناً » . الا انها اسكته بقبلة ، احتوت فيها شفته السفلي بين شفتيها . حاول ان يواصل حديثه ، لكنه اكتشف ان ذلك مستحيلاً دون شفته السفلي . خرجت من فمه همهمة ؛ صوتاً دون كلام .

اسلم نفسه لها . وبجسدها المحكوم بارادة قوية ، متمكنة ؛ وكأنه انتصر على قوانين الجاذبية الارضية ، رآها تجلس على فخذيه ، وقد لفت ساقيها خلف ظهره ، تمكنت منه ، واخذ جسدها يعلو ويهبط بايقاع خاص . بدأ بطيئاً ، واخذ يتسارع بالتدريج .

وكأن غالب كان ينتظر عودتها ، فالتقى بفمها ، مستثاراً برغبة جامحة ، واندمج في تلك المتعة . اندمج في الموقف ، لامع الفتاة . وسمع لنفسة ان يفكر ، في لمحة خاطفة ، ان اللقاء الجسدي لايوحد بين اثنين ، ولكنه يفصلهما ، اذ يصبح كل منهما باحثاً ومستجيباً لمتعته الخاصة يرى في الآخر مجرد وسيلة ، يكيّفها ، ويتكيّف معها .

قال لنفسه : « فلنسجل اكتشافاً جديداً » وانغمر في تلك المتعة ، يلتهم الفم المهمهم ، المستغيث ، يلاءم جسده مع جسدها ، مشاركاً اياها الايقاع المتسارع . باحثاً عن انسب الوسائل لجعل ذلك الالتحام الجسدي كاملاً .

وكتأكيد لفوزه ، همهم :

ـ ليلى ، انت ليلى ، ليلى . . !

يبدو انها قالت ان ذلك هو اسمها بالفعل ، أو شيئاً كهذا ، ولكن كيف يكون بامكان الانسان ان يتأكد من شيء ، وهو في مثل هذه الحالة !

ثم توحّد التوتر ، والحنان ، والالفة المتجاوزة للمواصفات الاجتماعية ، والذكريات القديمة . . توحّدت ، وذابت في متعة خالصة استغرق فيها غالب حتى

فقدان الهوية والاسم . اصبح - غالب - شبقاً بدائياً ، خارج التاريخ . واخذ الثقل المأساوي ، الذي ابهظه ، خلال لقائه مع ليلى ، وفي الحفلة يتلاشى ، وشعر ان تلك المنح الجسدية ، التي تجاوزت كل الحدود المرسومة ، قد حوّلت المأساة / الهزيمة الى انتصار ساحق ، رد اليه اعتباره . ولتثبيت ذلك النصر ، وفي مواجهة الحفل الصاخب ، اخذ يردد :

- ليلى ، ليلى ، ليلى ، . . . !

فترد بمواء مجروح ، متألم .

ثم رآهم هناك . كانوا يقفون خلف الشباك ، متجاورين ، ينظرون اليهما . بدوا ، خلف حاجز الشباك كثلاث نسخ من تمثال نصفي ، وضعت متجاورة ، تحت ضوء خفيف ، غير مباشر . كانوا يرتدون بذلات سهرة متشابهة . الجاكتة ذات صف واحد من الازرار ، وفتحة واسعة ، تنتهي الى قرب السرة ، ضيقة عند الخصر ، والردفين . من مثلث الفتحة يظهر القميص الابيض ، بياقة كبيرة ، منشّاة ، واربطة عنق سوداء تشبه الفراشات ، كانوا متشابهين ، كأنهم توائم : قصاراً عراض الاكتاف ذوي كروش بارزة ، ورؤوساً ضخمة دب فيها الصلع ، واستقرت بين الكتفين دون رقبة ، وعيوناً براقة .

كان غالب يطالعهم ، محاولاً تمييزهم عن بعضهم ، وقد اخذ يستجيب لايقاع ليلى ، دون حماس .

- ليلى ، انظري !

استمرت ليلى صاعدة هابطة ، وكأنه لم يقل شيئاً . علا صوته قليلاً ، وهو يمسك كتفيها :

- ليلى ، ليلى ، انهم يراقبوننا .

التفتت ليلى خلفها ، دون ان تتوقف ، ثم اليه مبتسمة بعينين مشعتين حاول ان يقول لها ، انه ، منذ البداية ، اقترح عليها ان يذهبا الى مكان آخر ، ولكنها اخذت تضحك ، وتتكلم بعصبية ، كأنها فتاة مراهقة ، تحاول ان تثير ضحكه ومرحه . كانت تقول شيئاً كهذا ، وهي تكركر بالضحك :

- ماذا بك هذه الليلة . . ! مش زي عوايدك . . ! هل تريد ان تقلبها نكداً ؟ هذا زوجي ، فماذا يزعجك ؟

قال ، دون ان يقصد المزاح :

ـ الثلاثة ؟

فكركرت بالضحك .

قال احد الرجال ،وكأنه يواصل حديثاً :

ـ تعدد الازواج .

ثم حدث حوار مبهم بينهم ، باصوات حلقية ، خشنة ، وسمع احدهم يقول بوضوح :

ـ فردريك انجلز ، في اصل الملكية والعائلة .

كان يعلم انهم يراقبونهما ، وان استغراقهم في الحديث واضفاء طابع جدي ، مبالغ فيه ، عليه ، هو مجرد تظاهر . حتى تلك العبارات ، التي كانو ينطقونها بصوت واضح ، مرتفع ، ادرك ان الهدف من ورائها هواقناعه بانهم مشغولون عنه تماماً . (عبارات من نوع : المسألة أكثر تعقيداً مما تبدو في الظاهر)

ـ ان ذلك لن ينتهي الا بالهزيمة السياسية والعسكرية الكاملة.التاريخ لايعرف الرحمة .

ـ الظرف الموضوعي اقوى من كل التنظيرات .

أو عبارات اكثر تعقيداً :

ـ ان العودة الى الاصول الديناميكية .. الخ

لم يخف على غالب ، ان كل عبارة ، كانت مبطنة برسالة تحمل انذاراً ، وتهديداً خفيين . وقدّر غالب ـ ان شيئاً ما ، يمنعهم من تنفيذ انذارهم . ولكن ماهو ؟

يبدو ان ليلى فهمت الامور على نحو مغاير تماماً . انخدعت بالمظاهر واقتنعت ان الثلاثة منشغلون عنهما باحاديث جدية وهامة جداً . هذا هو الواقع ، قال غالب لنفسه . والا ، فما معنى استمرارها ، وربما بشكل اكثر اندفاعاً ، في ذلك العناق والتعري ـ تعريهما معاً ـ كانت تجذب ماتبقى عليه من ملابس ، فتنزعها بسهولة ، وتقذف بها بعيداً وهي تصيح بحماس .

اخذت لامبالاة ليلى تتسرب اليه . فقد ادرك انه وقع في المصيدة ، ولاجدوى من تعذيب الذات . بل شعر برغبة في الدعابة والعربدة تستولي عليه . اراد ان يقول ، ان الثلاثة ، في وقفتهم تلك يشبهون خدم المطاعم الرخيصة في مصر ، بكروشهم ، وملابسهم الضيقة التي لم يعد يلبسها احد ، واختناقهم في داخلها ـ

كيف يستطيعون التنفس بحق الله ! وتظاهرهم بالوقار . واراد ان يقول انهم حين يصمتون ، يخيل اليه انهم سوف ينطلقون فجأة منشدين :

بلادي ، بلادي ، بلادي

لك حبي وفؤادي

ولكن متى . وكيف له أن يقول كلاماً كثيراً كهذا ، وفمه منشغل بالتقبيل ، وهي ، على ماهي عليه ، من اندفاع اهوج ! بل انها كانت تفعل ذلك بنوع من المرح الصاخب ، الغريب .

- ٩ -

غادر الحفلة معظم الحاضرين . كان الواحد منهم يعلن ان الوقت قد اصبح متأخراً ، وان عليه ان يستيقظ مبكراً ، ويتجه الى ليلى ، يشكرها على دعوتها ، ثم يصافحها وينصرف ، كانت ليلى ، تتلقى الشكر والمصافحة بوقار ، ونظرة غائبة ، ثم تشيع المدعو حتى الباب . كانت مرهقة ، فاصبحت تقاطيع وجهها اكثر حساسية ورقة . ولم تحاول ان تستبقي احد ، بل تودع الجميع بآلية الاجهاد .

قال ذو الانف المقوس ، بصوت مرتفع ، انه لولا خوفه من زوجته لما انصرف حتى طلوع الشمس . ولأنه اعتبر ماقاله نكتة اخذ يقهقه . سبقته ليلى الى الباب ، وكأنها تستعجله في المغادرة . ودعته بمصافحة سريعة ، ثم عادت الى مكانها ، وهي تتنهد بعمق . وخلال ذلك كان على وجهها تلك الابتسامة المؤدبة - ابتسامة من يتظاهر بالاصغاء ، بينما ذهنه مشغول بامور اخرى . تنهيدتها ، وتمرير كفها على جبينها تنتميان الى تلك الامور السرية ، التي تعانيها وتتأمل فيها .

وغالب يرقب وجهها الذي اصبح حساساً ورقيقاً ، وقد امتلأ قلبه بالعشق .

لم يبق الا بعض النساء وغالب . بدت الحجرة - أوعلى الاصح الحجرتان - واسعة ، تعمها الفوضى ، تطالب الناس ان يغادروها . المرأة التي تحدثت عن التجارب القرية الامريكية كانت هنالك . وقد خلعت نظارتها ، وبدت ملكة اغراء حقيقية . من الواضح انها لم تكن بحاجة للنظارة . الاغلب انها كانت قناعاً تلبسه لتلعب دور المرأة المثقفة . كانت تجلس بجوار ليلى ، فبدت ليلى نحيلة وغلامية بجوارها . كانت تتودد الى ليلى ، تضمها اليها ، وتقبلها على خدها . ثم قالت :

ـ تعبت الليلة ياحبيبتي .

وضعت ليلى رأسهـا على كتف المرأة ، واخـذت تفـرك خدهـا عليـه ببـطء ونعومة . قالت :

ـ اني سعيدة .

قالت المرأة وهي تقبل شعر ليلى :

ـ فلتكوني هكذا دائما .

ابعـدت المـرأة رأس ليلى برفق ، وقبلتهـا على خدهـا قبلة لها صوت تمهيـداً لنهـوضهـا . وعنـدمـا انتصبت واقفـة ، قفز نهداها ، وارتفعا . سـارت الى المائدة ، واخذت تجمع من فوقها الاطباق المتسخة . كوّمت عدداً كبيراً ، ثم حملت ماجمعته ، واتجهت الى المطبخ . مشـت بثقة من لايخاف ان يسقط هذا العدد الكبير من الاطباق من بين يديه ، نادتها ليلى :

ـ لاتتعبي نفسـك ياحبيبتي ، خلّي كل شيء في مكانه .

رغم ان كلماتها كانت تحمـل دلالـة الامـر ، الاان صوتهـا كان اشبه بالانين .

توقفت المرأة في منتصف طريقها ، وهي تبعد الاطباق ، عن صـدرها ، وعلى وجهها تعبـير تسـاؤل . لم يفـت غالـب ان يلاحـظ ان المـرأة ، في وقفتهـا ، وابـراز صـدرهـا ـ بدعـوى الاحتفـاظ بالتـوازن وبـالانفـراج الخفيف لفمهـا ، كانـت تشحن ـ متعمدة ـ الجو المحيط بها بمجال من الاغراء المهلك . كانت توجه اشعاعها القاتل الى غالـب . قالـت :

ـ ماكو تعب ، عيني .

قالت ليلى :

ـ ماكو داعي عيني تتعبي نفسـك . باكر تيجي الخدامة .

قالت المـرأة انهـا ستضـع الطعام في الثلاجة حتى لايفسـد والاطباق المتسخة في الحـوض . فد دقيقـة ، عيني . والقت الى غالـب نظـرة سوداء ، مشعة ، ضـاحكة ـ سـاخـرة ؟ ـ وابتسـمت . . ثمّ استـدارت بحسـم ، وسـارت شـامخة ، بخطو رشيـق ، نحو المطبخ .

مع غيـاب المـرأة في المطبـخ استعـادت ليلى حضـورها . نمـت انوثتها في لحظة خاطفة ، واكتملت . واستـيرت لوعة العشـق في قلـب غالـب كأن تياراً كهربائياً مسّه .

في وجه ليلى ذلك الارهاق الجميل ، الذي يكسب صاحبه حساسية ورقة ، ويجعل البشرة شفافة ، سمراء ، ملتهبة ، وكأن صاحبتها مراهقة عصبية ، تكثر من دعك انفهاوعينيها . اصبحت عيناها ناعمتين ومشبعتين بضوء ساكن ، اليف .

اكتشف غالب انه هوليلى وحدهما . وقبل ان يتكلم ، التفتت اليه ، وهي تتثاءب ، وقالت :

ـ اتونست ؟

ـ نعم ؟

تثاءبت مرة اخرى ، وغطت فمها بيدها . عندما انتهت من تثاؤبها دعكت انفها وفمها ، وقالت باللغة العربية الفصحى :

ـ ارجو ان تكون استمتعت هذه الليلة !

لم يكن غالب من ذلك النوع ، الذي يفهم الاسئلة البسيطة على وجهها . فنظر في عيني ليلى وقال :

ـ في الحديقة ؟

ـ حديقة ؟ ياه حديقة ؟

وهو مايزال ينظر في عينيها ، اقترب منها وهمس :

ـ تريديني اظل الليلة هنا ؟

ـ حدقت فيه بدهشة واستكار ،وقالت :

ـ تظل هنا ؟

ـ ايه .

ـ تحبك ؟

همس لها :

ـ مااظن نسيت .

قالت بصوت غاضب :

ـ نسيت شنهو ؟

ـ الحديقة ، والرجاجيل الثلاثة . .

قالت بضيق :

ـ ياه حديقة ، وياه رجاجيل ثلاثة ؟

قال غالب :

ـ أنا وانت .

ـ اشبنا ، أنا وانت ؟

فكّر غالب : الهذا الحد ، وبهذه السرعة فقدت ذاكرتها ؟ لقد حدث ذلك منذ اقل من ساعة . ام ان ذلك حدث منذ زمن بعيد ، وقد اختلطت الامور عليه .

ثم تذكّر :

ـ لما كان اسمك سهام .

قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ شلون نخبل هذا .

ـ نسيت ؟

نادت باعلى صوتها :

ـ سهام ، عيني ، سهام !

اطلت المرأة ، مادة رأسها من باب المطبخ ، وقالت بهدوء :

ـ بلى ؟

قالت ليلى :

ـ هذه سهام .

وهي تشير بسبابتها نحوها . اخذت سهام تضحك ، وهي تخرج من باب المطبخ ، ولكنها لاتقترب كثيراً . قالت :

ـ قال لك انت سهام ؟

ردت ليلى :

ـ انت عارفة ؟

واضافت سهام وهي لاتتوقف عن الضحك :

ـ وعن الحديقة ؟

قالت ليلى :

ـ بلى .

وهي تزداد اندهاشاً . وسهام مغرقة في الضحك ، وتسأل :

ـ وعن الرجاجيل الثلاثة ؟

ـ بلى .

ثم قالت متوجهة الى سهام :

ـ شنهو حكايته ؟

قال سهام :

ـ إجا يمي ، وانا قاعدة بالحديقة .

وعادت الى المطبخ ، دون ان يتوقف ضحكها .

نهض غالب . تردد قليلاً ، ثم دخل المطبخ . كانت سهام تجلس امام الثلاجة المفتوحة ، تحاول ان تجد مكاناً لصواني الطعام التي حملتها وسط زحمة الاطباق ، والعلب البلاستيكية ، والقدور الصغيرة . وقف خلفها . الفستان انزلق عن ركبتها ، فبدا فخذاها مكتنزين ، بسبب جلوسها . كان لهما لون العاج . طالع العنق ، والنحر ، ومنبت النهدين ، والشق الفاصل بينهما . قال :

ـ فين القهوة ياهانم ؟

قالت بلهجة مصرية ، متقنة :

ـ خضتني ياشيخ .

والتفتت اليه وهي تبتسم .

قال :

ـ مش باين عليك .

ـ مش باين ايه ؟

ـ انك مخضوضة .

ادارت الجزء الاعلى من جسدها نحوه ، بعد أن وضعت الطبق الذي بين يديها على الارض ، وقالت :

ـ حاايان ازاي ؟

قال :

ـ كده .

وامسك بكتفيها واخذ يداعبها ، ثم انسابت يداه الى نحرها ، الى منبت النديين ، ثم امسك بكل منها ، مالئاً كفه به ، واخذ يعصرهما وخلال ذلك ، يقبل شعرها ، وجبينها ، ووجنتيها ، وعينيها ، وهو يردد :

ـ كده ، كده ، كده . . !

قالت :

ـ خلصت ؟

في الصوت حياد بارد ، نافذ كحد السكين . توقف ، واخذ العرق البارد ينز تحت ثيابه . وهي ساكنة . ابعد يديه عنها . وظل واقفاً ، عاجزاً عن الحسم .

سمعها تقول :

ـ مش حانخلص في ليلتنا .

همس لها :

ـ انا خارج من هنا ، ويمكن من المدينة كلها .

قالت :

ـ خيراً تفعل .

قال غالب بانفعال :

ـ ويمكن انتحر .

قالت :

ـ ماظنش .

ـ حاتشوفي .

ـ حانشوف .

خرج . لم تنظر اليه ليلى . ولم يجد الجرأة على توديعها . سار نحو الباب سمع سهام تقول من خلفه :

ـ باوعي ، شلون يمشي من غير مايودعك !

سمع ليلى تقول :

ـ فات وقت تعليمه الذوق .

لم يلتفت خلفه .

خرج من الباب بشعور الهارب . اختلطت الامور في ذهنه ، حين خرج . قال لنفسه : « يجب ان اعود لأخذ معطفي . » ثم تذكّر انه الحر . اجتاز الممر المؤدي الى البوابة الخارجية . توقف . « نسيت شيئاً ما ، ماهو ؟ ياهذه الذاكرة التعسة ! » . كانت الحديقة على يمينه . نسي شيئاً له علاقة بالحديقة . تفحصها ، ثم رأى المرجيحة هناك .

هاهي المرجيحة . هنا كان معها ـ ليلى ام سهام ؟ ـ . خطر له ان يعود ، ويأخذ ليلى من يدها ، ويقول لها : « هاهي المرجيحة ! فكيف تنكرين ماحدث ؟ » ولكن الامور مشوشة بما فيه الكفاية.سار وخرج من البوابة .

بعض المحتفلين يقفون في مجموعات صغيرة ، يتحدثون . الاشجار جعلت الاضاءة ضعيفة في الشارع . يتأمل الوجوه . كانت غريبة جداً ، لايذكر انه رآها من قبل . مر امام كل مجموعة ببطء ، لعل احداً يتعرف عليه ، ويوصله الى بيته بسيارته . لم يلتفت اليه احد ، اويتنبه لوجوده . توقف بالقرب من مجموعة مكَونة من رجلين وامرأة كانوا يتحدثون باصوات عالية . لم يفهم شيئاً من الذي يقولونه . حاول ان يسألهم عن الطريق الى الشارع العام . ولكن صوته كان محتبساً . التفت اليه احد الرجلين ، تفحصه ، وقال :

ـ عباس ؟

قال الآخر :

ـ ايه ، هذا عباس .

قالت المرأة :

ـ عبوسي ، عيني ، اشبيك ماترد ؟

حاول غالب ان يتكلم ولكن الاصوات الحت عليه :

ـ خوي عباس ، احكي لخاطر الله .

ـ دي قول !

ـ احكي !

ـ هذا مو عباس ؟

ـ هذا عباس . احكي .

قالت المرأة :

ـ انت مو عباس ؟

قال غالب :

ـ لا .

فاداروا وجوههم ، وواصلوا حديثهم

الوجه الثالث

زحف الغابة

- ١ -

الساعة بلغت السادسة عصراً . الجو شديد الحرارة في الخارج ، والمبرّدة تهدر في حجرة المكتب ، كنت اجلس الى مكتبي ، اقرأ الفقرة الاخيرة من الرواية التي كنت اكتبها . اقرأ ، واشرد قليلاً ، محاولاً استعادة الجو النفسي الذي كتبت فيه الجزء الاخير ، ليلة امس . يتم ذلك من خلال استعادة صور الشخصيات والاماكن ، والتشبث بها ، الى ان تبعث الاحاسيس التي ترافقها .

ذلك يحتاج الى بعض الوقت . الكلمات الاولى تمتنع . . ليس هذا بالضبط كلمات وصور كثيرة ومتنوعة تطرأ ؛ تقترح نفسها كبداية ؛ ولكنني اعلم انها ليست المطلوبة . انها الطبول التي تعلن عن الموكب القادم .

اخذت اتوتر كان ذلك اشبه بمن يبحث عن مخرج من مأزق خانق كان الحل السعيد ان اعد لنفسي فنجاناً من القهوة . وانا اعلم ، انني في لحظة ما ، قد تكون وانا اغسل بكرج القهوة ؛ او وانا اضع فيه كمية الماء المطلوبة ، او خلال اشعال الموقد . . . ستأتي الجملة التي سابدأ بها .

لمجرد ان أزحت الكرسي للخلف ، استعداداً للنهوض ، انبثقت الجملة ، مكتملة . اعدت الكرسي الى مكانه وكتبت الجملة . فعلت ذلك بسرعة خوفاً ان تهرب مني ، او أن يجعلها التأمل فيها غير مناسبة .

كانت الجملة مخيبة للامل . لم تكن بداية جديدة ، بل نهاية للفقرة السابقة ، التي انتهيت منها مساء الامس . المهم انني استعدت جو الرواية . لكن مازال امامي عذاب البدء الحقيقي .

سقط شيء ثقيل فوق سطح حجرة المكتب ذلك ايوب في الطابق الاعلى ،

يمارس قفزاته العنيفة ، المبتكرة . اعلم انه بعد ان ينتهي من رياضته الشاقة ، ويغطي العرق جسده ، سوف يجتاز الحجرة والممر ، راكضاً كالحصان ليستحم .
« هل هذا هو الوقت المناسب ياايوب ! » اقول لنفسي . . وانا اعرف ان كل الاوقات مناسبة لقفزات ايوب وعدوه .

في تلك اللحظة ، التي صرفني فيها ايوب عن جو الرواية ، وملأني بتأمل ذلك الهوس الذي يسيطر عليه ، جاءت البداية . اخذت اكتب بحماس . ونسيت ايوب والقهوة .

الكتابة بحماس لاتعني الكتابة السريعة ، بل الاستغراق في جو متخيل ، استغراقاً ملهوفاً . اختيار الكلمات يشبه المشي على ارض زلقة : مجازفة ان تختار ، ومجازفة الا تختار . وعندما تحزم أمرك ، تشعر على الفور انك ارتكبت فضيحة ، مكشوفة لجميع الناس ، عداك انت الذي ارتكبتها .

كنت قد كتبت اكثر من المعتاد - اعني اكثر من الحصة اليومية التي قررتها لنفسي - عندما سمعت صرخة ايوب المكررة تنطلق باللغة الانجليزية : « مدينة بلا فرح ، مدينة بلا نساء ! » ثم اخذ يعدو .

يبدو ان جميع انواع الرياضة البدنية العنيفة ، التي يمارسها ايوب ، لاتفعل شيئاً سوى ان تزيد هوسه الجنسي . عندما خطرت لي هذه الفكرة ناديت ايوب . توقف عن العدو ، فتحت باب الحجرة فرأيته يميل بجذعه فوق حاجز السلم الداخلي ، الذي يصل بين الطابقين . قال :

- نعم ياخوي ؟

قلت :

- ايش رأيك نعمل جوله ؟

- مثل مابدك . هلق ؟

- ايه هلق .

قال : بعد خمس دقائق . تعني بالنسبة لايوب خمس دقائق بالضبط . ارتديت ملابس بسرعة وخرجت من باب المطبخ . كان ايوب يجلس خلف مقود سيارته الفولفو ، ومحركها يهدر . فتحت البوابة الخارجية . انسابت منها السيارة خارجة ببطء ، ثم توقفت . اعدت اغلاق البوابة ، وجلست بجوار ايوب . قال :

- نروح طريق شهريار ؟

وعيناه على الطريق . كنت اريد امتداداً في المكان اوسع وتنويعا اكثر ؛ فقلت :

ـ الراشدية

تخطت السيارة الطريق الوعر الفاصل بين شارعنا وشارع بلال الحبشي . اسرعت السيارة فطلبت من ايوب ان يتمهل . على يميننا ، في شارع بلال الحبشي ، بستان واسع وكثيف الاشجار ، تحيط به اشجار عملاقة كسور . ومنه كان يفوح عطر القداح ثقيلا ، مسكراً . في السابق كنت اعتقد انها رائحة الياسمين الى ان تبينت انها عطر زهور اشجار البرتقال . خطر لي ان احكي ذلك لايوب اوقفني رد فعله المتخيّل ، فاخذت احكيه في سري لفتاة وهمية .

على يسارنا وراء البيوت ، الواقعة في شارعنا ، غابة نخيل ، تتناثر بين جذوعها اشجار اللارنج والليمون . بين آن وآخر يلتقط ضوء السيارة شبح امرأة ، ملفوفة بعباءتها السوداء تسير برفقة رجل ؛ رأيت فتيات يهبطن من سيارة اجرة توقفت امام احد البيوت برقت سيقانهن وهن يغادرن السيارة . رجال شرطة يجلسون داخل سيارة مظلمة : تماثيل سوداء ، مصمتة .

حاولت كسر الصمت . قلت :

ـ ايش فيه اخبار ؟

رد وقد فوجىء :

ـ اخبار شو ؟

ـ البلد .

ـ لبنان ؟

قلت : ايه . فقال باسلوب من ينهي حديثاً : ، منيحة . ، وصمتنا

. ساحة الطبقجلي . مطعم الكباب يشع باضواء النيون . على الرصيف ، امام المطعم ، اصطفت موائد رخامية ، وفوقها اطباق اللحوم المشوية والرشاد والسلطة . احسست بشهية للطعام . يلي المطعم مقهى . في داخله وفي الخارج اصطفت دكك خشبية كثيرة . التقطت عيناي رجال الشرطة ، جالسين على الدكك الخشبية ، يشربون الشاي من استكانات صغيرة ويدخنون كانوا صامتين .

دارت بنا السيارة وسط شوارع مظلمة خالية حتى وصلنا الشارع الذي يمتد بجوار النهر . كان دجلة يبدو للحظات قصيرة ، بين البيوت الفخمة ، المقامة على

ضفته . كان كنهر تشاهده في السينما ، ينبيء بوجوده دون ان يكون له حضور ـ شأن انهار المدن . قلت :

ـ في اميركا ، بيسمحوا بالبناء على النهر مباشرة ؟

كنت اعرف ماسوف يجيب به ايوب ، واعرف ان غيظه من هذه المدينة هو الذي سوف يوحي باجابته . قال : في اميركا ، النهر ملكية عامة ، لااحد يستطيع الاعتداء عليها ، وكل من يحاول الخ . . . .

اخذت البيوت المطلة على النهر تتقزم وتتباعد ، وبدا النهر اسود لامعاً ، بلا امواج ، كأنه شارع اسفلتي في صهد الظهيرة . من بعيد رأيت ضوءاً ، ودخاناً ، تخيلت الشواء فاخذت اشم رائحته ، واحسست بالجوع فجأة بحدة . اقترحت على ايوب ان نأكل ، فنظر الى الساعة المثبتة على يمين المقود ، وقال : « مافيه مانع » ، واوقف السيارة امام باب المطعم .

المطعم دكان مربع من الاسمنت الخالص . له شباك عريض يطل على النهر مباشرة . تضيئه انابيب نيون ، وليس فيه سوى ثلاجة كبيرة ، وموقد للشواء ، تظل جمراته مشتعلة بواسطة تيار هواء قادم من مروحة تشرف على الموقد . هنالك موقد غاز فوقه اباريق شاي وحوله عشرات الاستكانات .

الرجل الذي استقبلنا كان ذا لحية نامية ، لم يحلقها منذ اسبوع على الاقل . تبدو فيها بقع من الشعر الابيض الخالص وسط كثافة الشعر الاسود . كان يرتدي ثوبا ، تتخلله خطوط طولية عريضة زرقاء وبيضاء ؛ وله ذلك الانف العراقي الكبير الذي يهبط جانباه الى اسفل ، وفم تنساب شفته على شكل زاوية ، تقيم من شفته السفلى شبه مثلث ؛ وله ذقن كبيرة ، قوية . ومع حاجبيه الكثيفين ، المتباعدين يبدو الوجه كقناع . كان على يديه آثار دماء . فتح لنا غطاء الثلاجة ، كاشفاً امامنا عشرات من الشياش اللحم والكبدة ، والكلاوي والكباب ، مصفوفة على اعمدة افقية رفيعة ، داخل الثلاجة . اوصينا على اربعة اشياش من كل نوع ، وعلى طماطم وبصل .

قادنا الجرسون عبر جسر حجري ضيق ، الى ارض منبسطة محاطة بالأشجار ومحاذية للنهر ، وقد اضيئت اضاءة خفيفة ، من المفترض ان تكون حالمة . جلسنا الى احدى الموائد الرخامية ، ننتظر الطعام .

كانت الحكاية تلح علي ، فحكيتها ، رغم معرفتي بان ايوب لن يستطيع

اكتشاف المضحك فيها .

قلت له انني كنت اركب الباص هذا الصباح ، فقاطعني قائلاً : « ولماذا تركب الباص ؟ استيقظ مبكراً وانا اوصلك بالسيارة » شكرته وقلت له ان هذا ليس موضوعنا الآن . ثم واصلت : كنت اركب الباص ، وكان يجلس على الكراسي التي امامي عدد من الفلاحين .

قال ايوب :

ـ وكيف عرفت انهم فلاحين ؟

ـ من ملابسهم وكلامهم .

ـ في اميركا . . .

قلت : اعلم انك لاتستطيع ان تميز الفلاح عن غيره في اميركا من ملابسه . اصمت الآن حتى انتهي . كان الفلاحون يجلسون على الكراسي التي امامي ويتحدثون بصوت مرتفع . كان موضوع حديثهم اشاعة تقول ان الحكومة قررت ان تمنح كل راعي غنم قرضاً طويل الاجل ، ودون فوائد قدره عشرة آلاف دينار ، وسيارة مرسيدس كهدية . واخذ الفلاحون يبدون دهشتهم ويتساءلون عن السبب الذي جعل للفلاحين كل هذا الشأن قال احد الفلاحين ان هذه اكاذيب تعودت الحكومات على ترديدها . تتذكروا ايام عبد الكريم قاسم ؟ فلقد قالوا ان كريم سوف يزوّج كل فلاح معلمة مدرسة . انتظرنا المعلمات فلم يحدث شيء . اكاذيب الحكومات نعرفها .

كان ايوب يصغي عابساً . عندما انتهيت سألني من يكون عبد الكريم قاسم . قلت له انه كان رئيس جمهورية وقد قاد انقلاب ٥٨ . اقترب ايوب برأسه وسألني هامساً :

ـ كان مجنون ؟

ـ ليش تسأل ؟

قال بنفاذ صبر :

ـ ليش يسأل ؟ كم عدد المعلمات وكم عدد الفلاحين ؟ وينه حالياً ؟

قلت له انه مات ، وقد اسفت حقاً لأنني رويت له الحكاية . وضع الرجل الطعام امامنا . اضاف الى السلطة خساً ، وطبقاً من الرشاد . اكلت بشهية . كان اللحم طريا والخضار طازجة . بعد العشاء شربنا الشاي في استكانات ذات حواف

مذهبة ، ومحاطة بدوائر حمراء في منتصفها . كان الشاي رائعاً فطلبت المزيد .

بعد العشاء واصلنا المسيرة نحو الراشدية . اخذت مصابيح الشوارع تتباعد ، وكانت الظلمة كثيفة بين الاغصان . اضاء ايوب المصابيح العالية ، فكشفت لنا الاشجار الكثيفة على يميننا ، والنهر على يسارنا .

قلت فجأة :

ـ اوقف ، ياأخي !

خفف ايوب السرعة ، وسألني :

ـ وشوفيه ؟

ـ مش شايف ؟ الارانب !

عشرات الارانب كانت تجتاز الطريق امامنا . قال ايوب انها فئران ، واسرع بالسيارة وهو يضحك . سمعت هسيسها وقضقضة عظامها وهي تسحق . استمر ايوب في الضحك ، وقال :

ـ وشو حكايتك ؟ امبارح القطط على طريق شهريار ، واليوم الفيران . قلت له ، وانا احاول السيطرة على اعصابي ، انني ظننتها ارانب . قال ان ملايين من هذه الفئران الكبيرة الحجم تسرح وتمرح في هذه المناطق . رأيت سرباً آخر امامنا . اسرع ايوب نحوه وهو يضحك ، وقال :

ـ خدوا يااولاد الكلب !

وداس السرب .

تلك النشوة التي كان يسحق بها الفئران اثارت اعصابي الى ابعد حد . كانت محمّلة ببذاءة لاتحاول اخفاء نفسها . بدا لي وكأن ايوب يقول لي : انني تحت هذا المظهر الوديع أخفي روح مجرم وفاجر . في تلك النشوة كانت عربدة جنسية وقحة تتجلى طلبت منه ان نعود . سألني عن السبب ، فقلت انني اشعر بتعب مفاجيء انحرف يميناً ، ودار بالسيارة في اتجاه طريق العودة وواصل حديثه : « يجب ان تسيطر على اعصابك . البارحة فقدت اعصابك بسبب القطط . وفي البيت تصاب بالكآبة بسبب الأبراص والآن الفئران . »

قلت له أنه على حق ، رغبة في اسكاته . ولكنه لم يتوقف : « يحدث هذا مع انك مغرم بأكل اللحم . اللحم ، الذي اكلته منذ قليل ، الاتعتقد انه كان حيا

مثل هذه الحيوانات ؟ ثم تغضب عند ماندوس السيارة على فأر . »

طلبت منه ان يتوقف . ثم هبطت من السيارة واخذت اتقيأ . تقيأت كل مافي معدتي . اختفى الدوار الذي الم بي . عدت الى مقعدي في السيارة . كان ايوب صامتاً . ادركت انه خائف . حين اقتربنا من البيت قال :

- اروح اجيب لك دوا ؟

كان في صوته رعشة . قلت :

- انا احسن .

اضاءت السيارة البيت ، ودخلت من الباب الخارجي ببطء ، حتى استقرت في الفسحة التي امام باب المطبخ . انطفأت مصابيح السيارة فهجمت علينا وحشة الحديقة .

منذ ان استأجرنا هذا البيت لم يقم احد بالعناية بالحديقة . نمت اشجارها وتوحشت حتى احاطت بالبيت كله وسدت منافذه . وعندما اعود الى البيت ليلا ، فحتى اقطع المسافة الفاصلة بين البوابة الخارجية وباب البيت ، اصارع الاغصان وابعدها عن طريقي لأتمكن من المرور . افتح باب البيت ، فتتبعني الاغصان واوراق الشجر الى الداخل . ادفعها الى الخارج واغلق الباب بصعوبة . وحين افتح نوافذ حجرة النوم تعيش معي اصوات الحديقة ، حتى في احلامي . زواحف وحشرات وطيور كثيرة تحدث اصواتاً مميزة ، وهي تمرق عبر الاعشاب الجافة او تسقط من خلال الاشجار الكثيفة الى العشب - بعضها سريع ، ينطلق فجأة ، محدثاً صوتاً اشبه بسقوط جسم ثقيل ، ثم يتوقف . اصوات اخرى تشبه انيناً يستمر طويلاً ، وهنالك الصرخات - تحتار أهي لطائر ام لانسان - تبدأ وتنتهي مخلّفة احساساً مضنياً بالفجيعة في احلامي تبدو الحديقة مزدحمة بالبشر الذين يتهامسون باشياء مبهمة تتصل بي ، ولكنني لاأعرفها .

قال ايوب :

- اوعى الشجر .

وسار امامي ، يحطم الاغصان التي تعترضنا .

عندما دخلنا البيت تناول ايوب المكنسة واخذ يكنس الابراص التي قتلها قبل خروجنا . توقف ليلاحظ ان ذيل احد الابراص مازال يتحرك رغم انه انفصل عن جسده منذ فترة طويلة . كان دائماً يبدي دهشته حين يرى الذيل المنفصل عن الجسد

يقفز ويرتعش .

امسكت بحذاء قديم واخذت اقتل الأبراص المتسللة من الشقوق الموجودة في دورة المياه ، ومن تحت السجاجيد المكدسة تحت السلم الداخلي ، التي نفرشها شتاء ، ونخزنها تحت السلم صيفاً بعض هذه الابراص ينمو ليصبح طوله اكثر من عشرين سنتيمتراً . كان ايوب قد انتهى من الكنس ورفع الي وجهه . كان مغطى بالعرق . وكما هو دائماً في مثل هذه الاحوال كان عدوانياً ومرحاً . سأل عن الحصيلة ، فقلت :

ـ قتلت خمسة . منها سحلية وحيوان غريب آخر .

قال :

ـ باقي ثلاثة . لازم نوصلهم اليوم لعشرين .

كنا قد اتفقنا على قتل ثلاثة عشر برصاً في اليوم ، على الاقل . ايوب هو الذي اقترح الرقم . واذا زدنا على ذلك فخير وبركة .

عندما قتلنا البرص رقم عشرين كانت ملابسنا قد ابتلت بالعرق . فخلعنا واستحممنا ، ثم جلسنا نشرب الشاي الخفيف جداً الذي اعدّه ايوب . بالنسبة لي ، يكون التفكير في تناول الطعام ، بعد هذه المجزرة مستحيلا . اكتفي بالشاي ، ثم القهوة السادة التي شرب عدداً كبيراً من فناجينها ثم آكل شيئاً في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل ، قبل ان انام .

اخذنا نشرب الشاي في صمت . كان ايوب يبدو منشغلاً بموضوع ما . نظر الي وابتسم ثم قال :

ـ انت بتحب القطط كثير .

اخذت اشرح له : القطط حيوانات جميلة واليفة الى حد يجعلها انسانية تقريباً . هل رأيت عينيها ؟ فيها جدية مضحكة كعيون الاطفال . اخذت اشعر فجأة بعشق للقطط ، فاضفت : تصور احساسك عندما تقفز القطة الى مكتبك ، وانت منهمك في القراءة او الكتابة . انها تداعب كتفك او ذراعك فتشعر برعشة متعة وحنان لامثيل لها . ثم وانت نائم . عندما تتسلل القطة وتنام بجوارك ، او قرب قدميك وعندما تغضب القطة او تشاكس ، الاتشعر بالحنان يملأ قلبك ، فتود ان تضحك وتبكي في الوقت ذاته . لامثيل لجمالها الا جمال الاطفال فما الذي يجعل السكارى ، بحق الله ، وهم ينطلقون بسياراتهم بسرعة جنونية ، ينحرفون بها فجأة ، مخاطرين

بحساتهم لمجرد ان يصدموا قطة عابرة ويسحقون جسدها سحقاً ؟ أي تكوين نفسي يجعلهم يفعلون ذلك لوان ذلك حدث مرة واحدة ، لما اكترثت كثيراً . ولكننا . كلما اتجهنا الى طريق شهريار نرى العشرات منها مسحوقة ، دامية .

قال ايوب بعناد :

ـ جسمها مليان براغيت . وسخه .

قلت بحدة :

ـ هذا غير صحيح . القط حيوان نظيف بقدر مايستطيع . . .

وسوقفت عن الكلام . لاحظت ان ايوب ينظر بصرامة الى باب الحجرة وقد اتخذ فمه شكل انه لم يعد يصغي . لما صمتّ استقام جذعه وقال : صديقك عبد الحليم . . .

اذهلني فعلاً . قلت :

ـ عبد الحليم ؟ مين عبد الحليم ؟

ـ ياأخي هذا ، شو اسمه ؟ اللي بدو يجوز الفلاحين معلمات .

ـ عبد الكريم قاسم . ماله ؟

ـ عبد الكريم عبد الحليم مش مهم . المنطقي انه بدال مايجوز الفلاحين معلمات يعلمهم اساليب الزراعة الحديثة .

ومضى يشرح الفارق بين العقل العلمي والعقل المتخلف . عبد الحليم ، لم يفكر حتى باجراء احصاء ليرى ان كان عدد المعلمات مساوياً لعدد الفلاحين ثم كان عليه ان يدرس توزيع القوى العاملة . القرية تحتاج مثلاً ، لخمسين فلاحاً والى معلمة واحدة ، فماذا يصنع بالتسعة واربعين معلمة المتبقيات ؟

قلت له ان هنالك بعض الاعمال الكتابية التي لابد لي من انجازها الليلة نهض ، وقال :

ـ فكّر في الموضوع .

وانصرف .

ـ ٢ ـ

قلت لنفسي : فلأستمر في الكتابة . كأنما اردت ان ابرر لنفسي التخلص من ايوب . اخذت اتمشى في الحجرة ، استعداداً للبدء . الكتابة حالة ، لخلقها ، لابد

من الحالات السابقة . لابد لي من طرد ايوب من داخلي : اعني تصوره وهو يحاول الشرم فيستعصي عليه ، ويصر في ايذائه من حجري دون شفقة . وهي ايضاً حالة الصداد المتقزز الى ابعد حد من صديد . سعالي والبراص احس بدبيبها تحت جلدي . وهي ايضاً الرغبة في التواصل الحميم مع اصدقاء يفهمونك وتفهمهم ، اصدقاء لا وجود لهم الآن . . . وتتحول هذه الرغبة الى احلام يقظة تجعل الكتابة مستحيلة

اواصل المشي ، متخلصاً باحلام يقظة من شعوري بالاشمئزاز من جسدي . وتنمو حالة الكتابة فتجعل احلام اليقظة تبدو مثل حكة . احاول الاعتذار عن هذه الاحلام فأجعلها امكانيات للكتابة ، فشيئاً وتبتعد عني ببطء . يصبح المشي ، ومجازر الفئران والابراص ، واحلام اليقظة مملة ومرهقة جسدياً وتأتي الكتابة كاقتحام مشروع لحالة من الركود . انها تلبس رداء الواجب . اجلس للكتابة ومازال امامي عقبتان : الاولى ، الكتابة بمنطق حلم اليقظة ، والثانية ان يصبح مشروع الكتابة كله حلم يقظة ، فأرى الرواية التي اكتبها قد حازت اعجاباً عاماً . عندما اتخطى هاتين العقبتين تكتمل حالة الكتابة اخذت اكتب . كتبت ساعتين او اكثر . ثم شعرت بالكلمات تموت بين يدي ، والحدث يراوح مكانه . كلمات تتولد دون ان يحدث شيء . تصورت ضجر القاريء وهو يطالع هذه السطور ، وانتقلت عدوى الضجر الي . فانهض وامشي ، منتظراً ان يعيد المكان والليل والاصوات الكتابة الي .

كنت اصف مشهد رعب في الرواية التي اكتبها . ولكن لحظة الرعب افلتت مني وانا احاول الآن استعادتها . وشيئاً فشيئاً اخذت تلك اللحظة تتسرب الي عبر السكون الشامل العميق ، وعبر الاصوات التي تنشأ في قلبه وكأنها انفجارات مفاجئة . . . عبر الحديقة باصواتها المخشخشة ، المنذرة ، وصوت باب سيارة يغلق ، واصوات الحرس في الشوارع المحيطة بالبيت وهم يتراكضون ويتنادون بصرخات مبهمة ، كنت اتصورها اوامر موجهة الي با طفاء الضوء . اتجهت الى المكتب ، ثم توقفت . توقفت لحظة الكتابة معلّقة في الهواء ، مؤجلة : كان ايوب يعدو في الطابق الاعلى . نظرت الى ساعتي . كانت تشير الى الثانية بعد منتصف الليل .

ترددت قليلاً . ثم فتحت الباب المؤدي الى الداخل ، ووقفت عند اسفل السلم ، وناديت : ياايوب ! ، اشتعل ضوء السلم . رأيت ايوب وهو يهبط بضعة

درجات ثم يمد رأسه من فوق حاجز السلم . جذعه العاري يلمع بالعرق . وهو يمد رأسه خطر لي انه يصغي اليه بانفه ، لأن انفه وحده هو الذي كان يحمل تعبير التساؤل . قال :

- نعم ياخوي ؟

قلت :

- مش عارف تنام ؟

- مش قادر .

قلت :

- ليش ماتمارس العادة السرية ؟

اخذت عيناه ترمشان دون ان يقول شيئاً . قلت :

- اعتقد انها رايحة تريح اعصابك شوية . جرّبها .

قال بصوت شاك ، نحيل لم يكن صوته الطبيعي :

- قريت انها مضرة للمعدة والعيون .

- كلام فارغ . اعملها مرة واحدة في اليوم ، وبعدين امسك لك كتاب واقرأ فيه لحتى تنام .

قال ان القراءة تجعله عصبياً ، فقلت له ان عليه ان يجرب العادة السرية ، اذن ، فقال : « طيب » واخذ يصعد السلم . وشعرت وانا ادخل حجرة المكتب انني حكيم جداً ، فلقد قدمت خدمة غير تقليدية لانسان يحتاج اليها .

كان ايوب يحتل الطبق الأعلى في البيت . وهو قد عاش بعض الوقت في امريكا ، وهنالك تخصص في التربية الرياضية . وفي بغداد اصبح مدرساً في معهد التربية الرياضية . تعرفت عليه بعد وصوله الى بغداد بفترة قصيرة . وكان الانطباع الذي خلفه لدي هو انه من النمط الشائع الذي تفرزه الجامعات الامريكية . اعني الانماط اللامعة من خريجي هذه الجامعات الذين يتمتعون بشعبية بين الطلبة ، ويتسمون بالثقة بالذات ، والتواضع المحسوب ، ويوحون لك بالرجولة والتماسك . وهم ، عادة ، ينجحون في لجان الصفوف ، ويتم انتخابهم كاكثر الطلبة شعبية ، اوجاذبية . ولكنك اذا تعرفت عليهم عن قرب ، فسوف تكتشف انك لاتستطيع التواصل معهم بعمق ، واذا جالستهم طويلاً فسوف يدركك الملل ، وتكتشف امامك خواءهم . غير انك ستندهش للمديح الذي يكال لهم ، ومن قدرتهم على

اقامة علاقة مع اية فتاة ، حتى الذكية ، التي تتمتع بثقافة جيدة وحس مرهف .

وعندما سكنّا سوياً كان ايوب في البدية يمتاز بروح عملية وتوافق اذهلاني . تصورت انه الانسان المثالي الذي استطيع ان اسكن معه . ولكن لمعانه انطفأ بسرعة ، واخذ يبرهن عن عجز حتى في ابسط الامور . واصبح النوم يستعصي عليه ، فيحاول استجلابه بأشق انواع التمارين الرياضية ولكن جسده القوي كان يستوعب مشاق الرياضة ، ويزداد توتره ، ويمتنع عليه النوم .

في البداية قال لي ان الفتاة العراقية ليست جميلة . كان يزعجه فيها طول الجذع وقصر الساقين . لقد تعود الفتيات الامريكيات ، ذوات السيقان الطويلة والاجساد النحيلة . كان يقسم لو ان الفتيات العراقيات بيا في ذلك اجملهن ، قدمن انفسهن له ، ورجونه ان يضاجعهن لما تنازل حتى بلمسهن . ثم اخذ رأيه يتغير بالتدريج . قال ، ان جسد الفتاة العراقية رياضي بطبيعته . ولماسفرته عمايعنيه بذلك ، قال ان لها جسداً صلباً ، متماسك العضلات ثم اخذ يكتشف جمال العيون والشفاه . ولم يمض وقت طويل حتى اصبحت المرأة العراقية اجمل واشهى نساء العالم . ثم تحولت المرأة الى هوس عنده . والغريب انه لم يلجأ الى اية وسيلة اصطناعية للتخفيف من ازمته . كان يرفض ان يشرب الخمر او اللجوء للمومسات اوحتى العادة السرية ، الى ان اقتنع مؤخراً بضرورة ممارستها

-٣-

أي توارد لعين جعلني استعيد تلك الليلة المليئة بالعجائب ، بسجن الترحيلات في قسم الخليفة ؟

كانت الساعة تشير الى الرابعة بعد منتصف الليل ، وانا مازلت اكتب امستولى علي ذلك النوع من القلق الذي يرافق كسر المحرمات . وضعت الدفتر الذي اكتب فيه ، في درج المكتب ، ودخلت حجرة النوم وتمددت على السرير . الاحساس بأنني تأخرت عن موعد نومي جعلني ألغي تلك العادة الليلة ، وهي ان اقرأ قبل النوم حتى اتخلص من حالة الكتابة ، ومايرافقها من توتر ، رغم علمي ان النوم دون هذه العادة الليلية لن يأتي بسهولة .

استرخيت بشكل ارادي لاستحلاب النوم ، فألحّ علي ايوب . اكتشفت انني منذ ساعتين وانا احتفظ بصورته على النحو التالي : اراه جالساً في الحمام ، فوق البيديه ، وجهه عابس وجاد جداً ، في حين تنطلق يده في ممارسة العادة السرية . لاأرى ، في خيالي ، صورته ابداً وهو ينتهي من تلك العملية .

لم تبد لي تلك الصورة كشيء مضحك بل كبذاءة مأساوية . كان ذلك اشبه بتحويل طفلة ثرثارة ، ضاحكة الى مومس لاينتهي حزنها ابداً ، او باغتصاب طفل مازال يتعلم المشي ، والقائه دامياً حوّل الرعب وجهه الى قناع . بحق الله ، هل هذا هو الوقت المناسب لهذه الميلودراما ؟ ولكن مابال ايوب قد سكن هذا السكون المريب ! وددت لو اسمع حركته فوقي ، اواسمع حتى صرخاته الجنونية : « مدينة بلا فرج » . ولكن لاشيء سوى هذا الصمت . (لماذا لم يخطر ببالي انه نائم ؟ ولكن ايوب لاينام ساعتين متصلتين دون ان يمارس قفزاته .)

في الظلام ، نظرت الى الساعة . عقاربها الفسفورية تشير الى الرابعة وعشر دقائق . بعد قليل سوف يطلع الفجر وعم الكون ذلك الضوء البلّوري الطازج وقد استهلكت طاقتي . علي ان ألغي ايوب من ذهني ، واتخلص من هذه الميلودراما . نجحت . وكان معنى ذلك الاستغراق في حالة من الخدر ، تتراوح بين النوم واليقظة . سوف يستمر ذلك وقتاً طويلاً ، بسبب حالة الكتابة ، التي لم اتخلص منها ، وذلك العدد الكبير من فناجين القهوة السادة ، المغلية جيداً ، التي تناولتها لم اكن في حالة ولاوقت مناسبين لتناول حبة فاليوم ، ثم القراءة حتى يدهمني النوم بشكل طبيعي . ثم تسرب المشهد .

لم يكن تذكراً . ولم اعشه مرة اخرى . كان اشبه بمناظرة بين احمد الذي يحمل داخله صورة العالم الخارجي عن الفدائي : الروح المثالية ، والحس العملي العميق . مزيج لايمكن هزيمته ، بل يحمل مقاييسه ليفرضها . اما المناظر الأخر فقد كان طرفا عملية اللواط . وفي الخلفية مشهد ثابت وانفعال ميلودرامي .

صحوت من نومي فجأة . جدران الحجرة ذكرتني بأني في السجن . على يميني كان احمد يجلس متربعاً . شاربه الكث ، الذي لم يشذبه ، بدا لي وكأنه ينشق من داخل منخريه ـ على شكل قوس ـ ويواصل الانبثاق لما لا نهاية . طاقتا انفه مضمومتان وكأنه يضمهما في كل عملية الانبثاق المتصلة لشاربه . عيناه ناصعتا البياض ، حادتان ، وكان ذلك جزء من طقس الانبثاق . كانت نظراته مركزة على شيء مايجري على يساري .

اكتشفت ان الذي ايقظني من النوم كان تلك الحركة المستمر التي تخبط جانبي الايسر بايقاع منتظم . التفت الى مصدر الحركة فرأيت الرجل العابس ، الذي يتمدد بجواري ويوليني ظهره . كان هو الذي يهتز . كان ذلك غريباً جداً ، ولد في داخلي احساساً بأن شيء ما مخيفاً وفاجعاً يحدث منذ زمن . حاولت ان انهض . التقت عيناي بعيني احمد ، رأيته يضع سبابته على شفتيه طالباً صمتي . الى متى يستمر ذلك ؟ ولكنه لم يطل . قفز احمد ، اعني وقف وقفز في نفس الوقت وبشكل مباغت ، فتخطاني وهبط على يساري . كان ذلك ـ او على الاقل كما اتصوره في هذه اللحظة ـ مضحكاً جداً ولكنني لم اضحك . كنت خائفاً .

نهضت لأرى مايحدث . كان احمد يهوى بصفعات رنانة على وجه الرجل والرجل يحتضن الصبي من الخلف واضعاً يسراه تحت رأس الصبي ، بينما تقبض يمناه على ردف الصبي . رغم الصفعات مضى الرجل في ايقاعه وغنائه . انحنى احمد وامسك رأس الرجل ورأس الصبي وابعدهما ، ثم داس بحذائه على ذراع الرجل التي تلتف حول عنق الصبي فانفلت جذع الصبي واندفع الى الامام ، ولكنه ظل ملتصقاً بالرجل من وسطه . صاح الصبي

ـ انا في عرضك يابيه ! ابعده عني .

بعض النيام استيقظ واخذ يطالع مايحدث دون تعليق . عندما صرخ الصبي قال احدهم :

ـ يافاجر .

ولكن الصبي كان يحاول جاهداً ان يخلص نفسه من التحام الرجل به ، فلا يوفق . واخذ يقول بصوت شاك :

- سيبني يابن الكلب !

في المثلث الذي يفصل بينهما كان احمد يقف . ارتفعت قدمه ثم اندفعت الى صدر الرجل ، المرة بعد المرة . فجأة انفصل الاثنان . كان المشهد مقززاً : أن ترى ذلك الانفصال ، والعري الجزئي للأثنين . وكان احمد يواصل رفس الرجل في صدره . والرجل يحاول جاهداً استعادة الصبي بذراعه اليمنى . قال الرجل بصوته المختنق الخشن وهو يتلقى الضربات :

- ماتحاسب يافندي .

- قال ذلك وكأنه ينبه احمد الى مضايقة يسببها له ، دون قصد سيء . وكأن عبارة الرجل كانت اشارة البدء . تحوّل احمد الى حركة سريعة ، مباغتة ، والرجل وقد اصبح وجهه دامياً ، لايفعل شيئاً سوى ان يحمي وجهه بكفيه .

كان الصبي واقفاً ، وقد سقط بنطلونه الى كاحليه ، عاري المؤخرة ، يطالع مايحدث بعينين متفحصتين ، وفم نصف مفتوح . التفت اليه احمد ، ثم اقترب منه ، وبدا لي للحظة انه يود معانقته ، ثم رنت صفعة على وجه الصبي ، واحمد يحدّق به بعينين ضيقتين ، ثم دفع سبابته حتى اصبحت قريبة من انف الصبي وقال :

- البس بنطلونك .

قالها كمن يوجّه نصيحة الى طفل . انحنى الصبي ، ورفع بنطلونه واخذ يزرّره ، ثم انحنى رأسه واخذ يزرّر قميصه ويعدّل من وضعه داخل البنطلون. كانت عيناه مسبلتان ، وقد بدا انفه وشفتاه رقيقتان ، مشحونتان بحزن انثوي ، خاضع . كان كإمرأة تعيش حزنها في ظل حاميها . رفع وجهه نحو احمد وقال بصوت باك ، مرتعش .

- كنت نايم بابيه ،وهو . . . .

لاحظت في تلك اللحظة ان الرؤوس قد ارتفعت من وسط بحر النائمين واخذت تراقب مايحدث بصمت وحياد في تلك اللحظة تفتح الباب ودخل اثنان من امناء الشرطة . صاح احدهم

- ايه الدوشة دي ؟ فيه ايه انت وهوه ؟

اتجه الصبي نحوهما وهو يقول بصوت مرتفع .

- والنبي ياشاويش ، كنت نايم والراجل ده هجم علي .

رفع الرجل ذو الوجه الدامي رأسه وقال :

ـ شوفوا ابن القحبة ! عايز يودبني في داهية .

ثم انتبه الى نفسه ، فاخذ يزرّر بنطلونه .

ظل هذا المشهد يتفكك ويعاد تركيبه في خيالي ، الى ان سمعت حركة ابوب فوقي ، وهو يستعد للتوجه الى عمله ، فنمت .

ـ ٤ ـ

في هذا البيت الكبير تعرفت على عصاب ربة البيت . اعني بذلك ، الاحساس الثقيل بانني في معركة دائمة مع القذارة ، ومن اجل المحافظة على نظافة البيت . ووضع كل شيء في مكانه المخصص له جاهزاً لأداء وظيفته .

اكتشفت ان عليّ ان اؤجل القراءة والكتابة ووقت النوم حتى اغسل طبقا او كوب ماء . ويتكرر هذا في اليوم عشرات المرات . تبين لي ان الانسان في البيت يمكنه ان يمضي يومه ، في دورة ابدية ، يلوث الاشياء وينظفها

ان غسل طبق واحد ، مثلاً ، يحتاج الى مجموعة من العمليات بدت لي لانهائية :

تسخين الماء وغسل الطبق بالماء الساخن والصابون السائل . يؤدي ذلك الى اتساخ الحوض والرخامة المجاورة ، ولذا لابد من تنظيفهما من الماء والصابون ثم اكتشف ان أرضية المطبخ قد تلوثت ولابد من مسحها . وعندما انتهي من ذلك أرى ان ملابسي قد ابتلت واتسخت فلا بد من وضعها في طشت الغسيل ، وسكب الماء ومسحوق الصابون فوقها ، وانه لابد من لي من الاستحمام وارتداء ملابس جديدة . وهكذا امضي في عمليات متتالية ، بلا بداية ولا نهاية .

ولاحظت ـ واعجاب كبير بالمرأة يملأني ـ أن كنس البيت ومسحه يكلفني جهداً ، احتاج لأن استريح يوماً كاملاً في السرير بعده ، وانا اعاني آلاماً حقيقية في عضلات ظهري واكتافي . وقد جعلني ذلك اسأل نفسي : أي كائن عريب هي المرأة تقوم بكل هذه الاعمال ، ثم تربي الاطفال وتذهب الى العمل ، ثم تظل رغم ذلك نشيطة ، جميلة وشهية أو أية اكذوبة نخترعها ثم نصدقها ، حين ندعي ان الرجل الذي يذهب صباحاً الى مكتبه ، يسترخي ويشرب الشاي ، ويثرثر مع زملائه هو الذي يشقى ويتعب واي تقسيم غريب للدخل القومي الذي يجعل مجهود المرأة الكبير

بلا مقابل في حين يغدق المال على عدد من البير وقراطيين الكسالى ؟

استمر ذلك فترة من الزمن، ثم قررت فجأة ان ارفض هذا القدر السائي . كان معنى قبوله ان استنزف طاقتي كلها دون فائدة ، ان اتوقف عن القراءة والكتابة الجادتين ، وان اعيش حياة تحت المستوى الانساني . لهذا السبب قبلت زحف القذارة على البيت : حجرة المكتب وقد غطى التراب كراسيها الجلدية ،والمكتب الصغير الذي تكومت فوقه الكتب والاوراق واعقاب السجائر والفناجين التي تحجرت القهوة في قاعها ، وعلى السرير الذي اتسخت ملاياته واصبحت فرشته وكأنها محشوة بالحجارة . كنت دائما ازيح كومة من اوراق الشجر اليابسة . اما الحديقة المهملة فقط هاجت اشجارها وحشائشها وامتلأت بالقواقع والزواحف وراحت تفيض على البيت باغصانها واوراق شجرها وزواحفها وترابها .

جعلني هذا الشعر انني اعيش حياة مؤقتة وسط هذا الخراب لاقوم بعمل ما ، وحين انجزه اخرج الى الحياة والنور والنظافة . من اجل ان اكتب قررت ان اعقد اتفاقا مع الحياة : ان اسالمها واتجنب صراعاتها الصغيرة البائسة .

في عملي تنازلت عن كل مطالبي عدا اثنين : الوقت والعزلة . ولم اكن خاسرا . ففي حين انهمك الكثيرون في تكديس المال والترقي في المناصب . كنت اشعر انهم ينسجون الحبال التي يشنقون بها انفسهم : المزيد من المال والترقي لتنفيذ مشروعات ، بناء بيت ، شراء سيارة ، اثاث للبيت الخ . . . ثم المزيد من العمل الروتيني التافه ، لمواجهة الاحتياجات المتزايدة ، والتذلل ، وفقدان الكرامة ، والخروج نهائيا من مجال العمل المبدع والحياة الحقيقية . ولكنني كنت كثيرا ما اسأل نفسي : الم أدخل انا ايضا في دائرة مفرغة ، تبدأ بالقراءة وتنتهي بالكتابة ، وتكون الحياة فيها مؤجلة ، كنت اعزّي نفسي بان هنالك رصيدا كبيرا من الخبرة الحياتية يحتاج مني الآن صياغة كتابية . غير ان الحياة المشحونة ، التي تكتشف كل يوم عن جديد ، حين تنقطع او تؤجل ، يستيقظ الاحساس بعدم جدوى الكتابة ذاتها . من هنا عزمت خوض تجربة تنفذ الى العمق ، وذلك يعني ، بالنسبة لي ، تجربة مع المرأة . وهكذا كان

ولكن هذا حدثا لم يحن اوانه بعد .



في بعض الاحيان كنت اخرج من هذه الدائرة ولكن الى دائرة اخرى ومغلقة ايضاً . بحثت عن آخرين ، يسمعون مني واسمع منهم ، كنت استغل استعداد ايوب الدائم لمغادرة فاقترح عليه ان نذهب الى فندق دار السلام ، فكان يوافق على الفور .

هنالك دائما بعض المصريين ، بعضهم مقيم بعمل في العراق ، وبعضهم قادم في زيارة سريعة ، تلبية لدعوة رسمية . عدد محدود منهم قد اندمج في الحياة السياسية والاجتماعية على نحو ما ، خاصة ممن يعملون في مجالات الاعلام او التدريس في الجامعة ، واخرون - وهم غالبا يعملون في المجالات المهنية المتخصصة - مازالوا يحملون عن العراق نفس الفكرة التي جاءوا بها من مصر .

يقول احدهم وكأنه يقدم كشفاً لم يسبقه اليه احد : أن العراقيين يعتقدون ان الخمرة تجعل الانسان بطلاً . فالعراقي في البار ، يثني ذراعه ، مبرزاً عضلاته ، ويصيح بالجرسون :

- بوي ، انطيني البطل .

ومهما حاولت اقناعه بان العراقي يقول البُطل لا البَطل فلن يقتنع

اسأله : انت شفت دا بيحصل ؟ يقول : طبعاً ! فاسأله :

- انت متأكد انه بيقول البَطل مش البُطل ؟

يقول : وأيه الفرق ؟ المهم انهم بيعتقدوا ان الخمرة بتخلي الواحد يصير بطل .

يقول ايوب وقد دخلت المسألة في دائرة اختصاصه :

- بُطل ياخوي يعني *bottle* بالانجليزي ، يعني قزازة .

ولكنك لن تجد ابدا اغبى من غبي المصري . فالغبي اكثر الناس ايماناً بالفكرة العامية المصرية التي تقول ان كل من هو غير مصري فهومتخلف عقلياً . وهو ، في الوقت ذاته ، يعتقد انه شديد الذكاء . فيصر صاحبنا على حكايته . وحين يحاول ايوب ان يعيد شرح رأيه يأخذ المصري في السخرية . منه والسخرية من ايوب اصبحت عادة كل المصريين الذين نلقاهم في الفندق .

كان ايوب يجلس صامتاً يصغي باهتمام شديد . فقد تعلم الايشارك في الحديث . فعندما كان يقول شيئاً ، كانت الدهشة تعلو الوجوه لمجرد سماع صوته . والنكتة الدائمة كانت ان ايوب يهمل محدثه والحديث الدائر عندما تدخل امرأة الفندق ، او عندما يرى امرأة تجلس قريباً منا . يظل يحدّق فيها ويغيب تماماً عن الجالسين . يناديه احدهم ، وهو يكتم ضحكة :

ـ ايوب ، سي ايوب !

فلا يسمعه ، ويظل محدّقاً في المرآة . فيمسك كتفه ويهزه صائحاً في اذنه :

ـ حاج ، ياحاج ايوب ! فوق ! اصحى !

فينتبه ويطالع الجميع بعينين واسعتين ، وكأنه استفاق من نومه للتو ويقول :

ـ عفواً ، نعم ياخوي .

فينفجر الجميع ضاحكين .

لذلك ، عندما اصر ايوب ان يحكي للحاضرين ماحدث عصر ذلك اليوم ، انقلبت الحكاية ـ كما توقعت ـ وبالاً عليه . كنا منطلقين ـ ايوب وانا ـ بسيارته في شارع فلسطين . حين وصلنا الى تقاطع توقفنا حتى ينتهي مرور السيارات . ثم بدأنا نتحرك ، واذا بسيارة تندفع من الشارع المعترض ، امام سيل السيارات ، وتتوقف فجأة . سمعت اصطكاك الفرامل بالارض ، كل ذلك والسيارة واقفة تعترض طريقنا . التفت الى ايوب وقال بعصبية : « شايف ليش واقف ؟ الست الماشية هناك ؟ » وبالفعل كانت كتلة حمراء تسير بمحاذاة مجموعة من البيوت ذات الطابق الواحد ، وهي تبعد عنا حوالي كيلومتر على الاقل . كان ايوب يهدر : اتعرف لو ان ذلك حدث في امريكا ؟ اتعرف ماذا كان يفعل شرطي المرور ؟ سوف يسحب رخصة هذا الحيوان ، ويرغمه ان يسير على قدميه . لن يسمح له بقيادة سيارة ، بعد هذا ابداً .

التفت الينا سائق السيارة المعترضة وابتسم ابتسامة جميلة ، ثم انطلق بسيارته في سرعة جنونية . قال لي ايوب بعصبية :

ـ شفت العكروت ؟ ابتسم . الظاهر كان بريد ناخذ له صورة . يمكن بتصور انه دمه خفيف . (تزايد انفعاله بشكل غير طبيعي) كان لازم انزل له وفي ضربة هوك واحدة اخليه يفهم نفسه .

حكى ايوب ذلك للحاضرين بالتفاصيل المملة ، فاصبح موضوع الجلسة .

قال احدهم :

ـ الظاهر ياجماعة ان الايوبزم اصبحت حركة جماهيرية .

شخصت عينا ايوب وعلا الاحمرار وجهه ، وقال : ايوبزم ؟ مش فاهم .

رد عليه : انك انت ايضاً تغيب عن جلستنا عندما ترى امرأة . فقال ايوب :

ـ لكنه كان مخالف للسير .

ـ وقف لأنه عرف انك القائد المؤسس ، علشان يحييك . مش ابتسم لك ؟
ثم صمت المتحدث فجأة * من احد الجالسين
ـ بلاش حكاية القائد المؤسس دي . عايز تخرب بيوتنا .
فقال المتحدث الاول : والله ماكان قصدي . حكيت لوحدها .
لم يستطع ايوب ان يفهم سبب الصمت الذي حل على الجميع . همس لي :
ـ وشو صار ؟
ـ مافيش . الاخوان تذكروا انهم من انصار الايوبزم . بس اسم الجمعية مختلف . عندما قلت ذلك ضحك الجميع ، وقال احدهم لايوب :
ـ ألّفنا جمعية اسمها جمعية الباوعون العرب ، على وزن (المقاولون العرب) ، وقررنا نعملك رئيس لها .

سأل ايوب عن معنى كلمة الباوعين ، فقلت له ، في اللهجة العراقية يباوع تعني ينظر . وعاد الحديث . ويتقدم الليل ، وكل منا يؤجل موعد انصرافه . لم تكن الجلسة مبهجة ، ولكن وحدة وملل لا يطاقان ينتظراننا . ثم ننهض متثائبين ، آملين بنوم سريع .
في امثال هذه الليالي يزداد عذاب ايوب . هل يعود ذلك الى الموقف الهجومي الساخر الذي يتحدّه الأخرون ، ام بسبب وهم العيش لحظات بين البشر ؟ لاادري .
في تلك الليلة . وايوب في اشد حالات توتره ، وددت لو اسأله إن كان قد اخذ بنصيحتي ، ولكنني كنت ضجراً حتى الموت .

ـ ٥ـ

صحوت متأخراً كالعادة . ايوب خرج الى عمله الذي يبدأ في الثامنة صباحاً . ذكرى فرحة رافقت صحوي ، حاولت استعادتها والامساك بها . ماالذي يفرحني ؟ ثم تذكرت . لقد انهيت الكتاب الثاني من رواية « السؤال » استلبت الحركات والمشاهد المكرورة البهجة . اوراق الشجر الجافة نفذت في الليل داخل البيت واستقرت على ارضية حجرة النوم وحجرة المكتب . كان هواء المبردة يحركها حركة بطيئة ، فبدت كائنات حية . طبقة من التراب تكونت في الممر المؤدي من حجرة النوم الى المغسلة . حذاء ايوب مطبوع فوقه ابتداء من قاعدة السلم الداخلي

وانتهاء بالمطبخ . برص يقبع ساكناً في الزاوية المكوّنة من التقاء الجدار مع السقف . تحت المغسلة خط اسود من النمل قادم من مكان مجهول ، وينتهي الى الظلمة التي تكثفت تحت المغسلة .

لم يكن لدي الرغبة ولا القدرة على القيام بحملة تنظيف . كنت اقوم بالحركات اليومية المعتادة التي تعقب الاستيقاظ حتى اواصل احلام اليقظة التي بدأت ساعة صحوي . حملت ادوات الحلاقة ، وفرشة الاسنان والمعجون الى الطابق الاعلى حيث المكان اقل قذارة ، واقل اثارة للاكتئاب . وضعت الادوات على الحوض ونظرت في المرآة ، ففاجأني وجهي . علي ان أعيد صياغته حتى اربل اثر السهر الطويل .

من النافذة بدت بغداد لوحة رائعة . الشمس بكل بهائها تستقر في وسط سماء عميقة الزرقة ، اشجار النخيل تمتد حتى دائرة الافق . اشجار اللارنج والبرتقال تحيط بالبيوت المكونة من طابقين ، والتي تقبع مستكينة في بحر النخيل . مشاتل كثيفة الشجر ، يحيطها سور من الاشجار العقيمة العملاقة ، وخلفها احواض الزهور ، ونباتات عضة في مئات القواوير الفخارية . حديقة عامة بزهورها واشجارها السمينة وطرقاتها الانيقة . كانت بغداد ستاناً حقيقيا ، قطعة من الجنة الشرقية . اما في الخارج ، في قلب هذه الفتنة وتحت شمسها مباشرة ، فانني في جوف نار الله الموقدة ، اعيش اتحاد الجنة بالنار .

بمجرد ان اطفأت المبردة اخذ العرق ينز من جسدي . لمحت بغداد من وراء النافذة بغداد ، كانت لوحة استوائية لجوجان ، بلا نساء ، اوبنساء ممسوحات الملامح ، يختفين داخل عباءات سوداء . دخلت الحمام ووقفت تحت الدوش احلم ببغداد اخرى . بعد الاستحمام اخذت اجفف العرق والماء ، واندرج في سياق غيب بغداد ، فبعد قليل سوف اكون في الخارج

وقفت انتظر الباص . في محاذاة الرصيف الذي اقف عليه تجمعت مياه آسنة. كانت المياه تأتي عبر قنوات صغيرة ، محفورة تحت البوابات الخارجية للبيوت مياه الغسيل والمسح التي لاتكف عن التسرب ، سمراء تطفو فوقها رغوة صابونية ، تعبر لشارع المائل باتجاه الرصيف الذي اقف عليه . هنا ، بمحاذاة الرصيف تتجمع لمياه مكتسبة سطحاً اخضر من العفونة .

بعد نصف ساعة من الانتظار رأيت الباص يلتف من ساحة الطبقجلي متجهاً

نحوي . كان الخريف يفسخني كأنه حمى داخلية . فاشعر بجسدي ثقيلا كالرصاص وصل الباص ، وعند ماأخذت اتهيأ للركوب صاح الجابي الذي كان يقف بالباب
- مقبّط بابه .
رجل بجواري كان ينتظر الباص قال بغيظ :
- قز القرط !
قلت ، وانا في حالة هذيان ، للرجل :
- قز املك .
التفت الرجل نحوي وقال :
- بلي ؟
- ماكوشي .
قلت ، وعدت الى الانتظار . . . انتظار طويل قد يمتد ساعة كاملة . اغوتني سيارة اجرة فركبتها ! . سارت بي عبر شارع بلال الحبشي ، عبر بحر من النخيل وشجر اللارنج ، والبيوت البيضاء الصغيرة . شاهدت نساء بعباءات سوداء ، تغطي الجسد من قمة الرأس الى القدم ، ووجوه بللها العرق . يحملن اكياس نايلون ملونة أرى وراء شفافيتها خبزا وخضارا حمراء وخضراء ولحما كان ذلك نتيجة لوقوف ساعات طويلة في طوابير الجمعيات الاستهلاكية ، والافران ، والدكاكين الصغيرة . شاهدت رجالا يلبسون كوفيات منقطة وعقل غليظة ، ثم وجوه مكدودة ضامرة ، بدت لي كالاقنعة .
انحرفت السيارة يمينا ، فخرجنا من بحر النخيل ، ودخلنا في جو خال من الاشجار والظل . اصبحنا في الشارع الجمهوري . الهواء القادم من شباك السيارة المفتوح يأتي لاسعا ، عنيفا كلسان ناري يلعق الوجه بشراسة .
امام العيادة الشعبية تقف عشرات الوجوه المتعبة بصمت ، الضارعة بصمت تنتظر . نساء بعباءات سوداء ، رجال بكوفيات وعقل ، اطفال سمر معلّقون على الصدور ، اطفال دارجون بين الاقدام ، او واقفون في صمت كالتماثيل بعيون سوداء ، واسعة ، حزينة ، الى جوار امهاتهم . كلهم ينتظر في جحيم بغداد الملتهب . واعيش للحظات - وانا أكاد اختنق - كوابيس طوابير الانتظار : طابور يمتد من داخل الفرن الى الرصيف ، الى الشارع ، وانا اتفسّخ واذوب بالحرارة المنبعثة من الفرن المشتعل . وعندما اصل الى بائع الخبز يقول لي .

- عيني - ماكو صحون . . !

فانصرف ملتاثاً بالحر والخيبة . . طوابير طويلة لشراء كيلو طماطم ، او خيار ، اكتشف بعد شرائه انه لا يصلح للأكل ؛ طوابير في داخل الاورزدي باك لشراء علبة سجاير او استكانات لشرب الشاي . . طوابير ، طوابير ، لاتنتهي ابداً وكأنها تتولد

وتواصل السيارة اندفاعها في شارع عريض يمتد لما لا نهاية . ولما لانهاية تتكرر « امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » مكتوبة بخط اخضر بارز فوق ارضية من الزجاج الصيني الابيض ، معلقة على شرفات وفوق بوابات دوائر حكومية ، ومؤسسات غامضة ، وعمارات سكينة ، ومطاعم كباب ومحلات بيع الشربت . بداية الوزيرية . صورة كبيرة لرئيس الجمهورية يبتسم بادب ، مكتوب تحتها « الرئيس احمد حسن البكر مثال رائع للمناضل البعثي » - صورة اخرى لنائب رئيس الجمهورية وهو عابس يرتدي ملابس عسكرية ، مزينة بنياشين كثيرة . صورة اخرى لرئيس الجمهورية ونائبه ، الرئيس يبتسم برقة ونائبه يضحك .

على يميني الأن المجمع العلمي الكردي . بناء كابي الصفرة يكاد يكون مكعباً . تقتحم وقاره الثقيل الالوان البراقة للوحة « امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » . ثم تتوالى الصوز والاعلانات : نائب رئيس الجمهرية يلقي نظرة جانبية وقد مال وجهه ميلاً خفيفاً الى اليسار ، فريد شوقي وزيزي البدراوي على لوحة كبيرة الحجم في اعلان عن فلم جديد ، لوحة تحمل عبارة « مشروع اسالة المياه » ، اعلان كبير الحجم عن عرض مسرحية بريخت « جاليلو » قرب مدخل اكاديمية الفنون . . يقول يبدأ العرض . . ولا استطيع قراءة التاريخ .

نمرق تحت الجسر الحديدي . « امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » « وحدة حرية اشتراكية » معلقتان فوق دار الجماهير . تزاحم السيارة وتناور ، وهدفنا ساحة باب المعظم . زحام هائل . آلاف يقفون بانتظار باصات تنقلهم الى اماكن متفرقة في المدينة . تجيء الباصات وتمضي ويظل الزحام على حاله .

شحاذ يجلس على الرصيف ، متكئاً بظهره على الجدار . يفرش منديلاً على الارض امامه ، وقد تكومت فوق المنديل قطع معدنية مختلفة الاحجام . كان يطالع الفضاء بعينين مطفأتين ، محدّقتين . ويصرخ بين الحين والأخر : الله ومحمد وعلي . عجوز نحيلة ، مستقيمة كالعصا ، تسير واضعة عباءتها فوق رأسها ، تاركة ابياها تنسدل حتى حذاءها ، دون ان تمسك بطرفيها . من فتحة العباءة يظهر جسدها

ملفوفا بثوب ازرق ، بلا اثداء ولا بروزات . تسير كالرجال مستقيمة دون ان تتثنى ، وتضع سيجارة مشتعلة بين سبابتها واصبعها الاوسط ، تنفث دخانها من انفها ، وتلقي نظرة عكره ، حجرية على الشارع .

اوقفت السيارة قبل استدارة الساحة ، وواصلت سيري ماشياً . توقفت في انتظار اشارة عبور المشاة ، ولم اشارك السائرين مناوراتهم الجسورة لعبور الشارع ، وسط اصطكاك الفرامل ، وشتائم السائقين . انفتحت اشارة المرور ، ولكن سيارة فولفو مرقت مسرعة كالسهم بين العابرين . قوانين المرور يحترمها الضعفاء فقط . في الطرف الأخر من الساحة يجلس بائع السجائر الوقور المقطوع الساقين على الارض . امام سجايره . اسأله :

ـ اكو رونهان عندك ؟

ينصرف الى تنسيق السجاير دون ان يرد . بعد قليل يرفع رأسه ويقول : ماكو كان كبير الرأس ، عريض الوجه ، ذا تقاطيع عابسة ، صارمة . اتخطاه واواصل السير في الشارع الجمهوري ، بمحاذاة حي شعبي يقع على يميني . اعبر سور المكتبة الوطنية الى الساحة الخلفية حيث تقف سيارات كبار المسئولين . حين التفت الى اليمين كان بامكاني ان ارى احشاء الحي الشعبي .

الحي الشعبي هذا كان جزءا من احد المباغي العامة في الخمسينات . والآن وقد اقتطعت منه المساحة الواسعة ، التي تحتلها المكتبة الوطنية ، واستولى الشارع الجمهوري على جزء آخر ، ضاق الحي حتى بدا كديكور مسرحية ، يحاول ـ اي الديكور ـ ان يوحي بملامح حي شعبي . تتجسد تلك الملامح في الشناشيل التي تحت نوافذ الطابق الاعلى وفي ابواب البيوت المطلة على الساحة الصغيرة ، الخالية . تهبط درجتين تحت مستوى سطح الارض فتصبح امام الباب . وحين ينفتح الباب ترى امامك ستارة مزركشة تحجب مدخل البيت ، ووراءها . عتمة وحركة خافته . الستارة المزركشة ، والبيت الهابط تحت سطح الارض والعتمة تملأ المراقب بحس اغواء انثوي عريق .

كنت اراقب هذا الحي من نوافذ الادوار العليا للمكتبة الوطنية . كان يدهشني دقة احجام بيوته وتلاصقها ، وتداخلها احياناً ، حتى ليصعب من هذا العلو تحديدها . وكأن هذا الحي يصر على التشبه بالمسرح ، فما ان يبدأ الشجار بين النساء (وهو يبدأ فجأة ودون سبب واضح) فتنطلق الشتائم مدّوية مدغمة لتعلو على ضجة

الشارع الجمهوري ، ويتوافد الاطفال والنساء من مسارب مبهمة ويتجمعون في الساحة - ضاربين نطاقاً حول المتشاجرات . كان ذلك بالنسبة لي يشبه مشاهدة عرض مسرحي من الشرفات العليا للمسرح .

تزدحم الساحة ، وتتعالى الاصوات الزاعقة ، وتقوم مشاجرات نسائية في اماكن متفرقة من الجمع . غريبة مشاجرات النساء . تمسك كل واحدة بشعر خصمتها ، فتقترب الرؤوس ، فتعتقد ان المسألة لا تعدو جذب الشعر . ولكنهن ، عندما ينفصلن تجد جروحاً ودماء على الوجوه ، فتتساءل : كيف تم ذلك واليدان منشغلتان بشد الشعر ؟

ثم يتوافد الرجال - لا تعرف من اين جاءوا - وتسود اصواتهم الحلقية الخشنة حركاتهم البطيئة توحي انهم عاجزون عن فعل أي شيء امام دينامية النساء المتفجرة . ولكن العراك يتوقف ، والحشد يتلاشى ببطء . ولن تستطيع ، مهما حاولت ، ومهما اجهدت نفسك في الاصغاء ان تعرف سبباً لبدء العراك او سبباً لانتهائه .

اسير الآن في موازاة قلب الحي . لمحة من الشارع الضيق ، النظيف ، الذي يتخلل الحي ، ويتوه في عمقه بغموض ، ولّد في داخلي شوقاً لبغداد اخرى : بغداد الخمسينات الملفعة بضباب عصر عباسي .

اواصل المسير . ادور حول مبنى المكتبة ، فاصل الى مدخلها المواجه لوزارة الدفاع . على يساري مكتبة المجلات . ستارة سمنية اللون تغطي واجهتها الزجاجية ، خلف الباب الزجاجي ارى احدى الموظفات جالسة الى مكتب المنوم ، رمادي اللون . اطالع وجهها الناظر نحوي عبر الزجاج . المكياج ثقيل واعلم بخبرتي انه غير متقن . ابتسم لها ، واهز رأسي .

افكر في الدخول ، والقاء نظرة سريعة على الصحف العربية والاجنبية المتيسرة . ولكن شعوراً بالذنب يستحثني للاسراع . فقد بلغت الساعة العاشرة والنصف تقريباً

- ٦ -

صعدت الى الطابق الاول من المكتبة الوطنية . كنت اقاوم الجو البارد في الداخل بحركتي السريعة . واجهات زجاجية تمتد على يساري الى نهاية الممر .

انحرف يساراً الى الممر التالي . واجهات زجاجية على يميني وعلى يساري . الحجرات التي تضم فتيات وضعت على واجهاتها صفائح كرتون سوداء ، بارتفاع متر عن الارض وبعرض متر فوق ذلك . حين اجلس في حجرتي المواجهة فمن ارى من الفتاة ساقيها وجزءاً من عجيزتها . اقول بأسى انني احد اسباب هذا الاجراء . فمن الفتيات العاملات في ارشيف المكتبة ، الجالسات في الحجرة المواجهة لحجرتي ، حصلت على الكثير من الكتب الهامة . كنت اكتب دراسة عن الفيلسوف المعتزلي ابراهيم بن سيار النظّام ؛ وكانت المكتبة تحتوي على عدد من المراجع الهامة .

يبدو ان مدير المكتبة شاهدني وانا اكلم احدى الفتيات ، اوربما بسبب وشاية ، صدر ذلك الاجراء الغريب . ففي احد الايام ناديت احدى الفتيات فجاءت . تلفتت يميناً ويساراً قبل ان تدخل ، ثم اقتربت مني وهمست :

ـ ماكو كتب .

قلت مندهشاً :

ـ اش دعوه ؟ اش صار ؟ زعلانة مني ؟

ابتسمت وقالت :

ـ انت حباب لويش ازعل منك ؟ امر المدير عيني .

حاولت ان اعرف منها السبب فاكتفت بالقول انها لاتعرف . وعندما الححت اشارت بسبابتها الي وقالت :

ـ ممنوع على ولْد الثقافة يحچوا وايا بنات المكتبة .

في محاولة منها لتقليد اسلوب مدير المكتبة في الكلام . ثم خرجت مسرعة من الحجرة وايضاحاً للمسألة ، فان وجود المجلة التي اعمل فيها ، في مبنى المكتبة الوطنية كان مؤقتاً بسبب عدم توفر مقر لها . اما اطلاق صفة « ولْد الثقافة » على العاملين في المجلة فلم يكن دقيقاً ؛ اذ اننا جميعاً ـ المكتبة والمجلات والتأليف والنشر الخ . . . . ـ تابعون لادارة الثقافة ، وبالتالي من ولْد الثقافة . ولكنها صفة اختصصنا بها وحدنا وشاعت .

المهم ، ان تصرف الفتاة وحديثها ادهشاني فذهبت الى مكتب مدير المكتبة اسأله عن السبب ؛ فلم يفدني في شيء . دخلت حجرة السكرتيرات فرأيته واقف هنالك . ماان رآني وجهه الابيض الشاحب احمر كالطماطم الناضجة احمرّت حتى اذناه . واخذ يرحب بي بحرارة . عندما استدرت لانظر الى احدى الفتيات ، وقد

اعتقدت انها تكلمني ، حتى ازداد احمرارا واخذت عينه اليسرى تختلج . اما الفتيات فقد اخذن يتبادلن النظرات ثم ينفجرن بالضحك كان المدير يحاول ان يجيبني على سؤالي ، عن سبب منعي من استعارة الكتب ، ولكن كلامه كان غمغمة غير مفهومة ، وبدا وكأنه يجد صعوبة في ابتلاع شيء ما . تزايد ضحك الفتيات بعضهن وضعن رؤوسهن فوق المكتب واخذت اكتافهن ترقص بالضحك المكتوم . فتاة اخفت وجهها بيديها واخذت دموع الضحك تبلل انفها وطرفي فمها . حاول المدير اسكاتهن بنظرات غاضبة مخيفة ، ولكن ذلك كان باعثاً على ضحك اشد ، كما يحدث في الافلام الكوميدية .

كان الموقف مستحيلاً ، وخاصة عندما تصاعدت محاولات المدير في ابتلاع ذلك الشيء الذي يقف في حلقه ، فخرجت وعدت الى حجرتي حائراً .

قبل انتهاء الدوام بقليل زارني احد الزملاء . كان رجلاً متزناً ، ويتحدث باللغة العربية مع غير العراقيين . واخذ يشرح سبب اجراء مدير المكتبة . قال ان مدير المكتبة لاحظ انني اطيل النظر الى الفتيات ، قلت ان ذلك لاحيلة لي فيه ، فعندما ارفع رأسي اجد حجرة الفتيات في مجال نظري . واما الحديث معهن فهو مقصور على طلب الكتب التي احتاجها . هل تريدني ان لاارفع رأسي ؟

ضحك وقال :

- ارفع رأسك ياأخي فلقد مضى عهد الاستعباد . كلمات عبد الناصر .

وضحك مرة اخرى ثم اضاف :

- مدير المكتبة لايحب ان ينظر احد الى الفتيات او ان يكلمهن .

قلت :

- ولكن المدير يحتجز ست فتيات في حجرة ضيقة ملاصقة لمكتبه وكلما دخلت وجدته واقفاً بينهن .

فقال الزميل :

- المدير مسيحي ، كما تعرف ، وهو يحتجز الفتيات المسيحيات فقط .

- بدون شغل .

- اعلم ذلك .

قلت :

- انا اكلم الفتيات الاخريات لاالمسيحيات .

فقال ان مدير المكتبة غيور جدا على كل النساء . قلت :

- ولكني لم اقتحم عليه مكان حريمة الفتيات اللواتي كلهن يقمن بخدمة عامة ، ومن حقي التمتع بها .

في اليوم التالي طلبت مقابلة المدير العام لدائرة الشئون الثقافية . ادخلني السكرتير الى مكتبه على الفور ، وبدا واضحاً انه على علم بسبب زيارتي . كان المدير صغير الحجم ، دقيق الاطراف ، وجافاً . بدا شعره وكأنه شعر مستعار قد الصق بجمجمته . كان مصبوغاً بلون اسود فاحم . في جبينه وصدغيه وعلى ظاهر يده تبرز شرايين خضراء ؛ وفي حركاته استرخاء ، وفي حديثه رقة وتنغيم للكلمات ، خاصة حروف العلة فيها ، التي يمطها وينغمها حتى يبدو وكأنه يغني . استقبلني واقفاً . صافحني وهو يقول :

- وشلوونك استااذ غالب ؟ وشلون صحتك ؟ إن شاء الله مرتاح !

قلت :

- زين . تمام .

واحسست بعبارتي قاطعة ، جافة في مواجهة ميلودية المدير فاضفت :

- شلونك انت ؟

وبتنغيم مستحيل اخذ يردد :

- ياهلا يامرحبا ، ياهلا يامرحبا . . .

وهكذا المالا نهاية .

دق الجرس وجاء الفراش العجوز :

- شايين ياولد ! ·

وبغنج غريب مال نحوي مردداً :

- اهلا استاذ غالب ، اهلا . . .

- اهلاً بيك .

في تلك اللحظة هاجني الضحك فقاومته بصعوبة ، اذ تذكرت ماقاله لي احد المسئولين ، الذي يكن عداوة للمدير العام : ان كل امجاد هذا المدير انه شارك في اغتيال عبد الكريم قاسم على النحو التالي : لقد صدر اليه الامر ان يرتدي ملابس النساء ، وان يقف قرب المكان المقرر للاغتيال . ثم عليه بعد اطلاق الرصاص على

قاسم مباشرة ان يصرخ بصوت نسائي ، عالٍ وواضح :
- واويلاه ! الشيوعيين كتلوا الزعيم . . . !
وقال لي ذلك المسئول : تصور ، انه حتى هذا الدور لم يقم به . فلقد انصرف بعد اطلاق الرصاص بعباءته واقراطه الذهبية دون ان يطلق ولولة واحدة .
حتى لايستمر في الترحيب لمالا نهاية ، قلت :
- استاذ عايز اكلم سيادتك في موضوع اعتقد انه مهم . مدير المكتبة منعني من استعارة الكتب ، وانا احتاج اليها لدراسة هامة . عمل هذا لسبب لااعرفه .
اغرق المدير في الضحك ، برقة منضبطة ، ونعومة ذات ايقاع ، وقال :
- استاذ غالب . .
ولكن الضحك - الذي بدا لي مفتعلاً - منعه من الاستمرار بقيت صامتاً ، مبتسماً حتى انتهى . اخرج علبة الروثمان . قدم لي سيجارة وتناول اخرى . اشعلنا سجارتينا وسادت فترة صمت . بدا المدير حزيناً وهو يراقب دخان سجارته ثم اخذ يتكلم بنبرة شاكية . قال ، قد لاتعلم ان المدير اصيب بصدمة عصبية خلال ثورة ١٩٦٣ . قلت :
- لاحول ولاقوة الا بالله . لكن استاذ ، ماعلاقة هذا بموضوعنا ؟
- علاقة وثيقة جداً استاذ .
صمت قليلاً ثم قال وهو يتنهد بأسى ان مدير المكتبة اصبح ، بعد الصدمة ، غيوراً جداً .
سألته :
- على كل النساء ؟
فهز رأسه مرات عديدة بوقار وحزن وقال :
- بلى استاذ ، على كل النساء ،
- والعمل استاذ ؟
- مثل' مادا تشوف .
صمتنا ندخن . ثم قلت دون ان اقصد اللبس :
- ماكو علاج استاذ ؟
قال المدير ان الدولة ارسلته الى امريكا للعلاج وتحسنت حالته ولكن غيرته زادت . اوضحت للمدير العام انني لم اكن اتحدث عن علاج مدير المكتبة ، بل عن

علاج الموضـوع الذي جئت من اجله . فقال ، ان الحل هو ان احصل على الكتب بالاسلوب التالي : ان اخرج من دائرة الثقافة ، واصعد الى المكتبة من السلم الخاص بالمتعاملين مع المكتبة من الخارج . سوف اجد ان الذين يتلقون طلبات الاستعارة ذكور ، وكذلك الذين يأتون الي بالكتاب . فاستعير الكتاب واجلس في القاعة المخصصة للقراءة .

شرحت له ان ذلك مستحيل . اولاً ، انا اعمل في دائرة الشئون الثقافية ، فكيف اتظاهر بانني اتعامل معها من الخارج ؟ كيف استطيع ، ثانياً : ان انقل كتبي واوراقي كلها واعيدها في كل مرة ؟ ثالثاً ، ماذا عن عملي في المجلة ؟ انني احاول التوفيق بين عملي الخاص وعملي في المجلة ، فهل اتخلى عن عملي في المجلة ؛ ولماذا يكون لغيرة مدير المكتبة كل هذا الاعتبار ولاتؤخذ هذه الامور كلها في عين الاعتبار ؟ قال المدير بعد ان اصغى الي بانتباه ان لاحل الا هذا ، والدعاء لمدير المكتبة بالشفاء . فغادرته وانا محتقن بالغيظ .

حدث هذا يوم الاربعاء ، اعني لقائي مع المدير العام . مر يوم الخميس دون ان يحدث شيء ، ويوم الجمعة كان يوم عطلتنا الاسبوعية . يوم السبت جئت متأخراً اكثر من المعتاد - بعد الساعة الحادية عشرة . فاجأتني صفائح الكرتون السوداء ، تمتد على ارتفاع متر عن الارض ، تغطي الحجرات التي يوجد فيها فتيات تابعة للمكتبة الوطنية .

اعتقدت في البداية انها موضوعة بمناسبة عيد ما ، من تلك الاعياد التي لاتنتهي . يوم او يومان وتزال . ولكن ذلك الكابوس الاسود ، ذلك الليل الابدي ، استمر عبر الايام والسنين .

كانت صفائح تحمل صوراً عجيبة . ذات الوان حمراء وصفراء وخضراء صارخة . كانت الصور ذات طابع وجو صينيين : وجوه حمراء ، مدوره كأنها كرة ، لها عيون جاحظة . العين ذات جفن عريض ، مزخرف بدوائر ذهبية تقوم مقام الرموش والحواجب . والاذن كانت على شكل قرن اصفر لولبي.كان هنالك صورة لتنين له لون فسفوري اصفر ، تندفع النيران القاتمة الحمرة من فمه . ومن منخريه تندفع طلقات زاهية الحمرة متتابعة ، تشكل قوساً ، وتنتهي الى مشهد غائم ، يسيطر عليه اللونان الاسود والرمادي .

هل قلت « وتنتهي الى مشهد غائم » ؟ كم انا مخطيء ! لقد نفذت تلك البقعة الى اعماقي . فبمجرد ان تلمحها عيناي كنت اشعر بتوتر يدفعني دفعاً لأن ابعد بصري عنها .

- ٧ -

السور الكرتوني انهى ، ايضا ، علاقة حب ، من الجدارين الزجاجيين لحجرتين كانت عيونا تتلاقى . كانت تسوّي جلستها بحيث تستطيع عيون ان تلتقي .

الحوار بين عيوننا كان فقيراً ، غير انه اصبح لاغنى لي عنه . استغرق في القراءة او الكتابة بين الحين والحين ارفع رأسي تلتقي عيوننا على الفور . ادقق النظر في العينين واجاهد ان اقرأ ما تقولان . لاتقولان شيئاً ، وكأنهما تنظران الى شيء خلفي وانا اعترض بين العينين ذلك الشيء .

وعيني ؟ ماذا كانت تقولان ؟ لاادري . إن كانتا تعبران فعلاً عن مشاعر فانهما كانت تطرحان سؤ الأ ملحاً ، نهماً ، ملهوفاً ، تطرحانه بلجاجة ، وبصيحة مختنقة ما معنى هذا ؟ وماذا بعد ؟ الانقترب خطوة واحدة ؟

• لاشيء غير ذلك . عينان مشعتان بالضوء حد افتقاد التفاصيل ، تلتقيان بعيني ، ولاتقولان شيئاً . رغم ذلك ، فقد احتلت العينان النقطة المركزية ، المتوهجة في يومي . ذلك التوتر والتركيز اللذان اشحن بهما عيني ، لألقي اسئلتي اللجوجة ، التي لاتنال سوى اجابات مبهمة ، هما اللحظات الرائعة في يومي الثقيل .

في الصباح ، تدفعني الرغبة الى استعادة تلك اللحظات المتوهجة الى الاستعجال حتى بالتفاؤ ل يوهمني ان يومي هذ سوف يكون مختلفا . عندما يتأخر الباص ، وهو حتماً سيتأخر ، اركب سيارة اجرة . اهبط منه واخترق الحي الشعبي مسرعا ، واصعد سلم المكتبة لاهثا ، عرقاناً . يمر في مجال رؤ يتي الجالسون وراء المكاتب ، خلف الجدران الزجاجية كأنهم ركاب قطار مسرع . وبمجرد ان اصل الى بداية الممر ، المؤدي الى حجرتي يرتفع رأسها الذهبي ، تتابعني عيناها الذهبيان في خطواتي الى ان ادخل حجرتي . ويبدأ نهاري ـ وكأن ذلك يحدث للمرة الأولى ـ وان عازم على جعل العينين تنطقان وان أصل الى نتائج محددة . احلام اليقظة ، والقرارات التي اتخذتها خلالها ، تلح علي الى حد المجازفة . لامجال للتردد هذه المرة ، اقول لنفسي اجلس خلف مكتبي العينان عليّ ثابتتان ـ لاتتحولان . ابدأ الحوار بنفاذ صبر . اسأل واسأل ـ والحّ في سؤ الي ـ والضوء في عينيها يشع بهدوء

راقبته من الخلف وهو يمشي . رغم ان كعب حذائه يبلغ حوالي تسعة سنتيمترات ، فقد كان قصيراً جداً ونحيلاً ، يسير متصلباً وهو يدق الارض بحذائه ، فكان اشبه بحصان قزم .

كانت الاشاعات قد ترددت ـ وفي كل اشاعة في بغداد بذرة من الحقيقة ان تحقيقاً حزبياً جرى مع المدير ، وان هنالك قراراً بابعاده عن منصبه . وسبب ذلك ـ كما اشيع ـ ان المدير استدعى فتاة ، ثم كمن لها قرب الباب . وعندما دخلت الحجرة فاجأها واحتضنها من الخلف ، واخذ يقبل عنقها ، فصرخت . ثم قدمت شكوى ضده . قيل ان المدير اصرّ ان الشكوى كيدية ، فللفتاة اقارب شيوعيين ، وكراهية الشيوعيين له معروفة ، وكذلك كراهيته لهم وقيل ، ايضاً ، ان المدير صرخ امام المحققين بغضب :

ـ وهكذا يكون الشيوعيون قد حاكموني مرتين . مرة تحت حكم قاسم ومرة اخرى تحت حكم حزب البعث الذي انتمي اليه .

ورغم ان التاريخ يكرّس امثال هذه العبارات ، ويحيطهابالاجلال ، وانها كثيراً ماتحول المواقف الخاسرة الى نصر فيه شبهة الخلود ؛ ولكن يبدو ان صرخة الفتاة قد اجتذبت البعض ، فشاهدوا المدير وهو يحتضن الفتاة من الخلف ، ويضع كفه على فمها ؛ غير ان صراخها كان يتسلل من بين اصابعه وقال الشهود ان الفتاة حررت فمها من كفه وواصلت صراخها القوي النافذ . وقد شهد هؤلاء ضد المدير امام لجنة التحقيق ، اما انصار المدير فقد اخذوا يتساءلون بذكاء : لماذا حررت الفتاة فمها ولم تحرر جسدها كله منه ؟ وقالوا ان المدير ضعيف البنية والفتاة تتمتع بصحة جيدة وعضلات فكيف استسلمت له وهو يحتضنها من الخلف ؟ ومن خلال اسئلة كهذه كانوا يؤكدون ان الشكوى كيدية .

وترددت اشاعات اخرى ، الاغلب ، انها قيلت بقصد النكتة ، فصدقها البعض وروّج لها ، من ذلك ان المدير قد استقبل الفتاة وقد خلع ملابسه ؛ او انها دخلت ، فلقيته يجلس خلف مكتبه ، وهو يرتدي ملابسه كاملة ، ولكن عندما اقتربت منه اكتشف ان الجزء الاسفل من المدير كان عارياً تماماً . المهم ان المدير العام اختفى من الدائرة وان مديراً آخر حلّ مكانه ؛ وان هذا الاخير جاء من احدى الادارات الغامضة ، وقيل انه سوف يعود اليها . وقد علمت ان هذا المدير كان شيوعياً سابقاً ، ثم انضم الى حزب البعث في السبعينات ، واصبح فجأة من اشد

المتعصبين لافكار الحزب ومن المغالين في عدائهم للماركسية . يقال انه مرة قابل احد معارفه ولامه لأنه كتب مقالاً في احدى الصحف عن مدام كوري . قال له : « لماذا لم تكتب مقالاً عن الخنساء بدلاً من الكتابة عن امرأة شيوعية . » ولااعلم ماانتهت اليه هذه المناقشة ، ولكن قيل ان استاذ الفيزياء الجامعي هذا قد تم نقله الى معلم اطفال ، في قرية في جنوب العراق .

حين دخلت رأيت ان بعض الزملاء قد سبقوني . الاكتشاف الحقيقي كان المدير العام ذاته . كان ممتلئاً ، ذلك الامتلاء الذي تتسم به الاجساد العضلية القوية ، المتماسكة . رأسه مربع ، ووجهه يفيض بالحيوية والمرح . استقبلني واقفاً ، ضاحكاً ، وقال :

ـ الرجال العظام يأتون دائماً متأخرين !

وصافحني . لم يكن يلومني ، بل كان يستجيب لفيض مرحه ، جلس واخذ يتحدث . قال ان هذا الاجتماع للتعارف وابداء النصح . ثم اضاف قائلاً ، انه ـ صراحة ـ غير راض عن المجلة ، اذ تنقصها الحيوية والعمق . احببت قوله ، فقلت ان ذلك صحيح . قال :

ـ متفق واياي ؟

قلت بالطبع . ان معظم المواد دون مستوى النشر ، وتنشر امابسبب علاقات خاصة بهدف تبادل المنافع ، اوبسبب اوامر غامضة تأتي من جهات مجهولة . اننا ، بصراحة ، نفاجأ بالمواد المنشورة ، لأننا لم نطلع عليها ، ولم نقرها .

اندهشت لأن ماقلته لم ينل استحسان المدير العام . اصغى الي وهو مقطب ثم توجه بحديثه الى الآخرين . قال :

ـ لماذا لم تفكروا باصدار عدد خاص عن البيان السياسي للمؤتمر القطري الثامن للحزب ؟ دراسات شاملة عنه تكشف . . .

لاحظت ان الجميع قد فوجئوا ، ولكنهم اختاروا الايعلقوا بشيء . اكتفوا باحناء رؤوسهم . قاطعت المدير قبل ان يتم كلامه ، وقلت :

ـ بس المجلة ادبية .

احنى رأسه وحدّق في وجهي ثم قال ببطء ، دون ان تغادر نظراته وجهي :

ـ البيان السياسي فيه جانب ادبي كبير . موافق ؟

قلت :

ـ مش موافق .

قال بعصبية كشفت عن وجهه الآخر :

ـ مش موافق ، يعني شنهو ؟ تريد تقول ان البيان السياسي ماله قيمة ؟

كان واضحاً انه يهددني . قلت ، ان له قيمة بالطبع . ولكنها ليست قيمة ادبية . يعني ، مثلاً ، قد تكون نظرية النسبية لاينشتاين عملاً فيزيائياً عبقرياً ، بل هي كذلك بالفعل ، ولكن هل يمكن دراستها باعتبارها رواية ؟

قال :

ـ إش دعوه استاذ نقيت اينشتاين اليهودي ؟ ايه نسيت انك ماركسي ، وماركس يهودي .

واخذ يضحك ليزيل الحدة من كلامه ، عندها ادركت مدى حكمة زملائي حين اختاروا الصمت . اذ لم يكن هنالك جدوى من النقاش.وقدّرت ان المدير كان يريدنا ان نصل الى هذه النتيجة ، وهي ان نشعر ان لاجدوى من مناقشته .

عندما خرجنا لم ينظر إحد منا الى الآخر ، اويعلق على الحديث الذي دار . لااحد منا اخذ ماقاله المدير مأخذ الجد ، فما داعي الحديث والنقاش ، خاصة ونحن نعلم ان مايقال يصل الى اسماع المسئولين من خلال مسارب يصعب تحديدها .

ـ ٩ ـ

على عكس توقعي ، مر الوقت سريعاً ، كأنه غافلني ، ووضعني في قلب الموقف دون ان اتهيأ له . جلست في الباص بجوار سهام ـ وقد تم كل شيء باسرع واسهل مما تصورت ـ وانا اعاني ذلك الخوف اليائس ، الذي يجعلني قادراً على المجازفة دون تردد . لم يعد هنالك مايمنعني من تنفيذ ماعزمت عليه ، فكل شيء سار بشكل طبيعي . غير انني كنت اشعر ان هنالك خطأ ما ، نقصاً في الاعداد للمسألة لم استطع تحديده .

انطلق بنا الباص من ميدان المعظم ، وقد منعني التوتر من توجيه كلمة واحدة اليها . كنت ، خلال سير الباص بنا اتجنب الالتصاق بها ، وحركة السيارة تدفعني الى ذلك دفعا حين يدور في المنحنيات . وفي حين كانت هي تسمح لكتفها ان يلتصق

بكتفي في المنحنيات ، دون ان تبذل مجهوداً لمنع ذلك ، كنت اجلس منصلباً ، ممسكا بيدي الاثنتين بالمقعد الذي امامي .

يبدو انني كنت مرتبكاً اكثر مما كنت اتصور . فعندما اقترب الجابي مني ، رأيتني اخرج الورقة التي كنت انوي اعطاءها لسهام واضعها في يد الجابي . نظر الجابي الى الورقة التي طويت عدة مرات فاصبحت صغيرة الحجم ، وعلى وجهه تعبير دهشة وتساؤل ، وحاول ان يفتحها . ولكنني خطفتها من يده ، ومددت له درهماً بدلاً منها ، وقلت :

ـ بطاقتين .

نزع البطاقتين ومدهما لي ، ومعهما الفلوس العشرة المتبقية . لاحظت ان سهام تبتسم دون ان تنظر الي (أتسخر مني ام تبتسم تواطؤاً ؟) . جذب انتباهي في تلك اللحظة انها لم تحاول ان تخرج فلوساً ثمناً للبطاقة ، وكأنها اقرت بانني سوف ادفع عنها ، وبان ما بيننا يسمح بذلك .

وضعت البطاقة والرسالة في يدها ، فتناولتهما بشكل طبيعي تماماً ، ووضعتهما في الجيب الصغير لقميصها ، الذي يعلو ثديها الايسر ، ثم التفت الي وقالت :

ـ مرسي .

ثم ادارت وجهها الى الشباك وابتسامة خفيفة ، لا تكاد تلحظ على شفتيها خطر لي فجأة : انها قالت كلمة لا تستعمل في العراق « مرسي » ، أتكون مصرية ؟ ولكن هل يعقل ذلك ؟

وقف الباص في المحطة التي تنزل فيها عادة ، فنهضت وقالت :

ـ في امان الله .

ـ في امان الله .

حاذرت بجهد حقيقي ان اجعل عيني تلتقي بعينيها وهي تواجهني في هبوطها من الطابق الثاني للباص الى الطابق الاول . ولكن المرح المنضبط في وجهها ، تلك الابتسامة الداخلية التي تشع بتلقائية ، كانا رسالة شديدة الوضوح .

اكتشفت انها ليست من النوع الذي يخاف الآخرين ، او يهتم بمراعاة التقاليد الاجتماعية . فاجأني ذلك واخافني قليلاً . في صباح اليوم التالي دخلت حجرتي واضأت النور . رأيتها تقف في الممر خارج حجرتها ، وعندما التقت عيناها شاهدتها تتجه الى حجرتي ثم تدخل اليها . خيّل الي انها قادمة لتثير فضيحة . القت تحية

وطمأنينة . لايقول شيئاً . يقول اشياء طيبة . انيسة . . وحلوة . ولكنه لايجيب على سؤالي . بعد فترة من التوتر اركن الى الضوء . مستمتعاً بغيضه . ارتوي منه واطلب المزيد وانسى رغبتي الملتاثة في ان احسم المسألة .

وكعمل اضافي - إن صحت العبارة - بحثت جاهداً عن اسمها . لم يكن ذلك سهلاً . خاصة وانا اتجنب اثارة الشكوك . كان مصدر الصعوبة في معرفة اسمها . هو تحديد الفتاة المعينة . هل اقول انها تلك الفتاة . التي تبادلني النظرات طيلة الوقت ؟ ولكن ذلك . رغم وضوحه . سريتنا . هل اقول . انها تلك الفتاة . ذات العينين السوداوين - الذهبيتين (فعلاً . مالون عينيها ؟) وذلك القوام الانيق المتماسك . كأن منحوت ؛ والتي تسير بطلاقة فراشة ولها طلعة ملكة ؟ ولكن هذا يصف عشقي . وهذا ما يجب ان اخفيه . خطر لي . بشيء من الحدس . ان اسمها ليلى . قلت لنفسي : ليلى اسم كل معشوقة وحدسي خاطيء . سمعت اسم سهام يتردد . نادت فتاة :

- عيني . سهام !

رأيت ساقين تتحركان . وساقين غيرهما يسيران في الاتجاه المعاكس . ثم خيلَ لي : هذا هو اسمها . لابد ان يكون اسمها . سهام ؟ ولم لا ؟

ومن هنا كانت بداية الاحداث العُجيبة التي تلت ذلك ؟



كيف امتلكت الجرأة على اتخاذ قرار كهذا ؟

واقع الامر ان اختفاء سهام خلف مستطيلات الكرتون الاسود جعلني في حالة توتر دائمة ليس من السهل - صدقوني - التعرف على امرأة عن مجرد مشاهدة ساقيها

هذان الساقان ونصف العجيزة - جزء ميت من الجسد حين يشاهد منفصلاً . يصبح مجرد عامودين يتابعان اويتوقفان . او ينطويان بحركة ميكانيكية تتوالى حركة العامودين : شمال - يمين - شمال يمين . . ثم يتوقفان ثم يواصلان السير . . ثم يثبتان امام كرسي . ينطويان من منتصفهما بشكل فجائي . ويتكوّر الجزء الاعلى منهما الذى يشكل العجيزة . التي تهبط ببطء . وكأن قوة مغناطيسية تجذبها الى اسفل

لايبقى امامي سوى جزء ضيق ، مستطيل من الجسد ـ قطاع عرضي من العجيزة ـ تظهر لي من فتحة مسند الكرسي الذي تجلس عليه الفتاة .

هل يمكن تمييز انسان على هذا النحو ؟

كما قلت منذ قليل ، هذا جزء آلي ميت من الجسد . يستمد حياته وجماله واغواءه من الجسد ككل . والجسد المتكامل لا يمنحه الحياة والجمال فقط ، ولكنه ايضا يشحنه بذلك التيار من الدفق الجنسي . ويعيده الى الكائنات العضوية بعد ان يستنفذ من الآلية الميكانيكية .

لم يكن ذلك مصدر ارهاقي الوحيد . كان ضوء النهار في السابق يأتي حجرتي التي بلا نوافذ ، عبر الشبابيك الواسعة لحجرة الفتيات . كان ضوء النهار ، رغم عبور الحاجزين الزجاجيين حتى يصل حجرتي . يدخلها وهو ما يزال في زهوته . ولكن الحاجز الكرتوني الاسود جعل حجرتي في ظلمة دائمة . اصبح النيون المشتعل في حجرتي يشعرني بأنه يضيء مكانا ليلياً . انتهى الاحساس بان ما في حجرتي هو عتمة النهار ، التي يعيدها الضوء الكهربائي الى النهار ـ بل اصبحت عتمة الليل التي يستنقذ النيون المكان منها ليعيده من الغياب الى الحضور .

كان ذلك مقيضاً للكآبة . اصبحت اعيش ليلين . ففي حين يضيع ما تبقى من ضوء النهار في نوم بعد الظهيرة الطويل . الذي اصبح لاغنى لي عنه . اصبح النهار بالنسبة لي هو ذلك الانتظار الثقيل للباص ، الذي لا يأتي . واصبح صهد الظهيرة وانا عائد الى البيت بعد انتهاء الدوام . تحولت بغداد بالنسبة لي الى ليل دائم !

حين استغرق في الكتابة اصل الى اللحظة التي اتوقف فيها قليلا ارجع رأسي لاعيش لحظات مع ذات العينين الذهبيتين . افاجأ بمستطيلات الكرتون السوداء اشعر للحظة عابرة ان هنالك خطأ ما احدا يقف على بابي . ثم اتذكر . فأمتلىء غيظاً واصمت . الشكوى للزملاء لاتأتي براحة . ان لهم مشاكلهم هم ايضا . وبعضهم قد يضمّن شكواي تقريرا يرفعه الى الجهات الامنية . وذلك سوف يسبب في مصاعب حقيقية .

اظل هكذا ، محاولا ان اتسلى بمراقبة السيقان في حركتها ـ وهي ترسم خطوطا على ارض الحجرة المقابلة لي . يبدو انني اعاني نقصا في القدرة على تحديد المسافات . اشاهد فتاة ـ ساقان ونصف عجيزة ـ تأتي من اتجاه . واخرى تأتي من

الاتجاه المضاد . اقدر انهما سيصطدمان . تغيب احداهما خلف الاخرى ثم اراهما يتباعدان . في بعض الاحيان ان الساقين ونصف العجيزة تعود الى الوراء . فاشتاق ان ارى ذلك والفتاة بكامل جسدها . ثم يتضح لي بعد قليل ان الفتاة تسير الى الامام .

خلال ذلك كنت اشعر ان تلك الحركات لا معنى لها ، ولاهدف . سير طويل او قصير ينتهي دائماً دون توقع . تضجرني في هذه الحركة العشوائية فاعود الى الكتابة ولكن الملل يدركني سريعاً . فانهض وامشي في الممر الفاصل بين الحجرات .

كان ذلك يشبه ما يحدث لي في الليل . فحين ترهقني الكتابة اصعد الى سطح البيت الذي اسكن فيه . وامشي لوقت طويل . غير ان الفارق بين المسيرتين كبير . المسيرة على سطح البيت كانت تضعني تحت السماء والنجوم مباشرة . في وسط بغداد - البستان ، حيث يشيع العطر المسكر لزهر القدّاح ، الشبيه بعطر الياسمين ، وحيث نسيم الليل الجاف ثقيلاً وحزيناً كالنبيذ . وعن بعد تبدو لمحات من نساء عبر نوافذ مضاءة ، او في وسط حديقة منسقة . كان ذلك يرفعني الى حلم يقظة اعيش فيه بغداد عباسية .

اما هنا فكنت كأنني اسير في قبو تحت الارض

يضاف الى ذلك الضيق الذي تسببه لي دهشة زملائي الموظفين من هذه المسيرة المتعمة - ام هم يتظاهرون بالدهشة ؟ - التي تعكس ريبتهم القائمة ابدا خلف ابتساماتهم .

كان تكرار ما يحدث لي في الليل نهارا وعلى هذا النحو المقبض يسبب لي ضجراً يتحول الى احساس بالاختناق .

ثم اتخذت ذلك القرار .

كنت لو جل تنفيذه اليوم بعد اليوم فيزيدني في ذلك احساساً بالعجز . احتفظ بالورقة في جيبي ، وعند اللحظة الحاسمة ، اقول لنفسي : هل نعود - في هذا السن - الى مرحلة المراهقة ؟ الى تبادل النظرات عبر الشبابيك ، وارسال القبلات في الهواء ، وكتابة المواعيد على ورقة ، ونلفها حول قطعة حجر ونقذفها عبر شباك طالبة الثانوي ؟

ثم خطرت لي الفكرة التالية : لست انا الذي انكص الى مرحلة المراهقة بل ان هذه المدينة هي التي تعود بي الى الخلف

عندها اتخذت قراري . فلقد كانت تستعمل نفس الباص ، الذي اعود به الى البيت حين لا استعمل سيارة اجرة . قررت ان اتبعها حتى تركب الباص . سوف اركب الباص . قبلها واحجز لها مكاناً بجواري . ثم سادعوها علاني وبوضوح ان تجلس بجواري . عندها سوف اضع الرسالة في يدها

كانت الرسالة تقول ان من المستحيل ان تستمر الامور على هذا النحو يجب ان اراك وابحث معك امرا هاما جدا . (كدت ان اضيف ان المسألة تتعلق بمستقبلنا نحن الاثنين ، ولكني رأيت الا استعجل الامور وقلت انه لامجال للتفصيل الآن ، ولكننا سوف نتحدث طويلا . ثم كتبت لها عنواني بوضوح ورسمت لها خارطة تبين مكان البيت .

الواقع انني اعدت كتابة هذه الرسالة عدة مرات ، وفعلت نفس الشيء بالنسبة للخارطة . ففي كل مرة كان يخيل الي ان الرسالة ليست واضحة تماما وان الخارطة لم تكن رقيقة وان هنالك امكانية اللبس واردة ، فاعيد الكتابة والرسم من جديد . ولم يكن النص الاخير هو اكمل النصوص ، ولكنني شعرت باليأس من التوصل الى رسالة وخارطة لااعتراض لي عليهما .

وهكذا حسمت الامر ، وقررت ان انفذ خطتي هذا اليوم . وفي تلك اللحظة دقّ جرس التليفون . كان هنالك صوت امرأة (اتكون سهام ؟ كدت ان اصرخ : سهام ؟ أهذا انت ؟) . كانت المتكلمة سكرتيرة المدير العام . قالت ان المدير العام الجديد يطلب الاجتماع باسرة تحرير المجلة في الساعة الحادية عشرة .

- ٨ -

لم اكن خالي الذهن عن شخصية المدير الجديد ، وعن الاسباب التي جاءت به . فقد لاحظنا أن المدير السابق اخذ يتغيب كثيراً . وعندما نلتقي به كان يبدو وديعاً وكثير الشرود . قابلته يوماً في الممر . رد على تحيتي بحماس ، وصافحني ، ثم سألني :

- إش وكت رجعت من السفر .

وعندما قلت انني لم اسافر استدار مسرعا الى حجرته ، وقال :

- ايه هذيك راجحة .

الصباح ، فرددت بصوت حاولت ان يكون طبيعيا . قالت بعد ان جلست بصوت واضح ، خال من التوتر :

ـ الرسالة وصلت .

قالتها باللهجة المصرية . هل هي مصرية ، ام انها تصطنع هذه اللهجة من اجلي كانت تلقي الي نظرة غريبة ، نظرة ضاحكة ، متواطئة ، لم استطع تفسيرها الا فيما بعد . قلت :

ـ ما انا عارف انها وصلت .

ارتسمت دهشة حقيقية على وجهها . اضفت موضّحاً :

ـ ما انا سلمتها لك في ايدك .

ضحكت سهام واغرقت في الضحك . لم يكن لضحكها ، آنذاك ، معنى محدداً بالنسبة لي . توقفت عن الضحك ، واخذت تسوّي شعرها . قلت :

ـ الموعد تمام ؟

قالت :

ـ تمام .

مفخّمة (ألف) التمام ، في محاولة للسخرية من لهجتي العراقية . سألتها ، كيف دخلت حجرتي مع وجود الامر بمنع «بنات المكتبة من الكلام مع اولاد الثقافة» ، انفجرت ضاحكة . كانت ضحكتها طلقة ، صافية . لم يكن ينقصها حس الفكاهة .

قالت والضحك مازال في وجهها :

ـ المدير هذا مخبّل .

واخذت تروي لي حكايات عن مدير المكتبة . قالت انه اصيب بحالة هياج عصبي عنيف ، عندما علم ان احدى الفتيات المحشورات في مكتبه دون عمل حقيقي تنوي الزواج من ابن خالتها . لقد تشنج المدير وامرها الا تتزوجه .

ـ امرها ؟

قالت :

ـ مثل ما اقول لك . امرها

واضافت ان المدير يصاب بنوبات تشنج واغماء كلما تناقش مع الفتاة في هذا الموضوع . قلت :

ـ واضح انه يحبها وعايز يتجوزها .

قالت سهام ان المدير متزوج ، ولكن هذا شأنه مع كل الفتيات اللواتي يعملن في مكتبه . واضافت ان المدير اقسم للفتاة انها اذا تخلت عن ابن خالتها ، فسوف يجد لها عريساً مناسباً اكثر منه بالف مرة .

ـ الف مرة ؟

قالت وهي تبتسم بسمتها المشرقة :

ـ ايه ، الف مرة .

قلت : .

ـ والباقيات ؟

انهن يضحكن على المدير وبعضهن يشفق عليه . اتعرف سناء ؟ الفتاة السمينة التي تجلس قرب باب مكتب المدير ؟ انها اكثرهن اشفاقاً عليه . عندما يصاب بحالة اغماء ، وذلك يحدث كثيراً ، تحمله وتضعه على الصوفا الواسعة ، وتضع رأسه على حجرها ، وتبلل وجهه بالماء ، وتداعب شعره ، وتقول للفتيات الضاحكات :

ـ عيب يابنات . تريدن تخبلن الولد ؟

واضافت سهام ان نداء ، وهي الفتاة التي سوف تتزوج ابن خالتها ، جعلت المدير اضحوكة الجميع . انها تحاول اقناعه ان الفتاة من فتيات مكتبه مسيحية تنوي الزواج من شيوعي مسلم . ونداء ، ايضاً ، عندما يغمى على المدير تمد اصبعها وتعبث بانف المدير ، واحيانا تزغزغ ابطيه . وسرقت مرة كتابه الطبي وارتنا اياه .

ـ اي كتاب ؟

قلت . قالت انه كتاب طبي مذكور فيه ان الزواج بالاقارب يسبب اضرار للنسل . سألتها إن كان مدير المكتبة قد صدق حكاية زواج الفتاة المسيحية بالشيوعي المسلم ، فقالت انه صدّقها بالطبع . انه يصدق كل ما يقال له .

ثم حكت لي عن نوال ومدير المكتبه . ونوال فتاة شديدة السذاجة ، لها وجه صغير ، مضحك ، جميل جمال وجه الدمية : انف صغير وشفتان رقيقتان ، وعينان سوداوان ذات رموش سوداء كثيفة . وجنتاها البارزتان تضفيان على وجهها مسحة يابانية . قالت ان مدير المكتبة يأتي يومياً ويقف امام مكتبها ، فترفع رأسها وتصرخ في وجهه :

- ما يرضون ! ما يرضون !

يصبح وجه المدير احمر كالطماطم الناضجة ، ويزداد اقترابا منها ، وهو متكيء بيديه على طرف مكتبها ، ثم يأخذ يهمس لها . تزداد نوال انفعالاً ، وتصيح :

- شلون زمال هذا !

يقترب برأسه اكثر من وجه الفتاة ، ويقول بصوت مرتعش :

- على كيفج عيني نوال ، على كيفج .

وتردد نوال :

- اقول مايرضون .

- مثل ما تشوفي .

وعندما يبتعد ، وقبل ان يخرج من الحجرة تقول : « قز القرط » سألت سهام عن معنى قز القرط ، قالت :

- مثل ما تقولوا في مصر ياسم .

قالت ان ذلك يتكرر يومياً . والسبب انه يطالب نوال بتجنيد عضوات جديدات للحزب ، فتدور الفتاة على الحجرات التي تتواجد فيها فتيات ، وتقف بباب الحجرة ، وتنادي بصوت طفلي مسرسع :

- من منكن يا بنات تريد تنضم للحزب ؟

فيعلو ضحك البنات وتكرر نوال :

- دي قولي !

قلت لها :

- انت عضوة في الحزب ؟

نظرت الي طويلاً ، وقد اكتسب وجهها تعبيراً جاداً ، وقوراً ، ثم قالت بحسم

- لا .

قلت ان هنالك وسائل أخرى ، يجندون بها اعضاء للحزب . مثلاً الزجاجة ، المهشمة الحواف ، التي يرغمون المعترض على دخول الحزب ان يجلس عليها ، وادخالها في مؤخرته . انخطف لونها ؛ ولكنها قاربت مابين حاجبيها وقالت :

- نحن مستعدون لكل شيء . . !

ثم ابتسمت ، وقالت :

- ماذا تكتب الان ؟

اكتشفت انها قارئة جيدة . تحدثنا بعض الوقت عن الكتب والادباء قالت انها لاتحب روايات نجيب محفوظ الاخيرة ، او هي على الاقل تفضل رواياته الاولى .

بعد ذلك ودعتني وخرجت برشاقة راقصة باليه اجتاحت الممر ودخلت حجرتها . كنت اعلم ان هذه اللحظات التي قضيتها مع سهام سوف تعيش معي في ايامي المقبلة . ستصبح ، منذ الساعةواحدة من ذخر الذكريات ، التي تضيء في ساعات اليأس . كانت لحظة تطهير ، احسست بنفسي بعدها خفيف طلق الحركة ، جسوراً . اكتشفت بعد خروج سهام ان ذلك الثقل في حركتي ذلك الحذر الذي يجعلني اسير بخشية وكأن العالم من حولي مصنوع زجاج هش ، تلك الآلام ، التي تصاحب نهوضي من وراء المكتب ، وانحنائي لالتقاط شيء ما من الارض ، آلام العنق التي اشعر بها حين استرخي في كرسي مريح ، لم تكن الاما جسدية ، بل نتاج الخوف الكامن في عظامي .

ادركت ، لحظتها ، بحدس فاجأني وادهشني انني شاركت في صناعة هذا الخوف عندما تجنبت الصدام والمواجهة ، واخترت الانزواء والانصراف الى القراءة والكتابة ، وعندما قبلت بالامر الواقع اعتماداً على من كانوا يرون اننا نعيش في احسن العوالم الممكنة .

وفي تلك اللحظة شعرت بالالام التي ولّدها الخوف تتلاشى في نشوة من الاستمتاع اللذيذ . « انه الحب » قلت لنفسي ، باعتزاز وفرح .

الحرية التي رافقت الحضور الفاتن ، الذكي لتلك الفتاة وهي تدخل الحجرة ، وهي تجلس امامي دون تحرج او خوف ، وهي تسخر بخفة دم من مديرها متحدية جو الرعب الذي يخيم على المكان . . . حضور فتاة تعيش قيم المرأة الثورية ، التي لم تنتهك بالتكتيك المناور ، الخانع . . . كل ذلك ملأني باحساس بغنى الوجود ، وبخصوبة القيم الايجابية المجسارة . اصبحت قادراً على الحركة الحرة دون ذلك الحساب المجهد والنفعي والمسكين للعواقب .

انه الحب !

لهذا اخذت انتظر لقائي بها كحدث سوف يغير مجرى حياتي . لن تكون خائفة مرتعشة وهي تدق جرس الباب . . لن تنظر حولها بخشية قبل ان تمرق من الباب الخارجي الى الحديقة .

ولكن . . .

-١٠-

كان الموعد في العاشرة صباحا . اخذ القلق يستولي علي ابتداء من التاسعة . اخذت افقد بالتدريج تلك الشحنة من الحرارة ، التي منحتني اياها سهام .
الخوف غير المحدد اشعرني بتوتر ملهوف يشبه الاختناق . دائماً تحدث ، هنا ، اشياء غير متوقعة . ولا منطق لها ، تنتهي بك الى خوف يصبح طبيعة ثانية لك ، خوف يستقر في عظامك فتحسبه التهاباً في المفاصل ، اوبداية انزلاق غضروفي ، او لتوهم انك مصاب بضيق في التنفس .
منذ ثلاثة شهور كنت سهراناً في فندق دار السلام مع عدد من المشاركين في ندوة لمسرحيين العرب انعقدت تحت اشراف الجامعة العربية في بغداد . انصرفت حوالي لساعة الثانية عشرة . ركبت سيارة اجرة ، وكان السائق من النوع المريح . طلب جرة معقولة ، فلم افاصله ، وكان طيلة الطريق صامتاً . ومعنى ذلك انه لن يفاجأني ي منتصف الطريق ـ وهذا يحدث كثيراً ـ بقوله انه ظن ان ساحة الطبقجلي هي ساحة لتحرير ولذا يجب مضاعفة الكروة . بالاضافة الى ذلك كان سائقاً ماهراً وحساساً . م يحاول ان يسابق سيارات السكارى ، اويشتم سائقاً يعترض طريقه ، ولم يمل سيارته لقتل قطة عابرة .
لذلك كنت مسترخياً ، وشاعراً بالاطمئنان ، وافكاري من النوع الطيب ، لمحب للعالم ، خاصة بعد ان اتيحت لي فرصة الحديث مع اناس لايفترضون في سوء النية ، ويفهمون مانقول على وجهه الصحيح . ثم ، ونحن نميل الى الشارع المحاذي لشارع بلال الحبشي ، حيث يوجد بيتي ، وقفت سيارة في عرض الطريق ، فارغمتنا على التوقف . انفتحت ابواب الاربعة وهبط منها ستة اشخاص يصوبون نحونا ستة رشاشات قصيرة . ومن لامكان ، جاء ستة آخرون ، يحملون نفس الطراز من الرشاشات يصوبونها نحونا . كانوا يصرخون :
ـ جايبه من ملهى ! جايبه من ملهى !
كان السائق متماسكاً . قال بهدوء :
ـ لا والله ، خوي ، جبته من الشارع

صرخ احدهم :
- من الشارع ؟ قلت من الشارع ؟
خطر لي ان اسألهم : من اين تفترضون أن اركب سيارة اجرة من دار ليت ؟ . ولكني اخترت الصمت .
كانوا يرتدون ملابس غريبة : بذلات صفراء ، وكوفيات صفراء صغيرة الحجم . اذكر واحدا منهم ، بدا وجهه في ضوء مصباح الشارع نحيلاً ، يحمل آثار الجدري ، وبقعة صفراء لامعة بدت كصديد سائل تحتل خده الايمن كله - أثر قبيح خلّفه نوع من الدمامل يسمونه حبة بغداد - ؛ وكان وجهه اشد صفرة من ملابسه . قلت له :
- ايه الحكاية ؟
توجّه الرجل ، ذو الوجه الاصفر نحو الآخرين ، وقال :
- هذا يقول : ايه الحكاية ؟
قال شاب غليظ الملامح :
- هذا غير قواد هذا .
صدم احدهم كتفي برشاشة وقال لي ، هل يوجد احد يعود الى بيته في الساعة الثانية عشرة . قلت : انا !
صرخ بحنق :
- بالملاهي غير ؟
ركب احدهم بجواري ، فاصبحت بينه وبين السائق . طلب مني بطاقتي الشخصية فأريته بطاقتي الصحفية ، فقال انه يريد أن يرى جواز سفري . قلت لهم انه في البيت ، فركب ثلاثة منهم في المقعد الخلفي للسيارة ، وهم يلصقون فوهات رشاشاتهم في اسفل عنقي ، وطلبوا الى السائق ان يتوجه الى بيتي .
كان السائق من الفطنة بحيث راح يقود سيارته ببطء ، وعيناه مركزتان على الطريق من الواضح ان كان يخشى ماكنت اخشاه : ان تنطلق رشاشاتهم عند أي اهتزاز عنيف ، فمن سوء الحظ ان الثلاثة الذين في الخلف كانوا يضعون سباباتهم على الزناد .
لكزني احدهم بكتفي وقال انه يجب علي الا اعتقد انهم سيكتفون بهذا القدر . بل سيظلون واقفين امام باب البيت ، حتى تأتي « البنية » من الملهى . قال انهم

يعرفون انني تواعدت معها .

- وبعدين ؟

رغم كل شيء لم استطع اخذ المسألة بجدية . قلت لنفسي : انهم مجرد حثالات - مكبوتة جنسيا ، يمتلكون قدرا من السلطة . قال الرجل ، موجها كلامه الى الآخرين :

- هذا يقول وبعدين ؟

صرخ احدهم :

- هذا موشغلك : نسوّي اللي نسوّيه .

ثم حدث امر غير متوقع . فحين توقفت السيارتان امام باب البيت وقبل ان يهبط منها احد ، اضاءت انوار الحديقة ، والمصباحان القائمان فوق البوابة الخارجية ، التي انفتحت وخرج منها ايوب . كان يرتدي بنطلون بيجاما ، وقميصا مفتوح الازرار ، ظهر منه صدره العريض المشعر ، وبطنه .

وماعجزت عن التوصل الى تفسير مناسب له هو : كيف عرف بما حدث لي ؟ وماالذي جعله يخرج في الوقت المناسب ؟

نظر ايوب داخل السيارة ، وصرخ بلهجة امرة :

- ايش هذا ياكلاب ؟

ثم فتح الباب الخلفي للسيارة وصاح بنفس الصرخة الأمرة :

- نزّل ، نزّل رشاشك انت واياه ، وانزل ياغالب .

دهشت حقيقة عندما احسست بالرشاشات تبتعد عن عنقي ، وبالرجال يهبطون من سيارة الاجرة . نقدت السائق اجرته وشكرته . امسك ايوب بالرجل الذي كان يجلس بجواري ، وهزه بعنف وهو يردد : « كلب ، منحط » ثم دفعه بقوة خارقة . اصطدم الرجل بآخر يقف خلفه ، فسقطا على الارض سويا نهضا بسرعة وهرولا مبتعدين ، وغابا في الظلام . كان ايوب يتوعد بانه سوف يسحقهم ، كما يسحق الحشرات الحقيرة عندما امسك بالثالث من حزامه ورفعه عاليا والقى به على الارض . تدحرج الرجل قليلا ثم نهض واخذ يعدو . السيارة التي كانت تقل الستة الاخرين ابتعدت ببطء ، ثم زادت من سرعتها واختفت .

ظل الرجل ، ذو الوجه الاصفر واقفا مكانه . كان يطالع ايوب بعينين لامعتين وفم مفتوح . سألت نفسي : هل تقع الكارثة الآن ؟ بدا الرجل مصمما على ان

لايتراجع . اقترب ايوب منه وهو يتفحصه ، وقبل ان يتمكن من الامساك به اخذ الرجل يتراجع ببطء إلى الوراء ، وهو يحدق بايوب ويقول :

ـ على كيفك استاذ ، على كيفك . . .

قفز ايوب عالياً ـ قفز اوطار في حقيقة الامر قفزة لاعب الكاراتيه المتمرس ـ فانطلق الرجل يعدو ؛ ولكن ايوب استطاع ان يناله بقدمه ، في عجيزته ، وبدت الضربة وكأنها هي التي دفعت الرجل الى العدو . صرخت خلفه :

ـ البنيه ، خوي ، ماتريد تستنظرها !

استطعت ان اميزه في الظلام وهو يتوقف فجأة ، وينظر خلفه ، ثم يواصل العدو .

في الداخل ، كان ايوب مهتاجاً الى اقصى حد .اخذ يلوم نفسه بصوت يخالطه البكاء ؛ وبصوته ذاك مع وقوفه ممدود الذراعين ، شاخص النظرة الى السقف كان يبدو ممثلاً شديد الاقناع . كان يقول انه كان عليه ان يجردهم من اسلحتهم ، ويحطم عظامهم ، ويطلقهم بعد ان يخلع عنهم سراويلهم والبستهم . كان عليه ان يريهم بغداد كلها وهم يهربون بعجيزات عارية . . . بل كان عليه ان يضع زجاجة مهشمة العنق في عجيزة كل واحد منهم . . . « زجاجة ، مهشمة العنق في . . . » قلت . لم يكن يسمعني . بدا بطلاً اسطورياً متعالياً على الحوار ، بطلاً اتخذ قراره واخذ يحاور نفسه .

التفت الي فجأة وقال :

ـ وانت ليش تسكت إلهم ؟

لم يكن ينتظر اجابة مني . ماذا كان بامكاني ان أجيب على اية حال ؟ ومضى ايوب يقول انه منذ زمن بعيد وهو ينتظر شيئاً كهذا ،مواجهه كهذه . كان لابد من وقوعها . . . هؤلاء السفلة يتراكضون طيلة الوقت في الشارع والازقة المحيطة بالبيت وهم يصرخون : اطفئوا النور . . . اطفال عابثون ، اولاد زواني يحتاجون الى من يؤدبهم ويكسر انوفهم ويجعلهم ممامسح للارض .

في تلك الليلة لم ينم ايوب حتى الصباح . كنت اسمعه يذرع حجرته ، احياناً يعدو واحياناً اخرى يقفز كالحصان ، مواصلاً شتائمه وتهديداته . لم املك الجرأة فادعوه للهدوء .

لم يكن هذا الحادث فريداً من نوعه كل يوم ، تقريباً يحدث شيء يؤكد هذا

الخــوف ويجعله يتحـول الى جزء عضــوي من الجســد ، يشتبـك مع اللحم والعظم والاعصـــاب لقـد توقفت عن جولاتي الليليــة ، وملأت الـثلاجـة بالاطعمــة ـ فقـد استـولى علي هوس اكتـناز الاطعمـة حتى لااضطـر للخـروج ليلاً لتناول العشاء .

كنت في البـدايـة اتنـاول عشـائي في مطعم بســاحـة الطبقجلي يقدم المشويات : لحم الغنم المشــوي ، كلاوي ، كبـدة ، قلوب غنم . ولكنـه تكـرر اكثرمن مرة ، وانا في طريق عودتي الى البيـت ، ان تتبعني سيارة يركبها عدد من رجال الشرطة ، فتحاذيني وتطلب مني التـوقف . ويسألني صوت مشحـون بالعـداء ، بارد ، خشن عن سبب خروجي بالليـل ، وعن الجهـة التي قدمت منهـا والمكـان الـذي اذهـب اليـه . ومهـما حاولت ان اضبـط صوتي فانه يخرج حاملاً رعشة الخوف . يطلب مني الصوت ان اريه هويتي . البطـاقـة الصحفيـة لاتعجبهم . فهـل احمل جواز سفري ، بحجمه الكبير كلما ذهبـت الى العشـاء ؟ جيب القميص لايتسـع له ، ومن المستحيـل ان البس حلة كاملة في هذا الحر القاتل ، لمجرد ان اضع جواز السفر في داخلها . ان فكرة الخروج في ذاتها تنطوي على التخلص من جو البيـت المقبض .

هكذا كنت ، كلما خطر لي ان اخرج لتناول العشاء ، احس بالخوف يسـري بارد في عمودي الفقري ، فاكتفي بأي طعام اجده في الثلاجة .

اما بالنسبة للمرأة فلقد كانت المسـألة تثير الفزع حقاً . فلم يتوقف الامنذ وقت قريب ذلـك المشهـد الـذي ينقلك الى جو الكوابيـس : مشهد رجال الشرطة يحملون جرادل مملوءة بالصبغـة الســوداء ، والفـرشـايـات ، يستوقفون النســاء اللواتي يرتدين ملابـس قصيرة ، ويدهنون سيقانهن بالصبـغة السـوداء تكون المرأة واقفة تطالع احدى الفترينات ، فتفاجأ بالشـرطي ينحني على ساقيها ليباشر تلك المهمة الغريبـة . احدى النسـاء جعلتها المفاجأة تقفز من الرصيـف الى الشـارع : صدمتها سيارة مسـرعة فماتت على الفور . واخريات كن يصبن بحالة هستيريـة ينقلن على اثرها الى المستشفى

واحـداث أخـرى شـد غرابـة . فكـل رجـل يسـير مع امرأة في الشـارع معرّض لاستجوابـات رجـال الامن ، الـذين يقـودونـه الى اقـرب قسـم للشـرطة ، وهنالك يطـالبـونـه ان يثبـت ان صـلة عائلية تربطه بالفتاة ، وحين يعجز عن اثبات تلك الصـلة ينـال الاثـنان نصيبهما الوافر من الضـرب والاهانات ، وتستدعي عائلة الفتاةلاستلامها

اما الشـاب فيحلقون شعره ، ويضعونه في سيارة مكشوفة ، تسير في الشوارع ببطء ، وخلال ذلك يتناوب رجال الشرطة ضربه وتوجيه الاهانات له .

حكى لي احد الاصدقاء ان رجال الامن قادوه ، هو وزوجته ، الى قسم الشرطة اثبت لهم انها زوجته بابراز البطاقة العائلية ، ولكنهم طالبوه ان يثبت انه لم يطلقها بعد ولقد عرفت بخبرتي ان دوافع هذه الملاحقات هي رغبة رجل السلطة في الاستئثار بالنساء . ويبدو ان ذلك اصبح جزءاً من تكوين الانسان في الدوائر التي احتك بها . ومثال مدير المكتبة هو مثال متطرف لانسان موجود بالفعل : فقد اجلس مع احد الزملاء في الكافتيريا . سوف اجده دمثاً ، وقد يصبح مرحاً في بعض الاحيان ثم اراقبه حين تجلس فتاة معنا . ان انساناً جديداً ، لم اكن اتصور وجوده ، يتشكل امام عيني . اراه وقد تحوّل الى شخصية عدوانية ، تودان تمزقني وتستولي على الفتاة . الفتاة لاتخصني ، ولايوجد اية امكانية لاستيلائه عليها ، ولكنه لا يستطيع ان يتصورها الاغنيمة لمتصر .

عشرات الاحتمالات المخيفة كانت تتجسد في خيالي ، وانا جالس انتظر سهام كل واحد ينتهي بي وبها الى قسم الشرطة . عشت هذا التوتر رغم ان الساعة لم تبلغ العاشرة بعد . كنت اداوم النظر الى ساعتي . كانت حركتها بطيئه جداً . احياناً كنت اتخيل ان بها خللاً ، وفي احيان أخرى تصورت انها توقفت عن العمل .

انتهى بي الامر الى الوقوف وراء باب المطبخ ، اراقب من خلف جزئه الزجاجي البوابة الخارجية وقطاعاً من الشارع . النساء العابرات ، الوان الملابس النسائية السودا والحمراء والزرقاء ،اصوات السيارات العابرة ، الاقدام ذات الوقع الخفيف ، اوذات الكعب العالي الموقع كلها توحي بسهام ، احس بها تعزم على الوقوف امام البوابة متخذة وجه سهام المشرق ، ولكنهاتمابثني قليلاً ، مثيرة في داخلي ترقباً ولهفة حادتين ، ثم تتحدد ، وتتمايز ، وتنفي سهام . للحظة كان يخيل الى ان واحدة منهن هي سهام ، وانها اخطأت في تحديد البيت .

فجأة ، وفي لحظة من التوهج العالي ، برزت امامي بوضوح فائق تلك البقع الرمادية القاتمة ، المرسومة على السور الكرتوني.كنت قد عزمت اكثر من مرة ان اقترب منها ، واشعل ضوءاً قربها ، واطالعها . ولكنني لم افعل . كنت دائماً اؤجل ذلك . ثم ها انا ذا اراها امام عيني واضحة ، وكأن بقعة ضوء قد سلطت عليها وحده ، تاركة الاجزاء الاخرى من السور الكرتوني في العتمة .

كانت بعثاً لصورة قديمة احتفظت بها ذاكرتي منذ عهد الطفولة . كانت مرسومة على خشب بالالوان القاتمة للقديس مار جرجيوس . كان يرتدي خوذة

رومانية ودرعاً ، يجلس فوق حصانه ويسدد رمحه الى الاعماق السوداء لفم التنين ، وكان الرمح ينفذ من الفم ليبرز من اسفل البطن . البقعة الرمادية ، كما تبين لي في تلك اللحظة ، اعادة توزيع لعناصر تلك الايقونة.اصبح التنين نصيراً لمارجورجيوس . اما رمح القديس فقد توجه الى مجموعة من الاطفال ، من الذكور والاناث ، العراة . ويواصل الاطفال عبثهم البذيء رغم ان الرمح قد اخترق جسد كل واحد منهم ، مخلفاً فراغاً ، يخترق القلب ، وينفذ الى الظهر .

اما التنين ، فقد اشعل بالنار التي ينفثها من فمه شعر الاطفال ، فاصبح فوق كل رأس هالة احتراق يتلوى الشعر في داخلها كالافاعي . ومن مسدس القديس انطلقت رصاصات لتخترق كل الاجساد ، ورغم انها نفذت الى اللحم الطري فقد احتفظت بلونها الوردي .

مع كل هذا العذاب لم يتوقف الاطفال عن لعبتهم الجنسية ، التي يضاجعون فيها بعضهم وقوفاً باوضاع توحي بالشذوذ الجنسي .

هنالك تفصيل آخر . امرأة عجوز تقف تطل على المشهد كله ، شعرها الابيض طائر في الهواء ، وتشير بسبابتها السوداء ، المدببة الطرف كالمخلب الى الاطفال وتطالع القديس ببسمة اغواء غريبة . لقد بدت تلك المرأة بتقاطيع وجهها القوية شهوانية ، وبالطاقة التعبيرية الهائلة ، المختزنة في وجهها وفي حركة اليد والجسد كله مسيطرة على المشهد ومتحكمة فيه . انها ، وبسبب فجورها الجارف ، هي التي القت اوامرها الى التنين . واغوت القديس ودفعتهما الى تلك المذبحة .

منذ متى وسهام تقف خلف البوابة تدق الجرس بالحاح ؟ يبدو ان بعض الوقت قد مر وانا اراها واسمع الجرس يدق دون ان افطن لدلالة ذلك.كنت مستغرقاً في استرجاع تفاصيل البقعة الرمادية . تبين لي في تلك اللحظة انني لم اعد ارغب في محبتها . ولكنني فتحت باب المطبخ ، وسرت نحو البوابة الخارجية التي كان مفتوحة بالفعل ، فمرقت منا مسرعة لاهثة . لم تكن سهام ، بل الفتاة السمينة ، التي لاتكف عن الحركة داخل حجرة الفتيات المواجهة لغرفة مكتبي ، والتي كانت تجلس الى مكتب قريب من الحاجز الزجاجي مديرة لي ظهرها .

ماكاد السور الخارجي والشجر يحجبانا عن الشارع حتى احاطتني بذراعيها وهي تلهث وترتعش . همست : « خايفة » فاحطت عنقها بذراعي . كان رأسها

يلهث ويهمس في عنقي ، وثدياها الكبيران الصلبان يضغطان على صدري ، وانا اهمس لها :

- لاتخافي . خايفة من ايه ؟

وتهمس انها خائفة ان يكون احد قد راها ، انا اطمئنها . وتظل تضغط على جسدها وانا افتح الباب ، وفي المدخل فكت ازرار جاكتة البيجامة وأخذت تقبل صدري ، وهي تلهث وتهمهم . وخطر لي ، انها بذلك تختصر خطوات قد تطول لو نها سلكت بشكل طبيعي منذ دخولها . وشعرت بالامتنان لاقتحامها . سرت بها نحو حجرة المكتب ونحن متعانقين ، وكنا نسير بصعوبة لأنها لم تكن تتخلى عني ولو لخطوات قليلة .

وعندما استطعت ان اجلس جلست على ساقي . . عرّت فخذيها ووضعت يدي بينهما . وطلبت ان احركها . ثم ابعدت يدي فجأة وقفزت واقفة واخذت تجذبني وهي تقول :

- قوم عيني للقبة .

وادركت بعد قليل انها تريدني ان اقودها الى حجرة النوم قلت :

- على كيفج عيني ! ليش مستعجلة ؟

قالت بلهوجة :

- قوم عيني . دمي فوم !

رغم ضراوتها كانت الفتاة مخيبة للامل . فما كدت اجذبها نحوي فوق السرير واعانقها حتى احسست بعضلات عجيزتها ترتعش . وبجسدها يندفع بقوة نحوي وهي تطلق همهمات مختنقة . ثم يرتخي فيها كل شيء ويموت ابتعدت عني وتمددت على ظهرها ساكنة ، مغمضة العينين ، لايتحرك فيها سوى تنفسها ادركت ان للفتاة خبرة بالرجال ، ولكنهم رجال لاخبرة لهم . رجال تتجنبهم وصاغتهم لقاءات سريعة . مليئة بالفزع مع نساء ، شبان وخائفات حتى الالتباس

غادرتها وهي ممددة على السرير نصف ميتة ، ودخلت المطبخ . احدثت نسـ ـافة عندما دخلت الحجرة فتحت بتراخ وقالت :

ـ عندك ويسكي ؟

فوجئت بالفعل . قلت :

ـ عندي حالا اجيب الكلاصات والثلج .

قالت انـه لا داعي للكؤوس والثلج . انها تريـد فقط ان تضيف قليـلاً من الوسكي الى القهوة . البنت صاحبة مزاج . وهو مزيج ممتاز استعمله ساعة الكتابة حين اريد ان اتغلب على الارهاق . اضفت قليلاً من الوسكي الى فنجانها وقدمته لها تذوقته ثم مدت ذراعها وقالت :

انطيني البطل .

ناولتهـا زجـاجـة الـوسكي . صبت منها في فنجانها حتى امتلأ . شربت رشفت ، وابتسمت لي ، ثم قالت :

ـ هسّا تمام .

جلست بجوارها على السرير . وتذكرت فجأة انني لم اسألها بعد عن السبب الذي جعلها تجيء بدلاً من سهام . تحيرت كيف ابدأ . ولكنها ، وهي تشرب القهوة بتلذذ قالت انها تصورت انني كنت احب ليلى . قلت :

ـ ليلى ؟

قالت انها كانت تظن ذلك ، لهذا فوجئت بالرسالة التي سلمتها ليلى لها . قالت انها تعتقد ان ليلى نفسها قد فوجئت بالرسالة لأنها ـ اي ليلى ـ كانت تعتقد انني احبها .

سألت مرة اخرى :

ـ قلتي ليلى ؟

قالت :

ـ اشبيك ؟ ليلى البنية اللي انطيتها الرسالة .

ـ اسمها ليلى ؟

ـ ماكنت تعرف ؟

قلت :

ـ ليلى ، ليلى . . . ايه ليلى . وشلون ماعرفها .

لقد اتضح كل شيء . هذه ، اذن ، هي سهام . اية ورطة وضعت نفسي

فيها وهل من مخرج بعد كل هذا الالتياث ! لم يكن ينقصني الا هذا .

كانت قد انتهت من شرب كأسها ، فوضعته على الكومودينو ، وقبلت صدري ممسكة بشعره بين شفتيها . ثم القت رأسها الى الوراء واخذت تنظر الي . بمثل هذا القرب بدت وكأنها عمياء ، او كأنها فقدت الحياة .

قالت :

- زين سوّيت حبيبي .

امسكت وجهها بين كفيّ ، واقتربت بوجهي منها ، حتى اختفت تلك النظرة العمياء ، وقلت :

- مش فاهم .

قالت :

- زين سوّيت اللي ماسوّيت علاقة بليلى .

- زين سويت اللي ماسويت . . . ليش ؟

لم تضحك . فطردت الابتسامة عن وجهي . تمددت سهام على السرير وقالت ، وبطنها ناعم صلب يضغط على جنبي :

- ليلى شيوعية .

- ليلى ؟

كنت اعرف ذلك . وهل يمكن ان تكون الا كذلك ؟

قالت :

- ايه ليلى .

خطر لي ان اتأكد الايكون الخلط قد حدث بالنسبة لي ، فنصبح في اكثر المواقف غرابة . قلت :

- تعرفي اسمي ؟

- خير !

- وشنهو اسمي ؟

قبلتني على فمي وقالت :

- عبوسي .

- عبوسي ؟

قالت :

- عبوسي ، يعني عباس .

قلت بحدة :

- لكن هذا ماهو اسمي .

اتسعت عيناها . كان سوادهما لامعاً ، حياً ، قلت وانا ابتعد عنها حتى اراها بوضوح اكثر :

- هذا ماهو اسمي ؟

- وشنهو اسمك ؟

بدت ، في ترقبها لاجابتي ، خائفة . قلت :

- غالب .

★★★

اللمسة الاخيرة في الموقف كانت لقاء سهام مع ايوب خرجت سهام من حجرة النوم عارية عدا منشفة كانت تلفها حول وسطها ، ثم فجأة كانت تقف امام ايوب وجهاً لوجه كنت اقف بباب الحجرة ، مرتديا برنس الحمام . كان ايوب يقف بلاحركة ، وقد انفتح فمه قليلاً . من الواضح انه لم ينتبه لوجودي ، ولم يكن يرى سوى هذا الجسد العاري امامه . كانت عيناه ترمشان بلا توقف ، مدققاً النظر في الفتاة ، وكأنه يحاول ان يتأكد من كونها هي . ولااحد غيرها . مضى عليه بعض الوقت ، وهو عاجز عن الحركة .

كانت الفتاة واقفة تواجه ايوب . وهي تنظر اليه كالمسحورة ، وقد امسكت

المشفة بيد ، ووضعت ذراعيها فوق نهديها ، مخفية الجزء الاعلى منهما . كنت استطيع ان أرى كتفيها وقد ارتفعا ، وفقدا استدارتهما . كما كنت ارى عظمتي كتفيها بارزتين ، وقد اقتربتا لتكوّنا منحدراً في بداية العامود الفقري .

استمر هذا الموقف ثابتاً ، دون تغيير ، لمدة دقيقتين ، اوربما اكثر . لم يتحرك احد منا ، ولاصوت نسمعه سوى أنين المبرِّدة . كان ايوب يلهث مفتوح الفم ، وهو يدقق النظر في الفتاة ويتفحصها بدهشة ، وكأنه يقول لها : « هذه انت اذن ؟ » . والفتاة تنظر بعينين متسعتين وكأنها تتوقع ان يباغتها في موضع لاتستطيع الدفاع عنه .

قلت :

ـ اهلاً ايوب .

لم يرد على تحيتي ، ولم يبدر عنه مايشير انه سمعني . مال قليلاً نحو الفتاة ، ربما حتى يراها بوضوح اكثر ، او ـ ربما ـ ليتأكد من وجودها . كان يشبه طفلاً يتأمل طفلاً آخر ، بالحياد والجدية ذاتهما . كانت طاقتا انفه قد انتفختا قليلاً ، وعيناه جاحظتين كأنه يعاني صعوبة في البلع ، وقد تكوّنت طبقة من العرق على جبينه .

قلت :

ـ ايوه ياايوب.

تقلصت عينه اليسرى للحظة ، ثم عاود النظر الى الفتاة ، التي كانت تنظر بثبات . ثم انتبهت فجأة الى ان المفروض ان يحسم هذه المسألة هو الفتاة نفسها ، التي تقف دون ان تبدو عليها رغبة في التحرك او الخروج من هذا الموقف الذي طال .

قلت لها :

ـ إشبيكي ؟ ماتروحي الحمام !

التفتت الي وقالت :

ـ الرجّال !

قلت :

ـ ايوب ، زميلي في السكن .

ثم تبينت ان ايوب يسد عليها الطريق . قلت لايوب بحدة :

ـ ابعد يااخي خليها تمر .

ابتعد قليلاً جداً . وضعت كفي بين لوحي كتفيها ، ودفعتها برفق . كان جسدها بارداً . انطلقت نحو الحمام ، تسير كالمنوّمة . تبعتها ، مزيحاً ايوب من

طريقي ، وقلت له :

ـ عن اذنك .

كان ايوب يحرك شفتيه دون ان يصدر عنه صوت ، ثم اخرج لسانه واخذ يبلل شفتيه قلت له :

ـ بعدين ياايوب . اطلع هلق فوق .

دخلنا الحمام سوياً ، وانا اقول لنفسي : « كيف نسيت ان ايوب يعود الى البيت في مثل هذه الساعة ؟ » كانت سهام تعطيني ظهرها ، حتى عندما نزعت المنشفة عن وسطها ، وللمرة الاولى لاحظت ان جسدها مجموعة من الدوائر جلست فوق البيديه وفتحت الدوش تحتها . اصبحت في مواجهتي ، واخذت تقرأ وجهي . قالت بعد قليل :

ـ إش بيه هذا ؟ مخبّل ؟

قلت :

ـ لا . بس فوجيء بيك .

قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ وشلون مخبّل هذا ! فاتح حلقه ويباوع ، عَ بالك يريد ياكلني ، وسد الطريق . . .

قلت لها :

ـ استني شويه .

وغادرت الحمام . مازال ايوب واقفاً في مكانه . ناديته ، فارتعش جسده والتفت الي بسرعة . نظر الي بعينين زائغتين ، وفتح فمه قليلاً ثم اغلقه ، دون ان يقول شيئاً . فقط كان يطالعني بعينين واسعتين لاتريان . اقتربت منه وقلت :

ـ ايوب ، اطلع اودتك .

قال :

ـ اودتك ؟

ـ لا غرفتك انت . فوق .

واشرت باصبعي نحو السلم .

همس لي :

ـ شفت ؟

ـ شفت ؟ ايش شفت ؟

استمر يهمس :

ـ مين هاي ؟

ـ بنت .

ـ بتاخد مصاري ؟

ـ لا . زميلتي في الدائرة .

جالت عيناه في وجهي وفي المكان ، واقترب برأسه مني حتى خطر لي للحظة انه ينوي تقبيلي . ثم قال :

ـ ايش بتعمل هون ؟

ضحكت وقلت له :

ـ ايش رأيك ؟

اخذ يبلع ريقه بصعوبة . قال :

ـ بسألك ايش بتعمل هون ؟

قلت :

ـ بنشتغل .

ـ آه .

قال ، وابتسم ؛ ثم اخذ يصعد الدرجات المؤدية الى حجرته . توقف على البسطة القائمة في منتصف السلم . وضع كوعيه على الحاجز ، وبدا وكأنه قرر الاستمرار في الوقوف هنالك الى الابد . كان يتحاشى لقاء عيوننا . اخذت افقد اعصابي ، فقد زادت الامور . عن الحد المعقول . قلت بحدة :

ـ بدك شيء ؟

قال بالانجليزية :

ـ اذن ، فهي ليست مدينة بلا فرج .

ـ اصبحت بذيئاً .

ـ غالب . . .

قال . تردد قليلاً ثم اضاف :

ـ شد حيلك .

ـ شكراً .

انفتح باب الحمام ونادت سهام :

ـ الرجّال طلع لقبته ؟

صعد ايوب درجات السلم بسرعة خارقة ، دون ان يحدث صوتاً ، قلت :

ـ ايه عيني ، طلع .

انطلقت سهام راكضة الى غرفة النوم . نزعت المنشفة عن جسدها ، وتمددت على السرير . قالت ووجهها مليء بالضحك :

ـ اش بيه المخبل هذا !

واخذت تردد ذلك ، وتتبع ذلك بضحكات عصبية . جلست قربها على السرير وقلت :

ـ ماتديري بال .

نهضت بجذعها وجذبتني الى السرير وتمددت بجواري . اخفت رأسها في صدري ، وتمتمت :

ـ خفت ، وداعتك .

كان لقاؤنا اشبه بالمصارعة . وكانت قوية ، مقتحمة ، لاشيء يوقفها عما تريد .

لم يكن ذلك نهاية المطاف بالنسبة لايوب .

انصرفت سهام حوالي الساعة الرابعة على ان تأتي بعد يومين ، في الساعة الواحدة . لم يظهر عليها انها تأثرت بلقائها مع ايوب ، واعتبرت المسألة نكتة ، اخذت تكررها كثيراً : « شلون مخبل هذا . . . ! يابمه ! » وتضحك ، وتضحك كثيراً . وعندما استعدت للانصراف قالت باللغة العربية الفصحى ، وبلكنة بغدادية صارخة :

ـ بلّغ تحياتي لصاحبك المخبل .

وضحكت .

وقبل ان استغرق في نوم بعد الظهيرة ، خطر لي ، للحظة ، ان سهام مفتونة بايوب ، ولسعني احساس بالغيرة .

استيقظت متأخراً بعد نوم طويل ، ثقيل . كانت الظلمة قد هبطت . ساعة اليقظة استعدت على الفور ماحدث ، كما استعدت الاحساس بالغيرة . استحممت وشربت الشاي ، ثم دخلت حجرة المكتب وواصلت كتابة الرواية . اصبحت اكثر قدرة على التركيز ، واخذت الكلمات تأتي بسرعة غير متوقعة .

كنت قد نسيت ايوب ، ونسيت ذلك الموقف مع سهام الذي اخذ يسبب لحظات من القسرة . لم افطن الى وجوده الا حين سمعت خطواته فوقي . منذ مواجهته مع سهام لم اسمع له حركة . نظرت الى ساعتي . كانت تشير الى التاسعة والنصف وبضع دقائق . الفيت نفسي اواجه هذا السؤال بدهشة حقيقية : « كيف استطاع ايوب ان يكف عن الحركة طيلة هذا الوقت ؟ »

بعد قليل سمعته يهبط درجات السلم . قلت لنفسي ، وكأنني استغيث : « ليس الأن يا ايوب ، ليس الأن . ارجوك . » فقد كانت الرواية ، في تلك اللحظة ، تنمو بين يدي بسهولة وسلاسة . أكاد اقول انها كانت تكتب نفسها .

كانت خطوات ايوب ثقيلة ، بطيئة الايقاع . لم اسمعه ابداً يسير بهذه الخطوات . شعرت ان امراً غريباً يحدث . تخيلت ايوب يسير بهدوء ، وهو يمسك مسحة ، وقد تركزت عيناه على اليد والمسحة . توقف سيل الكلمات الذي كان يتدفق في داخلي ، كما يتوقف التنفس لحظة المباغتة . واخذت انظر الى باب الحجرة ، متوقعاً حدوث كارثة ما .

عشت ، للحظات وقبل انفتاح الباب ، رعب البيوت الكبيرة ، المنعزلة في روايات الاشباح . انفتح باب حجرة المكتب ببطء شديد ، وتوقف ايوب في اطار الباب المفتوح ، وقال :

ـ انت هون !

ـ ايش رأيك ؟

لم يستجب للدعابة . اغلق الباب بهدوء ، واخذ يطالعني . كان فيه لمحة من المجرم ـ المجنون كما ظهر في احد افلام هيتشكوك ، حينما هجم فجأة ، رافعاً سكينه ، محطماً الزجاج ، قبل ان ينقض على ضحيته بلحظة خاطفة . كان وجه ايوب وجهاً في لقطة مقربة : وجه كبير ، وتعبير غضب مصمم لايكاد يسيطر عليه الابصعوبة قد تجمد على وجهه ، وعينان لامعتان تخلوان من الحياة ، وخصل شقراء استقرت على جبينه العريض المبلل بالعرق ، والتصقت به . كان يسير ببطء كالأعمى .

سار بخطوات المنوّم وجلس على الكنبة الجلدية الخضراء ، اتخذ طابع الاستغراق ؛ وكان ذلك يعني النظرة الثابتة ، والفم المفتوح قليلاً ، والجلسة المتصلبة . سكن طويلاً ، ونظرته الثابتة تتجه الى الفتحة القائمة فوق الباب الأخر ،

التي يندفع منها الهواء البارد . وكأنه فوجيء بالفتحة وبالهواء البارد . ورفع رأسه بدهشة . يحدق منها بنظرة الباغت . وكأن تلك النظرة التي كان يجب الاتستمر غير جزء من الثانية ثابتة تتجدد وتمتد دون نهاية .

قلت :

ـ ايوه ايوب ؟

لم يبد عليه انه سمعني . كررت :

ـ ايوب : ايوه ايوب .

التفت نحوي بحركة بطيئة . وطالعني بعينين رجرا جتين . فقدنا القدرة على التركيز . وقال :

ـ ليش عملت هيك ؟

لم يكن ذلك صوت ايوب . ذلك الصوت المتردد . المراهق . الحاد . بل كان صوتا عميقا . هادئا . مشحونا بغضب وتهديد . حاولت ان اجعل صوتي لامباليا .

قلت :

ـ ايش عملت ؟

قال :

ـ ماانت عارف .

ـ عارف ايش ؟

هز رأسه وظلت عيناه مركزتان علي . كان التهديد واضحا في حركة الرأس وفي النظرة الصارمة وقال :

ـ مش عارف ؟

ـ لا مش عارف .

صرخ :

ـ مش عارف ؟

رغم انه كان يجلس في مواجهة تيار الهواء . فقد كان العرق يكسو وجهه وعنقه

قلت :

ـ لا .

زعق :

ـ لا ؟

ـ لا

قال بعصبية .

ـ كيف لا ؟

ـ هذا اللي صار .

واصل الصراخ :

ـ هذا اللي صار ؟

فقدت السيطرة على اعصابي ، وصرخت به :

ـ خلصنا ياخي من حزورتك وتكلم بوضوح . صارلك ساعة : عارف ، مش عارف ؟ لا عارف ، لا مش عارف .

ـ لانك عارف .

ـ طيب افرض اني مش عارف ، وحاكيني .

قال بهدوء مشحون :

ـ البنت .

ـ مالها ؟

ـ مانت عارف .

ـ لا . مش عارف .

ودخلنا في الدائرة المفرغة ذاتها : عارف ، مش عارف . . . وفقدنا اعصابنا اكثر من مرة ؛ وكان سبب غضبي تصوري ان كان يطالبي بالا ادخل فتيات الى البيت . ولكنني تبينت الحقيقة في نهاية الامر ، اذ قال : ان الفتاة سهام ، جاءت له ، وانني اختطفتها منه .

سألته :

ـ كيف عرفت ؟

قال :

ـ عرفت

قلت :

ـ عمرك ماشفتها ، فكيف عرفت ؟

ـ بسيطة ياخي . البنت غمزت لي بعينها

ـ ماشفتها غمزت .

قال :

ـ ماهيه كانت دايرة ظهرها إلك ، كيف بدك تشوفها ؟ بقول إلك غمزت لي اكثر من عشرين مرة .

كان محقاً . لم يكن بامكاني ان اراها وهي تقف في مواجهته . اما انها غمزت بعينها له ، فلم استطع ان اجزم بذلك . قلت :

ـ يجوز .

ـ اكثر من عشرين مرة غمزت .

ـ يجوز .

ـ وحكت لي كل شيء .

هل يعني هذا انها صعدت الى حجرته بعد ان غادرتني . ان ذلك مستحيل . قلت :

ـ امتى . يعني كيف حكت لك ؟

قال بنفاذ صبر :

ـ اوه هوه . . . حكت لي بالتليفون ياعمي .

ادركت ، بخوف ، ان الرجل قد جن . قلت :

ـ بس انت بتعرف ياايوب انه مافيه عندنا تليفون

رد بعصبية

ـ تليفون ؟ ايش التليفون هذا ؟ انا قلت تليفون ؟ قلت لك انها كانت بتكلمني باللاسلكي .

ادركت بسرعة سخافة موقفي ، اذ اخذت اقنعه اننا لانملك تليفوناً ، وكأن هذه هي المسألة الاساسية . نظرت اليه وانا افكر : « ايوب مجنون » وقد كان ذلك محزناً جداً . ماذا افعل الآن ؟ رأيت ايوب يبتسم . قال :

ـ بتعرف ايش قالت لي عنك ؟

ـ لا .

اخذ يضحك دون توقف ، ثم قال من خلال ضحكه :

ـ قالت لي ان عضوك التناسلي زغير جداً ، زغير جداً جداً .

وفكرت انه قد صنع لنفسه قضية كاملة ضدي . لهذا السبب كان صامتاً طيلة

هذه الفترة ؟ انسحب الضحك من وجه ايوب ، واخذ وجهه يتجهم . قلت :

ـ قالت لك زغير ؟

قال بحدة :

استوليت عليها يااخي ، مبروكة عليك ، بس لازم بعدما خلصت منها ، تقول : تفضل ياايوب .

ـ واجب .

استمر يتكلم وكأنني لم اقاطعه :

ـ البنت ياعمي كانت بتبكي وهيه بتحكي في التليفون انك منعتها تطلع عندي . يااخي ، بنت مليانه من النوع هذا بدها واحد عنده جسم رياضي ، وعضلات ، وعضو طوله واحد وعشرين سنتيمتر ، على الاقل . انا طوله اتنين وعشرين ونص .

قلت :

ـ انت قسته ؟

ـ طبعاً . اليوم .

كانت نهاية ذلك الموقف مؤلمة .

قلت لايوب :

ـ انا طالع اكلمها بالتليفون من عند الجيران ياايوب ، واخليها تيجي ، منيح ؟

ـ متل مابدك .

ـ وانت مابدك ؟

لم يعترض ، ولم يتحمس .

عندما وصلت الباب الخارجي سمعته يناديني . التفت خلفي فرأيته واقفاً في اطار الباب المؤدي الى الباب الخارجي . قلت :

ـ ايش بدك ياايوب ؟

قال بصوت وديع :

ـ ماتنس تقول إلها ياخوي انه انا اتنين وعشرين ونص .

كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة حين طرقت باب الجيران . لااذكر اننا تبادلنا التحية مع جارنا ولو مرة واحدة ، رغم مرور سنة على سكنانا بجواره . كنا

الاعزبين اللذين يجب ان تبتعد عنهما العائلات المحترمة . مرة واحدة دخل هذا الجار بيتي . جاءت امه تزوره من الموصل ، فلم تجده في البيت . استأذنت ان تنتظره في بيتي . رحبت بها ودعوتها الى الانتظار . وحين عاد اخبرته ان امه في بيتي . دخل وقادها الى بيته دون ان يوجه الي كلمة شكر او اعتذار واحدة.اشعرني ، منذ ذلك الحين ، انني اهنته ، فكان يتجهم لمجرد ان يراني .

دققت جرس الباب الخارجي . اضاء الانوار المقامة على جانبي الباب . كان الجار عابساً وغاضباً . قال :

ـ بلي ؟

وكان ذلك رداً على تحيتي له . قلت له ان زميلي في السكن اصيب بانهيار عصبي ، واستأذنته باستعمال التليفون . لسبب عجزت عن فهمه بدا سعيداً ودعاني الى الدخول .

وتتالت الاحداث . عدت الى البيت كان ايوب مايزال جالساً في مكانه . كان الشعور بالذنب يثقل علي : هل استعجلت في استدعاء رجال مستشفى الامراض العقلية ؟ هل فعلت ذلك بدافع الغيرة ؟ لذا قابلت ايوب خجلاً .

انتفض ايوب عند دخولي ، وتعلقت عيناه بوجههي . جلست دون ان اقول شيئاً . كانت عينا ايوب مركزة على وجهي ، وقد ضايقني ذلك بعد قليل ، سألني بهدوء :

ـ كلمتها ؟

ـ كلمته .

ـ ايش قالت ؟

ـ قالت جاية .

يبدو انه كان يتوقع اجابة اخرى ، مخالفة . لأنه نظر الي طويلاً ، ودون ان يبعد نظراته عني ، سألني :

ـ وانت ايش قلت إلها ؟

ـ قلت لها تيجي .

ـ ماقلت إلها إش ثاني ؟

كدت انفجر بالضحك حين ادركت انه كان يريدني ان اخبرها عن طول عضوه التناسلي . قلت :

ـ اقول إلها على التليفون ؟
صمتنا قليلاً ؛ ثم قلت :
ـ ماهيه جاية . انت قول لها .
لم يجب . قال بعد قليل :
ـ ايش رايك آخذ السيارة واشتري ويسكي وأكل ؟ يمكن ماتكون تعشت ؟ والا ايش رايك ؟
قلت :
ـ فيه عندي ويسكي . قزازتين ، وعندي لحمة ممكن تقليها . ويمكن تكون تعشت .
قال :
ـ بس انا اللي عازمها .
ـ مافيه فرق بيننا ياايوب .
بعد قليل توقفت سيارة شرطة النجدة امام الباب الخارجي . خلفها تماماً توقفت سيارة اسعاف . نهض ايوب واقترب من الشباك ، وأطل ، ثم قال :
ـ ايش الحكاية ؟
خرج اليهم وتبعته .
هل انا بحاجة الى رواية تلك المعركة التي دارت بين ايوب ورجال الشرطة ؟ كانت قوة ايوب خارقة ، لم يشل حركته الا القمصان التي استعملها الممرضون بخبرة وكفاءة .
مضى ايوب وبقيت وحيداً في البيت .

- ١١-

في اليوم التالي ذهبت الى العمل . منذ الصباح كان يهظني توقع كارثة ما . في الممر الذي تقع فيه حجرتي قابلت ليلى وسهام . كانتا متجهتين الى الحمام . لمعت نظرة التعرف في عيني ليلى ، ابتسمت وهزت رأسها . ادارت رأسي بفتنتها وعدت العاشق الملهوف . اما سهام فقد تجاهلتني ذلك التجاهل الصارم المصمم الذي نفذ الى قلبي كحد السكين .

دخلنا الحمام ودخلت حجرتي .

هل حدث تغيير في الصور الكرتوني ؟ كنت قد تأملته قبل دخول حجرتي اصبحت الآن ، البقعة الرمادية والمرأة العجوز هي مركز الصورة : اما ماحول هذا المركز من تفاصيل فقد بدا باهتاً . كيف حدث هذا ؟ أيمكن ان يكون مدير المكتبة قد اعاد رسم الصورة ، فجعل التنين والقديس في الخلفية ، وابرز البقعة الرمادية ؟ جلست وراء مكتبي انفرج على الرسوم . دققت النظر في التنين . وحاولت الاأرى ماعداه . كان تنيناً كأي تنين ، وليس هنالك مايميزه . دققت في النار الخارجة من منخريه ، وتوالت في ذهني خواطر واسئلة كسولة :

كيف تخرج النار من منخري التنين دون ان يحترقا ؟ الايؤدي انطلاق النار منهما الى اصابته بالجيوب الانفيه ؟ ولكن عيوننا تقدحان شرراً دون ان تحترقا . . وكذلك الملابس المصنوعة من النايلون ومن الالياف الصناعية . . . الايمكن ان تكون النار المنبعثة من منخري التنين باردة ؟ ولكن كيف تكون ناراً اذن ؟ . . . نار باردة مثل النار التي هبطت على ابراهيم .

وأفكار أخرى ثقيلة الظل اضجرتني .

وكنت خائفاً .

عادت الفتاتان من الحمام . سهام تجاهلتني ودخلت حجرتها . ليلى دخلت حجرتي مبتسمة . كانت تضيء . فاختلج قلبي بعنف . هل من المعقول ان تنتهي من حياتي هكذا ! جلست قبالتي ضاحكة العينين ، دون ان تقول شيئاً . كانت تتحاشى ان تلتقي عيوننا .

قلت :

- اهلا ليلى .

قالت :

- عرفت اسمي ؟ ايه زين .

- الي صار معي كان اغرب شيء في حياتي .

ضحكت ، ثم عت ضحكتها بكثرة ، ثم بوضع اصفاء . قلت :

- ليش سويت هيج ؟

ابتسمت وهي ترمش بعينيها ، ولم تقل شيئاً . كل شيء بدا لي ممكناً حتى ستعادة ليلى . ماعلي الا ان ابذل مجهودا مضاعفاً ، ان اتوصل الى الحجج المقنعة .

قلت :

ـ جاوبيني ليلى .

تنهدت ليلى ، فالححت عليها :

ـ جاوبيني . ردي علي .

ضحكت ليلى وقالت :

ـ إش اقول !

وصمتت . ثم نظرت الي نظرة غريبة ، معابثة ، خجولة ؛ ولكنها كانت تحمل بالاضافة الى ذلك شيئاً اشبه بالتلميح البذيء . ارفقت نظرتها بضحكة قصيرة ، ثم قالت :

ـ عيني ظروفي ماتسمح .

ـ ليش مافلتي لي ؟

قالت :

ـ ايش اقول ؟

ـ ان ظروفك ماتسمح .

وقفت فقلت بلهفة :

ـ استريحي ، ارجوك ، استريحي .

ولكنها ظلت واقفة . كانت تدير رأسها نحو السور الكرتوني وتتأمل تفاصيل رسومه . قالت :

ـ هذا غير مخبل .

ـ اقعدي ليلى .

ـ مديرنا غير مخبل . . .

ثم التفتت الي وقالت :

ـ تريد كتب من المكتبة ؟

قلت :

ـ ماهو ممنوع ؟

قالت ان هذا المنع لااهمية له . وهذا المدير لايستطيع ان يفعل شيئاً ، اذا ماقررت الفنيات معارضته .

قلت :

ـ شكرو ليلى بس ليش غيرّت الموضوع ؟

قالت انه موضوع طويل جداً ، ومعقد جداً . قلت : فليكن . اعادت القول انه موضوع طويل ومعقد ، وكذلك ظروفها وظروفي ، وانه كلما ابتعدت انا عنها كان ذلك خيراً لي ولها وللجميع .

قلت :

ـ ليلى ، المسألة بالنسبة لي ماهي نزوة .

ـ ادري .

ـ فاهمة ؟

قالت بشيء من الحدة :

ـ عيني آني مراقبة . افتهمت هسّا ؟

وهمت بالانصراف . خطت خطوة نحو الباب فطار صوابي ، وكدت انهض والحق بها . قلت :

ـ استريحي ليلى . اريد اقول لك شيء مهم .

التفتت نحوي برأسها . ترددت قليلاً ، ثم جلست ، وقد اتخذ وجهها وضع صفاء . قلت :

ـ ليلى . انا بحبك .

ـ ادري .

ـ الحب هذا إله نتائجه المنطقية .

قالت بضراعة :

ما اتشوف ؟

ـ أف ؟

ـ انا خطر عليك .

قلت :

ـ مايهمني . طول عمري عايش في خطر .

احسست على الفور انني تجاوزت حدود التواضع ، غير انني لم استطع ان اتراجع . قالت ليلى وهي تنهض :

ـ ماكو فايدة من الكلام .

قلت لها وانا احاول ان اتشبث بها :

ـ سؤال آخر . سهام تعرف ان المسألة كلها كانت سوء تفاهم ؟ يعني الاسم ؟

قالت :

ـ لا . مانقول لها .

وخرجت .

الباب الثاني

- ١ -

جرت هذه الاحداث فيما سمي بمرحلة الحوار ، ابتداء من عام ١٩٧٨ . اعني بذلك ، تلك المرحلة التي اعلنت فيها قيادة الحزب الحاكم في العراق ، في اجتماعات اللجنة العليا للجبهة القومية والوطنية التقدمية ، انها قررت بدء حوار بين قواعد حزبها وقواعد الحزب الشيوعي العراقي . واشارت قيادة الحزب الحاكم ان بعض الحدة قد ترافق ذلك الحوار ، وان بعض التجاوزات قد تحدث ، وهذا امر طبيعي في امثال هذه الحوارات .

القرار الحقيقي الذي اتخذته قيادة الحزب الحاكم ، دون ان تبوح به لاطراف الجبهة الاخرى ، هو تحجيم الشيوعيين من خلال القيام بتصفية كاملة لقواعدهم . وكانت النتيجة التي تبغي القيادة الوصول اليها هو الايظل من الشيوعيين سوى قيادتهم ، وبعض المظاهر الشكلية ؛ وان تبقى هذه القيادة كديكور تستعمل حين الحاجة .

وكان الحوار يتم على النحو التالي : يستدعى عضو الحزب الشيوعي الى احدى لجان حزب البعث . تناقشه اللجنة في افكاره وتطرح امامه افكار حزب البعث . الشيوعي ، الاكثر ثقافة في الغالب ، يصد الهجمة الاولى . هنا يأخذ الحوار طابعاً اكثر حدة ؛ اذ تطلب اليه اللجنة بصراحة ان ينضم الى حزب البعث . وكان معنى ذلك ان يقوم عضو الحزب الشيوعي بتقديم كل مايمتلك من معلومات عن حزبه ، دون ان يخفي شيئاً . ان اخفاء اية معلومات عن الحزب ، مهما كانت قليلة الاهمية ، يعاقب ، حسب القانون ، بالاعدام .

تمارس اللجنة « الحوار » مع الشيوعي لفترة من الزمن . فاذا استسلم فانه ينضم الى لجنة تقوم بغسل مخه ، حتى يصبح صالحاً للانضمام الى الحزب الحاكم .

واما اذا استعصى تجنيده ، يقال له : اننا فعلنا كل مانستطيع لمصلحتك ، ولسنا مسئولين عما يحدث لك بعد ذلك .

بعد فترة قصيرة تقوم قوات الامن باعتقال عضو الحزب الشيوعي المستعصي ، وتمارس معه انواعاً من الحوارات ، يقف على رأسها الحوار الجنسي . يتم هذا الحوار على النحو التالي : الاغتصاب الجنسي للرجال والنساء (من اين لاجهزة الامن هذا العدد الكبير من الشاذين جنسياً والساديين ؟ سؤال مشروع ، اليس كذلك ؟) ارغام الشيوعي او الشيوعية على الجلوس فوق زجاجة مهشمة العنق ، وادخالها كاملة في المؤخرة . الزجاجة المستعملة هي زجاجة بيبسي كولاً ، وهي ليست كبيرة الحجم (هل يعني اللجوء الى الزجاجة ان اجهزة الامن تعاني نقصاً في عدد الشاذين جنسياً ؟ لا . لأن الزجاجة كانت تتحول الى كائن آخر ، شرير ، ومشبع بالرعب . الزجاجة هي التي كانت تملأ خيال ليلى ، وتجعلها تعتبر نفسها انسانة غير صالحة للحب والزواج) واذا فشل ذلك كله تلجأ اجهزة الامن الى الضرب المؤدي الى الموت .
ولاتنتهي مشكلة الشيوعي عند تحوله الى جثة . اذ تنقل الجثة وتوضع امام باب بيت اهله . بعد ذلك تصدر الاوامر الى الاهل بعدم لبس السواد على الفقيد او البكاء عليه ، او اقامة مأتم له ، او طقوس دفن الموتى . واذا قام الاهل بواحدة من هذه ، تعتقل العائلة كلها ، بما فيها النساء والاطفال والشيوخ ، وتمارس معهم الواناً أخرى من الحوار . البعض قال ان تعليمات السلطة تحتوي على امر بالاكثار من الابتسام .

الاسلوب الأخر الذي اتبعته السلطة ، وكان اكثر حسماً من سابقه هو التجنيد الاجباري في الجيش ، الجيش حزبي ولايجوز للشيوعيين دخوله . ولكنهم مرغمون على دخوله ، طبقاً لقانون التجنيد الاجباري . وهكذا يدخل الشيوعيون الجيش ويلقى القبض عليهم ، ويحكمون بالاعدام . قيادة حزب البعث تقول بأسى:
ماذا تريدون منا ان نفعل ؟ هل نلغي قانون التجنيد الاجباري ، ونضعف قوة جيشنا امام العدو الصهيوني الغادر ؟ ان نلغي احد مواد دستور الجبهة الذي يعتبر الجيش خالصاً لحزب البعث ؟ وحتى لو اردنا ان نلغي هذه المادة لعجزنا ، لأنها من صنع اطراف الجبهة مجتمعة .

الشيوعيون اعتبروا هذا الحوار مؤقتاً (خط التطور لايسير مستقيماً ، دون التواءات وتعقيدات ، كما يعتقد ضيقو الافق) . اضاف آخرون بعض التفصيلات :

هنالك صراع داخل السلطة بين مجموعة يسارية وأخرى يمينية . والمجموعة الاولى يقودها ويجسد اهدافها السيد النائب ، واما المجموعة اليمينية فتدور في فلك رئيس الجمهورية ، ثم يصبحون بالغي الرقة عندما يخبرونك عن طبيعة المجموعة اليسارية داخل السلطة (ماالداعي للالتفاف حول الامور الواضحة ؟ هذه المجموعة تمثل اتجاهاً ماركسياً لينينياً بالتحديد !) ويرى نائب رئيس الجمهورية (يطلقون عليه تحبباً اسم السيد النائب) ان سياسة الحوار هذه موجهة ضده بشكل اساسي . وهو يعمل بدهاء شديد لتغليب الاتجاه اليساري داخل الحزب الحاكم على الاتجاه اليميني ؛ وانه سيتقدم ، في اللحظة المناسبة ، ويضرب ضربته ، رافعاً راية الماركسية اللينينية .

السيد النائب يعلن بصراحة ووضوح انه لااساس لكل هذه التحليلات وان الحوار هومشروعه ، وان كل مايتم هو بامره وتحت اشرافه . وقد تحدث مطوّلاً عن هذا ، وطلب من المحللين الحالمين الاتستغرقهم احلامهم . (دا تشوف ؟ السيد النائب يناور .)

فلندع له فرصة المناورة . ان دلائل كثيرة تؤكد مقولة انقسام السلطة الى مجموعتين . (عيني ، يابه ، السيد النائب قعد هوه وشاه ثلاث ساعات . ثلاث ساعات بالتمام . وشاه ايران يقول له :

« انطيك اللي تريده . شط العرب ، مستعد امنع المعونة عن الاكراد ، امشي وياك بالاوبك ، اللي تريده ، بس اضرب الشيوعيين . » السيد النائب قال : هذا مستحيل يابه . انا والشيوعيين في خندق واحد ، ولايمكن اغدر بيهم .) كما كنا في كل ليلة نشاهد نائب رئيس الجمهورية في التلفزيون ، يقبل عشرات الاطفال ، ويشاقي « يمزح » معهم ، ويداعبهم كأب حنون .

واي شيء لم نكن نراه على شاشة التلفزيون . النائب يزور البيوت ويسأل الناس عن مشاكلهم ، ويأمر بتجديد الاثاث التالف ، ويتبرع بمهر المقبلين على الزواج ، ويزور معسكرات الطلبة ، ويداعب شعر الفتيات ، ويمازحهن ، ويبتسم ، ويبتسم ، ويبتسم ، ويقهقهه احياناً ، وتهتز كتفاه ، في احيان أخرى . بضحك مكتوم .

لقد اصبح السيد النائب هو الممثل الرئيسي في التلفزيون . هاهي جماهير غفيرة تتزاحم حوله . رجل عجوز يتقدم منه ويقول :

ـ فانوس . . فانوس . .

السيد النائب يقترب منه ، ويقول :

- بلي ؟

العجوز يتحدث بجرس الشيوخ الخشن :

- اريد فانوس يمي ، هنا

عينا السيد النائب ترمشان بسرعة ، يقول :

- من هو فانوس ؟

الرجل العجوز يفاجأ بالسؤال . كان يتوقع كل شيء الا سؤالاً كهذا . يقول بصوت مرتفع :

- فانوس ، اللي عندكو بالحكومة . ماتعرف فانوس ؟

لقطة مقربة لوجه النائب . يتلو ذلك حوار يشارك به آخرون ، نفهم ان فانوس مجند في الشمال ، والاب يريده قريباً . عندما يتضح كل شيء ، يبتسم النائب ويقول

- موه تتدلل !

كما ان رقم تليفون السيد النائب معروف لدى الجميع . وكل من يعاني من مشكلة ، حتى ولو كانت مشكلة غرامية ، يمكنه الاتصال به ، اومقابلته شخصياً فتحل جميع الاشكالات ، كما في الاحلام .

واحياناً كنا نشاهده وهو يقتحم المستشفيات ، ويمسك بالاطباء الذين ينامون في ساعات الدوام ، ويقرعهم على مرأى من الجميع .

على شاشة التلفزيون كنا نرى النائب في كل مكان ، وفي كل الاوقات ، باستثناء الاماكن التي نوجد فيها . ولكننا نحلم ونأمل ان يزورنا في بيوتنا ويجدد اثاثنا التالف .

كل شيء بدا باعثاً على الاطمئنان ، هو انحراف مؤقت ، وسوف تعدل الامور سريعاً . ولكننا فوجئنا بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي يصدر بياناً داخلياً (بعد موجة رهيبة وواسعة من الاعدامات والتصفيات والاعتقالات) : كان البيان موجهاً الى اعضاء الحزب يقول فيه : من استطاع الهرب منكم فليهرب ، ومن امكنه الاختفاء فليفعل . ان المجموعة اليمينية هي قيادة الحزب الحاكم كلها ، وليست مجرد جماعة صغيرة تلتف حول رئيس الجمهورية .

- ٢-

اصبحت سهام تزورني كل يوم تقريباً . كنت ادع باب المطبخ مفتوحاً . وحين اعود في الثانية ظهراً اجدها هناك . تأتي في الواحدة وتنصرف في الرابعة والنصف ، لأنها كانت تعمل في المساء ايضاً من الخامسة حتى السابعة .

اعود فاجدها مرتدية احدى بيجاماتي ، وقد كفكفت كميها ، ورفعت سروالها الى مافوق الركبة ، وقد تركت الجاكتة مفكوكة الازرار ، حيث يبدو جذعها عارياً ، حيث تحررت من كل الملابس ، حتى السوتيان .

رغم قصر الوقت الذي تستغرقه ، أجدها قد قامت ببعض التنظيفات ، وبهذا كانت تجعل البيت مكاناً صالحاً للسكنى . كما انها تكون قد اعدت طعاماً سريعاً .

ومن سهام تعلمت كيف تكون المطابخ منافذاً الى الحياة لمجتمع ما . هنا تكتشف وظائف ومجموعة عمليات ، في حين انك من الخارج لن ترى الا اشياء جاهزة ، كأنها خلقت هكذا . دخول حياة المطبخ هو النفاذ من سياق الثوابت الجاهزة الى الخلوة التي تدور فيها العمليات الاولية ، التي تحوّل المواد الى وظائف . هنا ، في المطبخ ، تتعلم صنع الاشياء ، تحطم القشرة الصلبة لعالم اصم .

خلال عودتي بالباص ، وكل ماحولي نار موقدة ، أرى سهام منتظرة في بيت مبرّد ، فتبدو لي كالحلم المستحيل ، كحلم يقظة يتكرر دون ان يتحقق لأنه اعادة صياغة لاحداث مضت . وخلال ذلك اكون مشوقاً حتى الاختناق لضم ذلك الجسد الصلب ، المرن ، وهو ينزلق بحيوية حيوان ضار عارياً ، تحت قماش البيجاما الواسعة . ولقد كانت سهام جاهزة في كل لحظة للعناق ، والضم ، والجلوس على

حجري ، ودخول السرير ، وممارسة الجنس . كانت تشتعل بمجرد دخولي ، وكأن هذه الخلوة ، المنتزعة من رتابة حياة مضجرة ، تحرّمها ، ستحدث مرة واحدة فقط ، ولن تتكرر .

تتعلق بي ساعة دخولي ، فاقول لها انني اختنق بالحر ، واحس بالاشمئزاز من جسدي ، وانني اريد ان استحم والبس بيجامتي . ولكنها تظل متعلقة بي ، ساكنة تلهث ، فاقول لها ، وانا امسك بوجهها بين يدي :

ـ وشنهو رايحة تغدينا اليوم ؟

في مثل هذه اللحظات لاتسخر من لهجتي العراقية غير المتقنة ، ولا تلح علي ان اتكلم باللهجة المصرية ـ كما تعودت ان تفعل في ظروف اخرى ـ بل احس بها تجاهد للتخلص من طغيان الرغبة.تتشنج ، وتضمني بقوة . يتوقف تنفسها ، ثم تطلق زفرة عميقة ، ويرتخي ذراعاها بالتدريج . تفرك وجهها بكفيها ، وكأنها تطرد النعاس العالق بجفونها ، وتضغط باصابعها على عينيها . تظل هكذا لحظة ثم تعود الى اعداد الطعام .

كانت سهام تتكشف لي وتتضح ، بالتدريج ، من خلال تعرفي على مزاياها الجسدية والسلوكية . مازالت الملابس ـ بالنسبة للمرأة العراقية ، نوعاً من المصادرة ، ابتداء بالعباءة وانتهاء باحدث الموديلات . الملابس لاتخفي عريها ، وتفاصيلها الجسدية بل تخفي روحها . لم تتعلم بعد اختيار الملابس المناسبة لتكوينها الجسدي ، فالملابس العصرية مصممة لامريكيات واوربيات نحيلات الاجساد ، طويلات السيقان .

فلادراك جمال المرأة العراقية ينبغي البدء من البداية ، انطلاقاً من عريها وهكذا بالنسبة الى سهام ؛ فما كنت اظنه ـ وهي ترتدي ملابسها ـ سمنة وترهلاً ، تكشّف في عريها عن جسد مكتمل الانوثة . جسد كل مافيه ينحو الى الاستدارة : الكتفان ، والوجه ، والعنق ، والصدر والنهدان ، العجيزة . الساقان استدارة كاملة ، تشع منها تلك اللمعة الانثوية اللدنة .

لم تكن استدارتها وقفاً على التفاصيل ، كانت توحي به كليتها . (والاستدارة هي انسب الاشكال لاختزان الطاقة) : والطاقة المختزنة هنا هي انوثة كثيفة ، ضارية ، معطاءة ، لاتكف عن النبض . وبهذا كنت اشعر بجسدها مكتفياً بذاته ، تبدأ فيه خطوطه وتنتهي فيه .

استدارة سهام كانت تومىء الى اصل الاشياء : نواة الذرة ، وكما تحيط الالكترونات النواة كانت الرغبة تحيط بجسد سهام العاري ؛ كما تومىء الى الاشكال النهائية للمادة : استدارة الارض والشمس والاجرام السماوية .

هنالك اجساد تكتسب اكتمالها من خلال الحركة ، او الايحاء بها . ترى الوجه يعاني نقصاً ما ، فتنبعث فيه ـ وفيك ايضاً ـ دينامية تجاهد لاكماله . هذه وجوه تعيش حركة ابدية لتكتمل . اما سهام فاكتمالها فيها . وعندما كانت سهام تغادرني ، لاغرق في نوم بعد الظهيرة ، كنت اشعر بانني مدّور . قبل ان استغرق في النوم ؛ كنت ارسم ، في خيالي ، خطوط جسدي على شكل دوائر ، فاعيش الاحساس بهذا الجسد وكأنه دائرة . وقد كان هذا الاحساس مريحاً جداً ، يدفعني الى السكون .

حديثها ـ لم لااقول ثرثرتها ؟ ـ قادني الى حياة بغداد الداخلية . كان لها اسلوبها الخاص في الحديث ، اسلوب تلقائي ، طلق . تستطيع في عبارات قصيرة ، محايدة ، خالية من الخلفيات والشروح ـ وكأنها تفترض فيّ معرفة كلية بموضوع الحديث ـ ان تخرج الشخصيات من نطاق المجتمع العراقي المجهول لدي ، والغامض ، الى دائرة البشر ، ذوي الدوافع والعلاقات والاهداف المفهومة . كانت تدع لي وضع خلفيات الموقف ؛ فكنت استعير خلفيات اردنية ومصرية . هنا يبدو لي المجتمع البغدادي اليفاً .

كانت سهام باحاديثها هي الحبل السري الذي يربطني بمجتمع منطوعلى ذاته ؛ وكان مجرد سؤالي عن بعض الخلفيات والتفاصيل يربكها ، ويجعلها ترسم صورة لمجتمع غير مفهوم ، وشديد الغرابة . فكانت تهرب من هذا الارباك بالجنس . تقول لي ، حين الح في اسئلتي :

ـ حبيبي ضوّجتني .

وتندفع الى العناق والمعابثة .

لم يكن الحديث عن الأخرين هوموضوعها المفضّل ، على اية حال ، بل انا الذي كنت ادفعها اليه . كانت تحب الحديث عن مصر ـ التي زارتها مرة مع اهلها ـ كما كانت تحب ان احدثها عن نجوم السينما (رسمت لهم صورة داعرة تكاد تكون قريبة من الواقع) . وكنت احدثها عن مدى الحرية التي تتمتع بها المرأة المصرية ، فمنحتها حرية بلا حدود ولاقيود . ربما كان دافعي الى ذلك هومصادرة الشعور بالذنب ، الذي لم يكن موجوداً في واقع الامر .

اما ماكانت تعشقه بالفعل فهو النكات البذئية . كانت تطلب حكاياتها المرة بعد المرة ولم تكن تضحكها فقط ، بل تثير رغبتها ايضاً . كانت تنطلق بالضحك وتعانقني خلال ضحكها ، وينتهي الضحك الى لهاث الرغبة . كانت الكلمة الجنسية بالنسبة لها جزءاً من الفعل الجنسي .

وعندما كانت سهام تحكي نكاتاً - وكانت تحفظ الكثير مما جعلني اسألها اكثر من مرة عن مصدرها فلاتجيب . وعندما كنت ازداد الحاحاً ، واقول انها نكات الرجال الذين عرفتهم ، تنكر المصدر ومعرفتها بالرجال ، وتقول انها سمعتها من زميلاتها - وكثيراً ماتحكي نكاتاً ، لم اكن اجد في نكاتها مايضحك . كانت مجرد حكايات بذيئة .



ومن خلال سهام تعلمت ان ابحث عن وجوه المرأة العراقية الثلاث . الوجه الاول ، ان اراها داخل إطارها الاجتماعي المتخلف ، وهي في حالة خضوعها له ، وقبولها به ، او تظاهرها بالقبول . وهو الوجه القبيح ، الذي عرفت سهام في البداية من خلاله : بدت لي فتاة سمينة ، عصابية ، ثقيلة الظل ، تتحاشى مجتمع الرجال ، وتعيش في رعب دائم منهم . كنت اراها وهي تتنقل داخل حجرة الفتيات ، تسير محنية الرأس ، تدب بقدمين متباعدتين وكأنها حبلى ، والوجه عابس كأنه لايعرف الابتسام .

عبر هذا الوجه يكون صوت الفتاة خشناً ، انفياً ، كأنها تعاني من زكام . وحين تتحرك تبدو ثقيلة الحركة ، مفتقده للرشاقة ولروح الانثى . واذا حدثها رجل ، فتتلخص ردود فعلها في حماية جسدها : تنحني لتخفي نهديها . ولذلك يندران ترى الفتاة العراقية تسير منتصبة القامة . يرعبها ان يبدو نهداها مشرعين للعيون . ان نظرات الرجال واحاديثهم تتحول عندها الى نوع من الملامسة ، بل محاولة اغتصاب .

وعندما تتعمق هذا المظهر تجد وراءه رغبة الفتاة ان يستباح جسدها . ان الخلوة بالنسبة لها ، مع رجل تعني منحه جسدها . هذا مافعلته سهام في نفس اللحظة التي اغلقت فيها الباب الخارجي .

الوجه الثاني ، هو الذي ينكشف امامك حين تشعر المرأة بغياب الرجل

العـراقي . هنـا تحس ان الفتـاة تعيش حالـة انتعاش . حالة يقظة وكأنها تـستيقظ من خدر كان يلازمها . تنفتح روحها امامك فتجد ذلك المزيج من خفة الظل ، والذكاء والمرح . ترافق ذلـك جرأة غريبـة ، لاتتوقعها ؛ وتصبـح الفتاة مـستعدة لكل شيء ، دون خوف ، ودون شعور بالذنب .

اذكـر مرة انني اتفقت مع امـرأة ان تقـوم بتنظيف بيتي . انتظرتهـا على موقف البـاص . حين جاءت اقتـربـت مني ، ثم ادارت ظهـرها لي ، حتى كدت اشك انها تعرفني . جاء الباص فتبعتني وجلسـت بعيداً عني. كانت بعباءتها ، وانكماشها تجـيداً يحجب اي تواصـل . دخلنـا البيت وهي تتبعني عن بعـد ، في الداخل شرحـت لها ما اريدها ان تفعله . قلت لها انني سأخرج ، واعود بعد ساعتين . هزت رأسـها دون ان تقول شيئاً .

اطلت الغياب حتى اتأكد من انها انتهت من عملها . وحين عدت رأيت بيتاً نظيفاً ، لامعاً . التغيير الذي حدث فيه كان اشبه بالمعجزة . والمرأة ؟ شيء لايصدق قد حدث . لقد انقشعت عنها عباءتها وانكماشها وخوفها كما ينقشع الـسحاب الاسود الجهم عن وجه البدر . من وحول العباءة والخوف نبتت وردة .

لقيتها جالـسة في الصالون الواسـع جداً تقرأ في جريدة الحزب الشيوعي (طريق الشعب) ، وهي بتـاريـخ قديم . كانـت تلبـس فـستاناً ابيض به دوائر سوداء . وعندما دخلت عليهـا رفعت رأسهـا وابتـسمـت . أي وجـه ! عينـان سوداوان ، واسعتـان ، تضيئان ، وفم مكتنز ، وبشرتها لون العسـل . جلـسنا نتحدث . وامتد حديثنا ساعات .

بدأ الحديث بالسيـاسـة . تتعـاطف مع الحزب الشيوعي ، ولكنها لاتستطيع الحصول على الجريدة لأنها تسكن في حي شعبي . زوجها معتقل ، ابن عمها شيوعي اعدم منذ فترة قصيرة . تخفي هويتها في العمل .

وانتقل الحديث الى حياتها الخاصة . لها اربعة اطفال ؛ وهي تعمل فراشة في دائـرة حكـومية . تعيل اطفالها ، ولكن الدخل لايكفي ، فتضطر للعمل الاضافي . حدثتني عن ابنتهـا البـالغـة من العمر خمس سنوات ، كيف انها تصران تطبخ لنفسـها وتغسـل ملابسـها بنفسـها .

كانت لتلك الـسيدة تلك القدرة الفذة ان تجعل من احداث الحياة العادية مادة لحديث مبهج . كما كان حزنها نبيلاً تزيل حدته حتى لايجرح من يـسمع حديثها . لم

ارها بعد ذلك . فلقد هربت الى الشمال عندما بلغ الهجوم على الشيوعيين ذروته .
ولكن قدرتها الرائعة على المرح ، وقوتها في مواجهة الأحداث عاشت معي أياماً عديدة منحتني قوة كنت باشد الحاجة اليها .

وعندما لبست عباءتها وانصرف كنت اعلم انه في داخل تلك الكتلة السوداء حياة ذات جمال نادر ، وروحاً قوية ومرحة .

الوجه الثالث ، هو وجه الفتاة المتمردة على وضعها الذليل ، والتي تملك القدرة ان تعلن تمردها امام الجميع ، وتجعل الظروف الاجتماعية تخضع لشرطها . انها التجاوز .

هكذا كانت ليلى .

-٣-

دخل الخريف ، وبدأ الجو يميل الى الاعتدال .

خريف بغداد هو اجمل فصولها . روح الارض الذي انضجته الحرارة يفيض بعصارات حية ، بعطور الارض الخصبة . من خلال الخريف تبدو المدينة وكأنها تعتذر عن الصيف الذي مضى ، صيف حارق هدّ الاعصاب والروح . وعن شتاء قادم لص ، موحل ، قذر : شتاء لم تستعد له المدينة بالتدفئة المناسبة ، ولا بالمجاري ، ولا بالشوارع الصالحة للسير ، ولا بالمواصلات .

ويصيبني الاندهاش واتساءل : كيف اغفل الشعراء الخريف ، ونسبوا اليه كل صفات الكآبة والموت ، واحتفوا بربيع بغداد الثقيل بعواصفه الرملية الخانقة وحره .

ولكن نار الصيف وكآبة الشتاء الفظة حاصرتا الخريف من طرفيه . صيف هذا العام اخترق الخريف بجو راكد ورطوبة خانقة . كان الهواء ساكناً تماماً ، والاشجار بدت وكأنها مسخت تماثيل حجرية ، تنتصب دون اهتزازة واحدة.اوغل هذا الصيف الثقيل في الخريف حتى كاد يبلغ منتصفه . وكان اشد لحظاته هولاً حين يرتفع معدّل الرطوبة ، ويسكن الهواء حتى يصبح جثة هامدة ، عطنة ، فلاتحس نسمة تمر . وتغيب الشمس فتحس كأنك في قدر ماء حار . وفجأة يندفع مطر غزير ، ينسكب في خطوط مستقيمة وكأن السماء تصبه من برميل هائل الحجم . وخلال ذلك يداهمك عرق حار ، لزج ، تحس وكأنك تسبح فيه ، وتصبح كالمصاب بالربو ، تلهث ،

وتشهق فلاتجد الهواء .

وتود لو تموت . تكاد تصلي ، تضرع للهواء ان يجيء ، ان يملأ رئتيك ان يحرك كابوس الشجر المغسول ، المتوقف عن الحركة . تشعر انه من غير المعقول ان يستمر هذا الكابوس ، ولكنه يستمر .

اما شتاء هذا العام فقد اقتحم الخريف بضجيج مرعب ، ارتد عليه وانهاه بضربة هائلة . اندفع بزوابعه الكثيفة برملها الاسود ، وصقيعه الجاف الذي يخترق العظم ، ويستكن فيه ؛ ثم تدفق بمياهه التي تملأ الطرقات في دقائق قليلة ،وتصعد الى الارصفة ، وتقتحم الدكاكين والبيوت . الشتاء بوحله الاسود الكابي ، المخلوط بعفونة استقرت في مياه الشارع الآسنة طيلة العام . . . وخلال ذلك يكون الشارع خالياً من الناس ، طويلاً وفارغاً . كان خريف هذا العام ساحة نزال بين الصيف والشتاء امتد النزال حتى الغى المناطق المحايدة ، والغى كرم المقاتل وشرفه .

★ ★ ★

حدث ذلك في فترة الايام القليلة ، التي مهدت لهجمة الشتاء المبكرة . كنت ما ازال نائماً عندما جاءت سهام . احسست بها متمددة بجواري ، ساكنة ،عارية ، فضممتها الي ، وغمغمت :

ـ شلون دخلت ؟

قالت :

ـ باب المطبخ كان مفتوح .

سألتها عن الساعة ، فقالت انها التاسعة . عدت للنوم ، وانا افكر : كيف تركت باب المطبخ مفتوحاً .

لم تكن سهام بجواري . كانت تميل على وتقبلني . عند فتحت عيني ، ابتسمت لي . ومسحت بكفها على وجهي ، وقالت :

ـ الشاي .

قلت :

ـ الساعة كام ؟

ـ تسعة ونص .

ـ كيف دخلت ؟

مالت علي ضاحكة :

ـ قلت لك . باب المطبخ كان مفتوح .

ـ مين فتحه ؟

ـ انت تركته مفتوح .

ـ غريبه .

استيقظت وانا اشعر ان سهام غير طبيعية . شيء ما في ابتساماتها ، في تمددها ساكنة بجواري ، جعلني اشعر بذلك . وكانت غريبة بالفعل .

شربنا الشاي في صمت . لم تكن تنظر الي . قلت لها بعد قليل :

ـ مارحت الشغل اليوم ؟

ردت ببرود : اليس ذلك واضحاً ؟ كانت اجابتها قاطعة . نفذت الي كحد السكين . سألتها عما بها ، قلت لها انها غريبة اليوم . لم تجب . ساد الصمت بيننا بعض الوقت . سألتني فجأة إن كنت احب ليلى . قلت لها :

ـ احبك انت .

ـ صدق ؟

ـ طبعاً سهام . سؤالك غريب .

اخذت تتحدث عن ليلى . بنية حبابة ، احبها كثيراً ، اثق بها اكثر من اية فتاة اخرى . . . . وعندما تمددت بجواري على السرير كانت فاترة . كانت تريد مواصلة الحديث عن ليلى . سألتها عن السبب الذي يجعلها تكثر الحديث عن ليلى اليوم . قالت :

ـ ليلى حبابة .

قلت كانت ليلى حبابة دائماً ، فلماذا الحديث عنها الآن ؟ قالت : لكن ليلى شيوعية ؛ قلت : اعلم ذلك . قالت ان ليلى اختفت . لم تأت للدوام ، وعندما سألنا عرفنا انها اختفت .

منذ متى ؟ سألتها بلهفة .

ـ ماتدري ؟

لم يكن سؤالاً ، بل اتهاماً . وكان شيئاً في لهجتها يوحي بان الاتهام ذو طبيعة مزدوجة : انني اعرف باختفاء ليلى لأن هنالك رابطة سياسية بيننا ، ولأن هناك علاقة

سرية بيني وبين ليلى .

قلت :

ـ ماكنت اعرف .

ولكنها كررت سؤالها :

ـ ماتدري ؟

قلت :

ـ إش بيكي ، سهام ، اليوم ؟

قالت بلهجة مكابرة :

ـ اش بيا ؟

قلت لها انها تتحدث بطريقة رجال الامن . بهتت ، واخذت تنظر الي باستنكار وقالت :

ـ صدقه لله . هاي حجا تقولها عيني غالب .

سألتها : لماذا ، اذن ، تشككت في انكاري بمعرفة اختفاء ليلى ؟ هل اكذب عليها احتقن وجهها وقالت انها كانت تسأل فقط . قالت ذلك بصوت مختنق صغير ؛ واخفت رأسها في صدري .

واخذ جسدها يهتز بالبكاء .

ونسينا الموضوع كله بعد ممارسة الجنس .

* * *

ودعتني سهام ـ كما هي العادة ـ بوجه حزين وقور . قبلتني بسرعة وانصرفت نمت ساعتين بعد انصرافها . بدت في احلامي وكأنها تتجاهلني . صحوت في الثامنة . كانت الظلمة شاملة . حتى الضوء القادم من مصباح الشارع احتجب . مددت يدي واشعلت الضوء من مفتاح بجانب السرير . أكلت وجبة خفيفة ، وشربت القهوة ، وجلست اكتب . كانت رواية (السؤال) تنمو بين يدي دون مجهود . بدت وكأنها تكتب نفسها .

في التاسعة والنصف انقطع التيار الكهربائي . ظلمة حقيقية حطت . كان الكلام مايزال كثيراً في داخلي . اشعلت شمعتين وواصلت الكتابة .

كان الصمت ثقيلاً ، ثقيلاً كأن البشر انتهوا . الأصوات الخافتة بدت كهمس متآمرين ، وحيادين للغاية . وللحظة ، وانا اواصل الكتابة ، شعرت بالعالم يستعيد روحه البدائية ، العالم كما كنت اشعر به وانا طفل : صامتاً ومشحوناً باحتمالات غريبة ، مفزعة ومفرحة في آن واحد . تلكأ تدفق الكلمات . سمعت البوابة الخارجية تفتح عزوت ذلك للريح . ولكن حذراً فزعاً تولد وتخل في الكتابة . قلت لنفسي انها الريح ؛ ولكن فزعاً وشللاً استوليا علي . لقد سمعت البوابة الخارجية تغلق ، وتلا ذلك وقع خطوات .

توقف وقع الخطوات . اخذت انصت بتركيز . هل توقفت الخطوات ام ان ماسمعته كان بمجرد وهم ؟ كان الصمت حياً ، منذراً ، مسكوناً بالرعب كسكون افعى متحفزة . عاودت الخطوات مسيرتها . حاولت ان اجعلها وهماً ، ولكنها الحت في التجسد

نهضت فجأة . لقد سمعت خبطات واضحة ، محددة على زجاج باب المطبخ امسكت شمعة ، وسرت الى المطبخ . الخبطات تتواصل على الباب . قلت :

- ابوه ، ابوه .

لم يكن للخوف اثر في صوتي . على ضوء الشمعة رأيت الوجه الرائع حزيناً ، ساكناً ، مضغوطاً على الزجاج ، تحيط به هالة من الشعر الاسود منثور ، ومتساقط على الرقبة والكتفين . اسرعت وفتحت الباب . لم استعمل المفتاح لأنه كان ، كما تركته سهام ، مفتوحاً . صحت :

- ليلى ، ليلى ، مش معقول .

عبرت الى الداخل بسرعة ، وانا اردد :

- ليلى ، مش معقول . انت فين .

همست :

- عندك احد ؟

- لا . انت وينك ؟

قالت ، دون ان تبادلني حرارة اللقاء :

- ماتشعل الضو .

قلت :

- التيار مقطوع .

سبقتها اقود طريقها الى حجرة المكتب . تعثرت ، واطلقت صرخة خافتة . امسكت بيدها وادخلتها الحجرة ، واحتفظت باليد الباردة . توقفت قليلاً تتأمل الحجرة . سحبت يدها من يدي ، وقالت :

ـ كتب كثيرة عندك .

قلت :

ـ معظمها تيجي وحدها .

ورداً على تعبير التساؤل الذي انطبع على وجهها قلت :

ـ كتب دار الرشيد ، اهداءات ، استعارات ، سرقة .

لم ترد . سارت وجلست على الكنبة الجلدية الخضراء ، بذلك الاسترخاء الذي يميزها . وغطت وجهها بكفيها ، وكأنها تريد بذلك ان توقف هذا الحديث الذي لامعنى له عن الكتب . جلست الى المكتب ، اتأملها ، وقد اخذ عشقها يتسرب الي . مرّ بعض الوقت : انا جالس الى المكتب ، وهي تغطّي وجهها بكفيها . الى اين سوف ننتهي اذا بقينا على هذه الحال ؟ قلت :

ـ ليلى .

كانت العتمة في صوتي ، الحذر والتوجس . ابعدت كفيها عن وجهها ونظرت الي . قلت :

ـ هذا انت وين يابه ؟

صدمني الجرس الزائف لصوتي . مسحت وجهها بكفيها وكأنها تطرد النعاس ، ثم نظرت الي وابتسمت ـ اية ابتسامة بحق الله ـ ابتسامتها الحزينة المرهقة ، المضيئة رغم ذلك ، ثم مالت نحوي وقالت :

ـ لهجتك العراقية مضحكة . احسن نتكلم بالمصري .

وضحكنا . وكأن الضحك نبهها ، فقالت :

ـ عيني غالب ، سد باب المطبخ والباب الخارجي .

في محاولة لاضحاكها قلت :

ـ لهجتك المصرية تخرّب من الضحك .

ـ اعرف . لكن اللغة للتفاهم .

ـ للتواصل وانت الصادقه .

ـ للتواصل .
قلت بجدية ، مستعيراً حزنها :
ـ اتشاقى واياك . لهجتك المصرية ممتازة بجد .
نهضت . في الخارج بدا الليل قروياً . اغلقت الباب الخارجي بالتر باس ، وباب المطبخ بالمفتاح . وعدت . قلت :
ـ اخبارك ؟ احوالك ؟
ـ زينه .
وضحكت ، لأنها ليست كذلك . قالت :
ـ دا تشوف سهام ؟
ـ ايه .
احسست ان في اجابتي تملصاً من ذكر الحقيقة ، فاضفت :
ـ بتيجي كل يوم .
بدا عليها الذهول . مرت لحظة كانت شفتاها تتحركان دون كلمات ثم قالت بلهفة ، وبلهجة عراقية صميمة :
ـ إش وكت ؟
قلت انها تجيء في العادة بين الثانية والسادسة من بعد ظهر كل يوم . وسألتها عن سبب دهشتها . لم ترد . وساد الصمت بيننا .
كنت ارى في لقائي مع ليلى شيئاً فذاً ، ومن معطيات تنفي كل ماهو معقول او مقبول ، اجتماعياً ، لقاء يتم خارج المصادفات المألوفة ، وحتى خارج المفارقات التي تحدث في الحياة ، وفي الروايات . . . حدث فريد . . . رأيت انا ، نحن الاثنين ، سوف نعيش معاً وفوق قوانين الواقع اليومي . سوف نعمل سوياً . ساكون انا الغطاء العلني للمقاومة السرية . اراها وهي تخرج في الليل ، والانوار مطفأة ، وتعود في الليل . اما انا فاستطيع التحرك في كل الاوقات .
ـ وسهام ؟
قالت ليلى . فقلت :
ـ سنجد لها حلاً .
نظرت الي بدهشة . وادركت انني اجبت على تساؤل لي لاتساؤلها .
صمتنا ، دون ان نزيل الالتباس الذي حدث . وفجأة اضاءت الانوار .

قالت ليلى بهدوء :

ـ طفّي الضوا .

ـ كلها ؟

قالت ، بل الاضـــواء التي في خارج البيت والمطبخ ، ويكفي في هذه الحجـرة اشعال الاباجورة . نفّذت ماطلبت ، وعدت للجلوس . قلت :

ـ من غير ماأتدخل في شئونك الخاصة ، ماسبب انقطاعك عن العمل واختفائك ؟

قالت : الم تر بيان المكتب السياسي ؟ بعده اختفيت .

قلت :

ـ فين ؟

ادركت على الفور سخافة سؤالي ، فقلت :

ـ أسف للسؤال .

قالت :

ـ فين ؟ عند سهام .

جاء دوري لاندهش :

ـ سهام ؟

ـ ايه .

ـ مش معقول .

قالت :

ـ اهلها كانوا مسافرين .

وحاولت ان اتذكر إن كانت سهام قد قالت شيئاً عن ذلك ، ثم قلت :

ـ ماقالت لي .

ـ اعرف . اهلها يرجعوا الليلة بالطيارة .

سألتها :

ـ سهام ماقالت لك انها بتيجي يومياً هنا ؟

نظرت الي طويلاً ، نظرة ضاحكة ، معابثة ، محملة بلوم خفي ، دون ان تكون جادة في ذلك ، وقالت :

ـ سهام تقول قطعت علاقتها بيك .

ـ كيف كانت تفسر غيابها ؟

قالت وهي تنطلق في ضحكة طويلة :

ـ تقول انها بتداوم بعد الظهر .

قلت :

ـ صحيح . بتداوم هنا بعد الظهر .

لم يبد عليها انها استاءت لبذاءة التلميح . كانت تنظر الي نظرة غريبة جداً ؛ انتقلت الي كصدمة كهربائية . اخذ قلبي يدق بعنف . كان يدق في اذني . استطعت ان اقول :

ـ ليلى ؟

قالت بصوت مختنق ، هزّ كياني بعنف :

ـ اطفى النور .

كان صوتها مبحوحاً ، لاهثاً .

ـ ليلى ؟

قلت . فكررت :

ـ طفّي النور .

اطفأت ضوء الاباجورة . احسست انني اهبط الى قاع بئر مظلم . والصمت . كان صمت احتباس انفاس وتحفز ، لا صمت الاسترخاء . كنت اسمع ليلى تقوم بحركة غير مفهومة . ماذا يحدث ؟ حاولت ان اسألها . كان صوتي محتبساً . وقلبي يدق بعنف . ثم ناديت بهمس :

ـ ليلى . . ليلى . . . !

لم اسمع رداً .

ماذا افعل الأن ؟ هل اشعل الضوء ؟ ان مجرد التفكير في ذلك ملأني بالفزع . مر وقت لاأستطيع تحديده قبل ان اسمع صوتها . قالت :

ـ تعال اقعد يمي .

تظاهرت انني لم اسمعها . كررت همسها بوضوح وبطء :

ـ غالب ، تعال اقعد يمي .

ماذا افعل الأن ؟ لم يكن لي خيار امام همسها الملحّ ، الذي لم يتوقف . نهضت . احاول ان اتقدم ولكن المكتب يصدني من كل اتجاه .

همست بغضب :

ـ اش بيك ؟

ـ مش شايف .

همست بفحيح :

ـ اش بيك ؟ اعمى ؟

ـ ماد اشوف .

واخذت اتحرك في جميع الاتجاهات ، وانا ارتطم بالجدار مرة ، وبالمكتب مرة ، وبالمدفأة الكهربائية والكراسي مرات . امسكت يد صغيرة ، باردة بيدي ، وهمست ليلى :

ـ قرب امش ماتخاف ، اقعد .

ولكن على اي شيء جلست بحق الله . وتحسستها وقلت :

ـ ليلى ، انت عارية .

اطلقت ضحكة صغيرة . قلت :

ـ انني ثقيل عليك .

همست :

ـ قبلني .

وفكرت : كما في افلام التلفزيون المترجمة « قبلني » . قلت :

ـ فين وجهك ؟

ـ مادا تشوفه ؟

قلت :

ـ كل شيء اسود قدام عيوني .

ـ حتى انا ؟

ـ كل شيء .

احسست بها تهتز ، حتى فخذاها اللذان اجلس فوقهما . ففقدت توازني وكدت اسقط ، فتشبثت بنعومة طيّعة ، اكتشفت انه شعرها . قلت :

ـ كنت ح اوقع .

لم تهمس هذه المرة ، بل قالت بصوت خافت :

ـ ماانت عنيد .

اربكتني كلمة « عنيد » . مامعنى هذا ؟

لفت ذراعيها حول ظهري ، وامسكت برأسي ووضعته على كَتفها . سرى ارتخاء في مفاصلي فقلت بلسان ثقيل :

ـ رايح انام .

قلت بنعومة :

ـ نام ، عيني ، نام .

وكأنها تهدهد طفلاً .

هل نمت ؟

جذبت انتباهي حركة غريبة ، خارج حجرة المكتب ، في المدخل الذي يؤدي من البوابة الخارجية الى باب المطبخ . كنت استطيع أن ارى ذلك من الشباك المطل على المدخل . لم تكن الحركة واضحة في عتمة الفجر . ولكنني كنت ارى رجالاً يقتربون ويبتعدون عن بعضهم ، وكأنهم يلعبون لعبة ما . انفصل عنهم رجل استطعت تمييزه على الفور . انه لابس البدلة والكوفية الصفراء ، والوجه الشديد الصفرة ، الذي كان ضمن الرجال الذين استوقفوني وانا عائد في سيارة الاجرة للبيت . انفصل عنهم وضغط وجهه على زجاج الشباك ، واخذ ينظر في عينيّ .

فكرت : لقد وقعنا في قبضتهم ! ولكن ليلى ، فيما يبدو ، لم تتنبه الى وجودهم وكيف استطيع ان اشرح لها الموقف ، وعينا الرجل مثبتتان على عيني . بل ها انا ارى اثنان آخران ينفصلان عن كتلة الرجال ؛ وواحد يقف على يمين الرجل الاصفر الوجه ، والثاني على يساره .

ادرت وجهي قليلاً الى الشباك الآخر . كانوا هنالك ايضاً . كنت اعلم الآن انهم يقولون لانفسهم « هاهي البنية التي كان ينتظرها » . ولكن ماذا تفعل ليلى بالضبط ؟ لقد ادخلت يدها داخل بنطلون بيجامتي ، واخذت تعبث . همست لها :

ـ احنا محاصرين .

قبلت صدري وقالت :

ـ ماتدير بال .

ـ الشرطة ليلى .

ـ انت تحلم .

وضحكت ، وهي مصرة على عبثها .

★ ★ ★

مازلت جالساً الى المكتب ، وليلى جالسة على الكنبة الجلدية . مضى علينا وقت طويل ونحن نتحدث . لم اعد اذكر ذلك الحديث . اجل اذكر . كان وجهها في الظل ، لأن ضوء الاباجورة كان موجهاً الى الحائط . قالت انها تشعر بالبرد . فاشعلت المدفئة الكهربائية . فكانت بيننا روحاً انيساً ، اليفاً كقطة . ماذا حدث بعد ذلك ؟ اجل ، تذكرت . حدثتني عن اخيها ، الذي يبلغ الثالثة عشر من عمره . بعد اختفائها بثلاثة ايام اعتقله الأمن رهينة حتى تسلم نفسها . افرجوا عنه بعد اربعة ايام . لقد استعملوا معه الزجاجة المهشمة العنق . وقد اعتقلوا الطبيب الذي كان يعالجه .

يبدو انها تحدثت عن تلك الزجاجة طيلة ساعات كاملة . اتذكر ، انها تحدثت وكأنها كانت تكلم نفسها . قالت انهم يستعملون زجاجة بيبسي كولا صغيرة . استعملوها مع اخيها . هشموا الجزء الاعلى من عنقها ، وارغموه على الجلوس فوقها وادخلوها كلها في مؤخرته . انه بالاضافة الى الجروح الناتجة عن ذلك حدثت شروخ ، تحتاج الى شهور لعلاجها . وكيف يمكننا علاجها ، قالت ، وهم يعتقلون كل من يعالجه ؟

قلت :

- ليلى غيّري الموضوع .

- اغيّر الموضوع ؟

قلت :

- الا اذا كان الكلام يريحك . شاعره بالذنب ؟

قالت :

- لولاي . . .

قاطعتها :

- كانوا حايسووا معاك نفس الشيء واخوك كان رايح يعتقل على اية حال . لأنه راح يرفض دخول الحزب . . .

ربما كان الارهاق هو الذي دفعني الى ان اقول :

ـ سمعت انهم يستعملون مع النساء زجاجات مثل مهشمة . يمكن حتى يسهل عليهم ممارسة الجنس معهن .

انطلقت تضحك ، وقالت :

ـ ماهم يمارسوه مع الولد هينا .

ـ اعرف .

ـ تعرف ؟

قلت لها :

ـ كل الناس تعرف .

انتقلت ليلى بعد ذلك الى المسائل ، التي خجلت انا من طرحها . رداً على اسئلتها ، قلت ان الطابق العلوي ، الذي كان يسكنه ايوب فارغاً ، وتستطيع ان تستعمله كيف تشاء ، ولوقت غير محدود . شكرتني ، وقالت انها لن تطيل البقاء ، فهنالك خطة لخروجها من العراق . سألتها إن كان ذلك سهلاً ؟ قالت انها سوف تخرج من خلال الطريق البري الموصّل الى سوريا ، وانها سوف ترتدي الملابس الشعبية ، وتستعمل جواز سفر مزوّر .

هل ينجح هذا الاسلوب في الخروج ؟ سألتها . قالت انه ناجح حتى الآن . الححت عليها في القول انه لاداعي للاستعجال ، وانني اعتقد ان احداً لن يشك في وجودها في بيتي . قلت لها ان بقاؤ ها معي يسعدني .

في تلك اللحظة نظرت الي طويلاً وقالت :

ـ شكراً .

قلت لها ان تلك الرسالة كانت موجهة لها . قالت انها تعلم ذلك اما بالنسبة الى سهام فقد رأت ليلى انها يجب ان تجيء كالمعتاد ، وخلال مجيئها سوف تختبىء ليلى في الطابق الاعلى .

قلت :

ـ كالمعتاد ؟

ابتسمت وقالت كالمعتاد . يجب الا تثير عندها اية ريبة .

صعدت معها الى الطابق الاعلى ، وفتحت لها باب حجرة النوم . هبطت الى حجرتي ، وكانت الساعة فجراً .

جاءت سهام مبكرة جداً . استيقظت عليها وهي تتمدد بجواري بكامل ملابسها . قالت :

- اصح .

واخذت تمطرني بقبلاتها . قبلات سريعة صغيرة تتنقل على وجهي كله ورقبتي . كانت تلك وسيلة جيدة في الايقاظ ، وسيلة لذيذة ، وكأنها امتداد لحلم جميل .

قلت :

- الساعة كام ؟

- بالواحدة .

- كم ؟

وضحكت :

- بالتسعة .

واصلت تقبيلي . قلت :

- جايه بدري .

- ماتريدني أجي بدري .

ضممتها الي ، وقلت :

- اريدك .

قالت انها ، ولايام كثيرة ستجيء مبكرة . « لماذا ؟ ماذا حدث ؟ » قالت انها سوف تداوم بعد الظهر فقط . قالت « انهض الأن واستعد » قلت « استعد لأي شيء ؟ » قالت :

- دوام . شغل .

قلت :

- دوام ؟

ضحكت وقالت :

- الدوام الشغل نسيت اني رايحه اداوم هنا ؟

وتذكرت بشكل اني قلت ذلك التلميح البذيء « ماهيه سهام بتداوم هنا بعد الظهر » . ولكن كيف عرفت سهام بذلك ؛ هل بامكانها ان تعرف .

جلست على السرير في مواجهتها ، وهي متكئة على كوعها ، تطالعني بنظرة ضاحكة ، معابثة . قلت لها اني سابقى معها معظم الايام ؛ سوف اذهب الى المجلة بعض الوقت واعود بسرعة . قالت انه بامكاني ان اذهب للشغل واعود ، فتكون هي اقد اعدت الطعام ، واستحمت - قالت انها جاءت معها بقميص نومها - وبعد ذلك ننصرف الى الشغل .

الشغل ؟ مرة اخرى ؟

اتفقت مع ليلى الا اثير ريبة سهام ، ولكن مامعنى هذه التلميحات ؟

سمعت حركة خفيفة من الحجرة التي فوقي . صوت اقدام مسرعة ، ثم هبوط ثقيل مفاجيء . مابال ليلى لاتلتزم الحذر ؟ رأيت سهام توجّه نظراتها الى السقف وتبتسم .

هل انا في حلم ؟

نهضت سهام وقالت انها ستعد لي القهوة . وكان ذلك مناسباً تماماً . فانا بالفعل ، بحاجة الى قهوة تخرجني من هذا الخدر الذي انا فيه.كل شيء حولي - هاتان المرأتان خاصة - يبدو غير حقيقي ، وكأن تدبيراً ما قد أعد ، تدبيراً يحيط بي ويحاصرني ، وقد اصبح خروجي منه مستحيلاً .

كانت ليلى تتحرك في الحجرة العليا حركة لايمكن وصفها بالحذر الذي اتفقنا عليه . جاءني احساس بان هنالك ايقاعاً او نظاماً لحركة ليلى . اتكون رسائل سرية تبعث بها الى سهام ؟ هذه الحركة الخرقاء في الحجرة العليا ، وابتسامة سهام وهي تنظر الى السقف ، هل تندرجان في سياق اتفاق ما ؟

دخلت سهام الى الحجرة ، حاملة صينية القهوة ، فشهقت . كانت ترتدي قميص زهري اللون ، وقد تركت جدائلها تنساب على كتفيها . بدا في الوجه لمحة من ذلك التحفظ الانثوي الذي يسيطر على جسد مهدد بالانفلات والتبعثر . وفي الجسد المنساب تحت القميص بدا الجسد الانثوي بكل عطائه ، وخصبه . وكانت نعومة خضرة تحيطها كالهالة . كدت اصرخ : « احبك » ، وعلى الفور اخذت اقارن بينها وبين ليلى . امرأة حقيقية ، لامجرد دميه مزوّقة .

تمددت على السرير الواسع واضعة صينية القهوة بيننا . صبت القهوة مركّزة

نظرتها في الفناجين وقدمت لي فنجاني بذلك الحياد ، الغياب الانثوي .

اخذت اشرب القهوة وعيني عليها . مالت بجذعها الى الجانب الآخر وتناولت علبة السجاير . سحبت سيجارة واشعلتها ، ثم مدت لي اياها . واشعلت لنفسها اخرى . في تلك اللحظة تخيلتها زوجة . زوجة في قميص النوم هذا ، وفي حركتها وتعبير انها المحايدة .

عندما انتهينا من شرب القهوة والتدخين ضممتها الي واخذت اهذي هذيان عشق . ولكنها فاجأتني . كانت كلمات الحب ومداعباتي تدفعها الى الضحك . اربكني ذلك . قلت :

- سهام ، مالك ؟

ضحكت وقالت :

- ماادري .

ولكنني لم استطع ان اتوقف . ازددت اقبالاً ، وبينما انا في حمى العناق قالت انه علي ان انهض الآن .واحلق ذقني وافطر ، ريثما تعد هي الطعام . ولكنني كنت مصمماً ان اهزم ضحكها ، واسمع لهاثها المحموم . بدأت تستجيب ، وتبادلني العناق ؛ غير انني كنت اشعر ، انها بشكل ما ، لاتغالب الضحك . قلت لنفسي : يجب ان انهي هذه المهزلة ، وحاولت الابتعاد عنها . ولكنها تشبثت بي ، فاستجبت .

كنت احس بها تتفلت مني فاصبحت اكثر شراسة . كنت اود الاحتفاظ بها ، مهما كانت النتائج . عضضت كتفها القوي ، المستدير ، المتين العضلات ، فنظرت الي بعينين حزينتين ، وهمست همساً خشناً :

- لا ، وداعتك !

زادني ذلك هوساً ، فقحّت :

- انت تحبني ؟

- ماتعرفي ؟

- تحبني ، تحبني ؟

شعرت بذلك وكأنه نوع من المزاح . اعني ذلك القبول بالالم ، والتظاهر بعدم

فهم الدافع الحقيقي وراءه ، ونسبته الى الحب . وكأنها تداعب طفلا باغاظته .
عندها ، وهي تكرر « تحبني ؟ يحبني ؟ » انفلت عقال سادية في داخلي ، كنت اجهلها عن نفسي . سادية امتزجت فيها الرغبة . بشفاء غيظي ، بهوس التعجل باكتمال النشوة والانتهاء من هذا الموقف برمته . كان انينها المتألم ، المطالب بالمزيد من الالم ، هو منحتها لي . شعرت بالرضى وانا انتهي .

ثم سكنا كانت تخفي رأسها في صدري ، وتهمس فيه بشيء لم اتبينه . ولكن جرس صوتها كان يحمل ضراعة . ناديتها ، استجابت بشفتيها وانفاسها الثقيلة على صدري . قلت :

ـ متونسة ؟

ازدادت التصاقاً بي وكان ذلك ردها .

ولكن مامعنى هذا ؟ الاكف ليلى عن الحركة ؟ الاتهمد قليلاً ؟ وما بال سهام لاتنتبه لذلك ؟ هل . . . ؟ وخطر لي سؤال : من التي احبها ؟ حبيبة الليل ام حبيبة النهار ؟ ليلى ام سهام ؟ وامسكت بكتف سهام احتمي به من الاجابة .

تفككت سهام ببطء ، وذابت في استرخاء كامل . ناديتها :

ـ سهام !

فلم تجب . ملمت انها نائمة .

استيقظت بعد قليل ، وقالت :

ـ نمت ؟

قلت :

ـ دقائق .

نامت حوالي ربع ساعة . وعندما نهضت فعلت ذلك بحيوية . دخلت المطبخ واخذت تعد الغداء .

كنت قد قررت ان اصعد الى الطابق العلوي واطلب من ليلى ان تكف عن الحركة مادامت سهام موجودة . صعدت درجات السلم بهدوء ، حتى لا اجذب انتباه سهام شاهدت السلم تغطيه طبقة من الغبار . مقبض الباب ترك آثار غبار على كفي . فتحت الباب ببطء ، محاذرا ان يصدر عنه صرير قد يثير الانتباه . انفتح الباب بصعوبة . واسفله يحتك بالارض .

دخلت الحجرة . لاوجود لليلى . مامعنى هذا ؟ الحجرة خالية ومتربة ، لم

يدخلها احد منذ اسابيع طويلة . خرجت من الغرفة وبحثت عن ليلى في الحمام ، وعلى السطح . لاوجود لها .

عدت الى الحجرة . ادوات ايوب الرياضية ، ملابسه التي لايوجد فيها بذلة واحدة : مجرد قمصان وبنطلونات وكنزات ، والسرير لم ينم عليه احد.وكلها مغطاة بطبقة رقيقة من التراب .

كانت الحجرة تخنقني . خرجت منها ووقفت على رأس السلم ، واخذت ابحث عن آثار اقدام صعدت ليلة الامس على الدرجات المتربة . لاشيء ، لاشيء . وتذكرت فجأة . البارحة ، وبناء على طلب ليلى ، كنت قد اغلقت الباب الخارجي ، وباب المطبخ فكيف كان بامكان سهام ان تدخل ؟ حتى لوكانت تملك مفتاحاً ، فمن المستحيل ان تدخل من البوابة الخارجية دون ان يفتح لها احد من الداخل .

هنالك احتمال ان تكون سهام قد ارتقت سور الحديقة وهبطت منه . ولكن ، هل بامكانها ان ترتقي سوراً ، علوة ثلاثة امتار ، امام الجيران والمارة ؟ ذلك مستحيل ، فنحن في بغداد .

اخذت اهبط السلم ، وانا اتفحص درجاته باقصى قدر من العناية والتدقيق باحثا عن أثر اقدام ليلى . لاشيء سوى آثار اقدامي وانا صاعد . وبعد ؟ حجرة المكتب . . هي التي سوف تعطيني الجواب الشافي .

فتحت باب الحجرة بحذر . . . لماذا الحذر ؟ لست ادري . خطوات الى الداخل . وعلى الفور التقطت عيناي المشهد . وكأن ما مر بي لم يكن يكفيني . فهنالك على الكنبة الجلدية آثار جسد عار ، قد جلس عليها احد منذ وقت ليس بعيداً كانت الطبقة الرقيقة جداً من الغبار تحمل آثار الساقين ، في اتصالهما ، وحين ينفرجان . وعلى المسند آثار الظهر واضحة . حتى آثار سمانتي الرجل وهما ملتصقتان بحافة الكنبة بدا واضحاً .

اقتربت من الكنبة ، متوقعاً ان تزول بمجرد اقترابي منها . ولكنها الحت في الوجود . عاينت الأثار عن قرب : تخطيط جسد ليلى موجود بكماله . بل هنا ، ايضاً ، على مسند الكنبة أثر ذراعها . ثم خطرت لي الفكرة التالية : هل جاءت سهام اليوم ؟ هل وجدت سهام اصلاً ؟ انني لااسمع صوتاً لها . وخرجت من حجرة المكتب الى المطبخ .

سهام هنالك امام موقد البوتاغاز ، ترفع ذراعها الايسر بغطاء الحلة ، وبيدها اليمنى تحرك الطعام في الحلة بحركة دائرية . التفتت نحوي بشكل مفاجىء وابتسمت . فاضاء وجهها . وعندما اقول « اضاء وجهها » فانني اعني ذلك تماما .
ولّدت في داخلي رغبة هوجاء في ان المس سهام ، ان احتويها ، ولاافقدها ابداً . كم هي رقيقة ولذيذة ، وهي تعد الطعام ، وتلقي علي تلك النظرة الضاحكة الودودة . في وجهها حلاوة وخفة دم وفي جسدها تعبير فتوة عارمة . لقد اصبحت حركاتها وتعابيرها خفيفة ، انيقة . هاهي تقترب برأسها من حلة الطعام ، ثم تبعد رأسها وتقف منتصبة . تستدير وتنظر الي ، وتنطلق ضحكة صافية منها ، وهي تنظر الي . تغطي الحلة ، وتضع الملعقة فوقها وتسير نحوي . تقول بمرح :
ـ اش بيك قلب ؟
وتستدير لتعود ولكنني امسك بها واضمها ، وهي مندهشة ، تتساءل عما حدث لي ، وتشاركني العناق ، ثم تحاول ان تنفصل عني ، تقول ان الطبيخ سوف يحترق ، اقول لها : فليحترق . وتسألني عما بي ، فاقول لها انني احبها ، مفتون بها ؛ تبتعد وتقول : احلق ذقنك وتحمم وافطر ، امامنا النهار كله للحب .
بحركات ميكانيكية خالصة حلقت ذقني وتناولت افطاري . كنت شارداً ولكنني لاافكر في شيء كنت اعيش فراغاً خالصاً .
ثم طرأت لي فكرة ، احساس عام بدأ يتضح . هل سهام هذه العذوبة التي تشبه النسمة والحلم ، هي نفس سهام التي كنت اراها في حجرة الفيات . . . اعني سهام السمينة ، البطيئة الحركة ، الباردة كالرخام ، القاتمة كلون فستانها الكابي ؟ ان هذه العذوبة المفاجئة تضعها في ضوء مشوه . وهذا الطابع الاثيري الذي تبدلت فيه هذا الصباح يجعلها مهددة بالتلاشي في كل لحظة مثل ليلى .
وقفت بباب المطبخ اتأملها . تنظر الي وتبتسم ، ثم تعاود انشغالها بالطعام بعد قليل تقول لي ، دون ان تلتفت الي ، انني اربكها . قلت : لماذا ؟ قالت .
ـ تباوع لي بطريقة غريبة .
كان ذلك صحيحاً . فانا لم ارفع عيني عنها . ولكن ماالذي تعنيه بقولها انني انظر اليها بطريقة غريبة ؟
قلت :
ـ طريقة غريبة شلون ؟

قالت بخفة روح اسرتني :

ـ يعني هيجي .

ومحاولة ان تقلد نظرتي . كانت نظرة الابله الذي لايصدق مايحدث امام عينيه . وسألتني ، ماذا اسمي نظرة كهذه ؟

قلت :

ـ اسميها نظرة حب .

ـ صدقه لألله .

وعلى الفور احمرّ وجهها . اقتربت مني . قبلتني قبلة سريعة على جبيني ، ثم ابتعدت ، واخذت تعد السلطة . ظللت واقفاً اتأملها من الخلف ، وانا ارغب بجنون ان اعتصرها بين ذراعي ، انهش لحمها باسناني ، اجعلها لاتغيب عن عيني دقيقة واحدة ؛ ولكنني كنت اقاوم نفسي بضراوة . التفتت الي فجأة ، وهي تبتسم ابتسامة كبيرة ، وقالت :

ـ بعدك تباوع لي !

قلت :

ـ طبعاً .

اطلقت ضحكة رنانة ، متصلة ، وتوقفت يداها عن تقطيع السلطة ، وقالت :

ـ اش بيك اليوم ؟

واستمرت ضحكتها .

ـ ٥ ـ

استيقظت من نومي فزعاً .

كانت ظلمة كثيفة ، متراكبة ، لاتستطيع وانت محاصر بها ان تحدد الوقت ، او المكان . ماجعلني استيقظ فزعاً هو ان شيئاً مالمس وجهي . لمسة خفيفة مثلجة . احسست بها تستقر على انفي ثم تنساب . اخذت اصغي ، محاولاً خلال السمع ان اتعرف على حضور في مكان ما من الحجرة . لاشيء غير الصمت ، واصوات الحديقة تأتيني خافتة كأنها قوام الصمت وهيكله .

حاولت ان اعود الى النوم ، تاركاً ذلك الحضور يتلاشى من تلقاء ذاته ولكن حركة

ايقظتني . ليس صوت الحركة ، بل الحركة ذاتها . اخذت انتصت ، وانا مغمض العينين . لقد اهتز سريري . وبالمناسبة ، اين انا ؟ القاهرة ؟ عمان ؟ القرية ؟ . . تذكرت . . هذه بغداد . وانا في بغداد . وسهام كانت هنا . . . كانت ترتدي قميص النوم ، ومضت . فتحت عيني . لمع شيء اشبه بالنصل ، نصل خنجر . . . لا بل هنالك نقطتان مضيئتان عينا قطة يلمع فسفورهما في الظلمة ؟

قلت :

ـ مين ؟

كان صوتي مختنقاً فاعدت السؤال . ثم مددت يدي واضأت المصباح الذي بجوار السرير . كانت ليلى هناك . كانت تجلس على طرف السرير ، مديرة لي ظهرها ، ظهرها الانيق المنحوت بدقة تماثيل الالهات ، وقد التفت الي بعنقها الطويل ، وفي عينيها نظرة فائقة الود .

قلت :

ـ ليلى .

تنهدت ليلى وقالت :

ـ عيني ضايجة .

قلت :

ـ يديك باردة .

واحسست انني الومها . قالت بضيق :

ـ ضايجة ، ضايجة ، اقول لك ضايجة .

من الطبيعي ان يدركها الملل ، وحيدة في حجرة ايوب المتربة ، والساعة الآن قد بلغت العاشرة . . . ولكن هل ادركها الملل الى حد ايقاظي من نومي ؟ الم يكن بامكانها ان تنتظر حتى اصحو ؟

كان ذلك رد فعلي الاول . رد فعل انسان ارتوى من جسد امرأة أخرى . ثم تذكرت ان هذه هي ليلى ذات العينين الذهبيتين ، التي كانت اللحظة المضيئة في قتامة يومي ، وانها ، وانها امضت اياماً كثيرة وحيدة مع سهام ، وانها الآن بلا مكان تأوى اليه . واستعدت انها الآن وهي جالسة على هذا السرير تخوض معركة حتى الموت .

ثم فطنت :

ـ ما اكلت ليلى ؟

ـ اكلت .

ـ اش وكلت ؟

قالت انها اكلت منذ ساعتين . لقيت طبيخاً وارزاً في الثلاجة ، فاكلت كفايتها .

امسكت يدها . كانت مثلجة . قلت :

ـ ايدك مثلجة .

قالت :

ـ ادري . غسلت المواعين .

اخذت أدفيء لها يدها ، وحتى لا يساء فهمي ، قلت :

ـ شربت شاي ؟

ـ لا .

ردت بدهشة . قلت :

ـ ممكن تسوّي لنا شاي ، رفيقه ، اذا ماكو زحمة ؟

اطلقت تنهيدة ، فنهضت . ابتسمت وقالت :

ـ ممنونه رفيق .

وخرجت .

خلال غيابها راودتني مشاعر الندم ، والاحساس بالذنب . استعدت جلستها على السرير ، وهي تشكو بشبه نحيب : « ضايجه ، ضايجه ، رفيق . . » في حين كنت مستاء لأنها ايقظتني من النوم . الم يكن باستطاعتي ان استجيب بشكل اكثر انسانية ؟ وانتهيت عاشقاً . وخلال ذلك كانت سهام تظهر وتختفي ، في خيالي . بدت سمينة ، باردة كالرخام ، عابسة ، تقف بكل جهامتها بيني وبين ليلى .

عادت ليلى حاملة صينية عليها ابريق والاستكانات والسكر . وضعتها بيننا على السرير ، وجلست متربعة . بسمة اليفة ، خفيفة الظل على وجهها . قالت :

ـ عايز كام سكر ياسعادة البيه ؟

ـ معلقة صغيرة ياهانم .

انصرفت بتركيز الى صب الشاي واذابة السكر .

اخـذنـا نشـرب الشـاي في صـمت ، ورغبة في البوح يمتلىء بها قلبي ، ولكن ذكرى الجسـد الذي ارتويت منه تصدني . قالت فجأة :

ـ ماتخاف احد يدخل علينا ؟

ـ مش فاهم .

ـ مش فاهم ؟

ـ مش فاهم قصدك من السؤال . تحولت الى اللهجة المصرية :

ـ مش خايف حد يدخل علينا فجأة ؟

قلت :

ـ حايدخل ازاي ؟

ـ زي ما دخلت انا مبارح .

قلت لها انني اغلقت البوابة الخارجية بالترباس ، وباب المطبخ بالمفتاح . وهكذا فان احداً لن يستطيع الدخول الا اذا ضرب الجرس ، واذا فعل فلن افتح له واضح ؟

قالت :

ـ عيني ، اخاف موت ، اخاف لما اسمع الجرس يضرب .

قلت :

ـ كنت اعتقد انك اكثر صلابة .

ـ كنت . .

لمعت عيناها فجأة (بدهشة ؟ بغضب ؟) وقالت :

ـ سهام جت اليوم ؟

ـ ما حسيتي بها ؟

كنت مندهشاً بالفعل . قالت :

ـ ما حسيت . كنت نايمة .

تذكرت اننـا لم ننم البـارحـة حتى الفجـر ، وانهـا قالت لي انها لن تنام قبل ان تنظف الطابق الاعلى وتجعله مكاناً صالحاً للسكن .

قالت :

ـ اذن ، سهام بعدها تيجي لك ؟

ـ ماتعرفي ؟

ـ اعرف شلون ؟

واضافت ان سهام قالت لها ، انها اصبحت تعمل فترة ثانية بعد الظهر ، ولم تقل شيئاً عن مجيئها اليك .

ثم نظرت الي بحدة وقالت :

- اذن ، سهام تيجي لك كل يوم ؟

كنت خائفاً بالفعل . هذه ؟ ليلى ؟

قالت :

- اشوف ماترد .

- ما انا . .

قاطعتني :

- من الشتين للسته ؟

قلت :

- ما انا قلت لك .

- قلت لي ؟ اش وكت ؟

- امبارح ؟ نسيتي ؟

ضيّقت عينها ، فبدت وكأنها تعابثني ، وقالت :

- ايه مبارح .

اقترب جفناها ، وتاهت نظرتها ، ثم قالت : - ماأتذكر .

قلت :

- تكلمي بالمصري .

- لويش ؟

- بتصيري اكثر انسانية .

- تتدلل .

قالت ذلك بحزم ، واستمر التعبير الصارم على وجهها .

بعد فترة صمت قالت :

- مبارح ؟ قلت لي ايه مبارح ؟

- قلت لك ان سهام بتيجي يومياً من الشتين للسته .

قالت تستعجلني :

- وايه كمان ؟

ـ واتفقنا ، انا وانت ، اني مااقولشي لسهام انك موجوده هنا .
قالت بدهشة :
ـ ليه ؟
ـ اتفقنا . . .
ـ ما انا كنت مختفية في بيتها ، فايه اللي يمنع انها تعرف اني موجوده هنا ؟
قلت :
ـ انت اللي طلبتِ .
ـ وانت ؟
قلت :
ـ انا ؟ وافقت .
ـ وافقت انها تيجي كل يوم ، وانا هنا ؟
قلت :
ـ انت طلبت .
وتزايد انفعالها :
ـ وتمارس معاها الجنس كل يوم ، كل يوم ، وانا موجودة ؟
واشارت بيدها اشارة بذيئة .
قلت :
ـ ليلى ؟
كان سؤالي قد قيل بجرس ، وكأنني اتساءل : هل انت ليلى حقاً ؟ في حين اردت ان الومها على تلك الاشارة البذيئة . ولكنها كررت الاشارة البذيئة ، ومضت تقول :
ـ كل يوم ! كل يوم ! وبتصر انك بتحبني ؟
قلت لها :
ـ ماانت عارفة الحكاية .
ـ عارفة شنهو ؟
ـ الحكاية يعني .
تحولت ليلى الى لهجة عراقية ، واخذت تزعق :
ـ الحكاية يعني ! ماانت عارفه ! عارفه الحكاية ! عارفه شنهو خوي والحكاية

صمتنا ، نحن الاثنين . صمتنا طويلاً . ثم تكلمت . كانت تحدث نفسها قالت : إنها تحاول ، تحاول جاهدة ان تتذكر ، ولكنها عاجزة ، عاجزة تماماً . لم تعد تتذكر شيئاً . اجل ، من المستحسن ان تستمر سهام في المجيء كل يوم ، وأن تفعلا ماتفعلانه كل يوم ، وان لاتعلم ان ليلى موجودة هنا . سأضع اذني لصق خشب السرير ، واصغي لتأوهاتها . . . هل تتأوه كثيراً ؟ عندها سوف اعلم ان كل شيء على مايرام .

ثم صمتت .

قلت :

ـ ليلى .

لم تسمعني . بدت تائهة تماماً ، وكأنها نسيت نفسها ونسيتني . كان من الواضح ، ان كل مانفعله ومانقوله كان في اطار ذلك الغياب الكثيف عما حولها . بدت لي محاطة بمجال من الرهبة ، وكأن مجرد اقتحام ذلك المجال سوف يصعقني . وانا خلال ذلك اتساءل : « اين كانت تختفي ليلى هذه . . . ؟ » واتذكر ليلى ذات العيون الذهبية .

مدت يدها ، وهي ماتزال في ذلك الاستغراق ، واخذت تداعب كتفي ثم زحفت يدها واخذت تداعب ابطي . فانفجرت ضاحكاً . ولكنها لم تتوقف ولم تلاحظ الضحك الهستيري الذي انطلق مني .

انتفضت فجأة وقالت بلهوجة :

ـ عيني عباس . انا مخربطة .

قلت وانا ابعد يدها التي تداعب ابطي :

ـ عباس ؟

ـ اقول انا مخربطة . انسى هوايا اشياء .

ولفتني الدوامة ، وعبرها كنت انظر الى ليلى . تفرّست في وجهها فاجتاحني الرعب : بحق الله . . هل كنت اعمى ؟ هذه ليست ليلى ، لاعلاقة لهذه الفتاة بليلى . . . كيف انخدعت . . . وتضيء في ذهني لمحة تذكر خاطفة . . هذه ، ايضاً ، اعني تلك التي جاءت اليوم ، لم تكن سهام . اعرف ذلك . كنت اعرفه . كيف ؟ كيف ماذا ؟ هل اسأل هذه الليلى ؟ يشلني الرعب . احاول ان اتكلم ، فلا يصدر عني صوت . امد يدي لالمسها ، فلا استطيع . اجاهد ، فانجح واقول :

ـ انا في حلم ؟

تنظر الي الفتاة بعينين سوداوين ـ بنفسجيتين ، كعيني فتيات الاعلانات . . . عينين لاتقولان شيئاً .

ـ ٦ ـ

فاجأتني سهام اليوم مرتين . لم تعطني فرصة كافية لفهم ملابسات الموضوع ، وبالتالي فرصة للتوضيح ، والدفاع عن نفسي .

في المرة الاولى كنت جالساً في الحجرة المخصصة لي في المجلة ، وكان يزورني صحفياً في احد الاقسام الثقافية التابع لاحدى الصحف . قال انه يريد اجراء حوار معي . رحبت به وبالحوار . تقدم الي باسئلة مكتوبة ، وقال انه يفضل اجابات مكتوبة . بمجرد اطلاعي على الاسئلة اكتشفت اللعبة على الفور . كان باختصار يريدني ان اكتب له مقالاً ، يحمل اسمه . وإلا فما معنى توجيه اسئلة من نوع : ماهي ، برأيك ، العلاقة بين الشكل والمضمون ؟ ماهي العلاقة ؟(في رأيك ايضاً) بين الايديولوجية والادب ؟ ماذا تعني بعبارة (الادب الثوري) ؟

كنت قد حزمت امري على رفض اجراء مثل هذا (الحوار) . سمعته يقول :

ـ الآنسة تريد ان تكلمك ، اعتقد .

وبالفعل رأيت سهام واقفة خلف زجاج الواجهة ، ترمقني بنظرات غريبة . ابتسمت ، وحاولت النهوض ، وانا اقول :

ـ اهلاً تفضلي .

تستدير بحركة عنيفة ، وتدخل حجرة الفتيات .

مامعنى هذا ؟ كيف تخلت عن ذلك التحفظ ، والتظاهر بانها لاتعرفني ، ووقفت تطالعني بنظراتها الغاضبة ـ أجل غاضبة ـ امام الجميع وكأنها تشهدهم على وجود علاقة بيننا ؟ ثم ، اليس من المفروض ان تكون سهام في اجازة ، وان تكون في هذا الوقت بالذات تعد طعام الغداء ؟

اربكني هذا السلوك الغريب ارباكاً شديداً . وقد استغل الصحفي الوغد ارتباكي ، واخذ مني وعداً بان يكون الرد مكتوباً وجاهزاً على اسئلته بعد ثلاثة ايام . بل جعلني احدد الساعة - الحادية عشرة صباحاً - التي سوف اسلمه الاجوبة فيها .

ثم نهضت لانصرف ، وقد اثرت ضجة في انصرافي لانه سهام . كنت متأكداً انها تراقبني . استوقفني احد الزملاء واخذ يحدثني عن قصة انتهى من كتابتها ، ولكنني غادرته قبل ان يتم حديثه ، وانا اقول له : « مستعجل ، مستعجل جداً » وانطلقت باقصى سرعة لاثبت له مدى استعجالي .

لم اساوم سائق سيارة الاجرة الذي اخذني الى البيت . وكان معنى ذلك بذاءات وسباب ، وربما معركة ، إن لم ادفع له السعر الخرافي الذي يطلبه . سادفع وامري لله .

في البيت كان كل شيء على حاله ، كما تركته في الصباح . لم تكن سهام موجودة بالطبع ، ولسبب غير مفهوم اشعرني ذلك بالراحة . صعدت الى حجرة ايوب ، في الطابق الأعلى . كان قلبي يدق بعنف وكنت الهث ، توقفت قليلاً لالتقط انفاسي . وعندما فتحته كانت الحجرة فارغة ومتربة .

هبطت السلم فرحاً . كل شيء على مايرام . ساتناول غذائي ، وانام قليلاً ، ثم اواصل كتابة الرواية . من حقي ان انال يوماً اكون فيه وحيداً ، وبعيداً عن سهام وليلى .

ثم رأيتها تقف في وسط المطبخ . بمجرد ان رأتني سهام اتجهت نحوي بخطو سريع . كان وجهها ينذر بالخطر . لم تتح لي فرصة للترحيب او التساؤل ، بل قالت على الفور :

- وين ليلى ؟

- ليلى ؟

قالت بعنف والحاح :

- ايه ليلى ، ليلى ! وين ليلى ؟

كررت تساؤلي :- ليلى ؟

قالت بصراخ :

ـ ليلى ، ايه ليلى ! وينها ؟ جاوبني .

قلت :

ـ اش بيك سهام ؟ انخبلت ؟

ـ انت المخبل . وين ليلى ؟

قلت ببرود :

ـ إش مدريني .

وصعدت السلم المؤدي الى الطابق العلوي . بدت لي ككرة انطلقت من فوهة مدفع . تبعتها ببطء . سمعتها تفتح حجرة ايوب ، ثم تفتح الخزانة . عندما دخلت كانت راكعة تبحث تحت السرير . وحين رأتني ادخل الحجرة ، قالت :

ـ وينها ؟

ـ اعقلي ياسهام .

ـ آني مخبلة . بس اريد اعرف ليلى وينها ؟

وضعت يدي على كتفها وقلت :

ـ سهام اعقلي حبابه .

تكلمت بهدوء مشحون :

ـ عيني اريد انقذك . الامن وراها ، ويعرفون انها عندك .

فوجئت :

ـ الامن ؟ منين عرفت ؟

ـ عرفت .

وانطلقت الى السطح تفتش الزوايا ، خلف خزانات الماء . كان فشلها في العثور على ليلى يزيدها حنقاً وهياجاً . تلتفت الي بين الحين والحين وتقول :

ـ الليله يجوك .

قلت لها :

ـ طزفيك وفيهم .

هبطت السلم وجلست في الصالون . قلت لنفسي : يجب ان انهي ذلك كله ، واغادر هذه المدينة . قدّرت ان سهام سوف تكتشف ان جميع شكوكها لااساس لها من الصحة . والاغلب انها سوف تنصرف بعد قليل .

مضى بعض الوقت وانا لااسمع لها صوتاً . هل انصرفت ؟ لااعتقد . لو انها

انصرفت لسمعت صوت البوابة الخارجية وهو يفتح . لاعطها بعض الوقت ، تزيل فيه الغبار عن شعرها . اية مجنونة سهام هذه !

انفجر باب الصالون كقنبلة . وتذكرت ان الباب لايفتح الا بهذه الطريقة . ومن خلفه بدت . . . من ؟ . . . سهام . كانت ترتدي قميص نوم من الحرير الطبيعي الابيض ؛ ومنه بدا نحرها وعنقها بلون الحليب ، وشعرها الاسود الفاحم يهبط على كتفيها . سارت نحوي ، تنظر الي بعينين مضببتين بالدمع وجلست على وركي . وضعت رأسها بين كتفي والرأس . وسكتت . احسست بارتعاش جسدها ، وبدموعها تبلل خدي . همست :

ـ سهام .

لم ترد . همست لها :

ـ سهام حبيبتي .

ازداد بكاؤ ها . قلت :

ـ اش بيك ؟ اش صارلك ؟

قالت :

ـ احبك .

ـ ادري لكن شنهي حكايه ليلى ؟

سمعت ضحكتها ، وقالت خلالها :

ـ أني مخبلة .

ـ ٧ـ

كان اشبه بالدهليز ، ذلك الذي وجدت نفسي في داخله . كان رطباً ، دافئاً ، واشم فيه عطور قديمة . كنت اقول : هذه رائحة المسك ، وهذه العنبر ، وهذه العود . . . وانا اعلم انني اخدع نفسي . . . فالرائحة غير محددة ، رائحة جسد معطر ، يكاد يكون لها ملمس ، ولكن بدون تحديد . كانت رائحة تماس وألفة .

واسير في ذلك الدهليز ، وانا انظاهر بانني اعرف طريقي تماماً . ولكن حقيقة الامر كانت مختلفة . لم اكن اعرف اين انا ، ولااين ينتهي بي ذلك الدهليز ؛ غير

اني كنت اعلم بغموض ، ولكن بثقة ان هنالك محبين يرعونني رعاية فائقة ، ويوجهون خطواتي ، وان لاخطر على الاطلاق .

كان الدهليز يضيق ، ويلامسني في اكثر من موضع ، ولكنه كان ليناً ، رطباً بل مبلولاً بسوائل دافئة . ولم يكن ذلك يزعجني باية حال . . كنت جائعاً وحسب ، واود لو توفر لي مقدار كبير من الحلويات .

تبينت طريقي الآن . انا اصعد السلم المؤدي الى الطابق العلوي ، حيث حجرة ايوب . السلم كان غريباً . درجاته فسيحة ، وعلى جانبي كل درجة زهور كثيفة ، فاقعة الالوان ، قد وضعت في اصص غير مرئية لكثرة الزهور والورود . بدا لي ذلك شبيهاً بعيد الورود الذي اقيم في جنينة الاورمان في القاهرة . لماذا اقول جنينة الاورمان ؟ لقد اقيم في المتحف الزراعي . ماأهمية ذلك !

المهم انني اخذت اواصل الصعود ، فرحاً ، دون ان اشعر بارهاق لصعود السلم .

دون مقدمات لقيت نفسي في حجرات ايوب . كانت حجرة اخرى ، نظيفة بسيطة ، مرتبة ؛ ولكنها حجرة ايوب . وكانت ليلى هناك التي استقبلتني بمودة ، وقالت :

ـ اعرف انك تموت جوعاً .

قلت لها :

ـ مشتاق لك جداً ، جداً .

ولم اكن صادقاً تماماً ، فشوقي الى الطعام كان اكبر . وعلى الفور سحبت صينية من خلفها ، ووضعتها بيننا . كان عشاء خفيفاً : بيض مسلوق ، سلطة ، جبنة ، خبز . كدت اعلن غضبي صريحاً ؛ فلقد كنت اتوقع طعاماً آخر ، اكثر وفرة ودسامة . ولكنها حين وضعت الصينية بيننا ، وحين دعتني الى تناول الطعام ، كان مرسوم على وجهها تعبير خجل وترقب ، وكأنها تتوقع اطراء لتقديمها الطعام . فاقبلت على الطعام .

كنت آكل بشهية هائلة ، ولكنني لااحس للاكل طعماً . وكان احساس بالجوع يتزايد . كنت اود ان اطلب اليها ان تأتيني بكمية كبيرة من الحلاوة الطحينية . فهي وحدها القادرة على تخفيف هذا الجوع المخيف الذي اشعر به . ولكنني بدلاً من ذلك اخذت اقول كلاماً آخر .

قلت : ليلى ، انني الآن ، في هذه اللحظة اكوّن افكاراً خاطئة . كانت تعلم ماأقصده ، ولكنها بذلك التحفظ المؤدب ، الذي نصطنعه امام أناس غرباء ، حتى نفهمهم ، انا حين نستمع اليهم فانا في حقيقة الامر نفعل ذلك مرغمين . قالت : عن ماذا ؟ قلت : عن الزواج . لم تندهش . بدا انها توقعت ذلك مني ، فلذا جاء صوتها بلاعمق ، رتيباً ، تسأل لمجرد ادارة الحديث : كيف ؟ وتنهدت لأنها ادركت ـ كانت تعلم تماماً ـ مااريد قوله .

كانت الانفعالات تشتعل في داخلي ، وتتوهج الى حد البكاء ـ اود ان احطم هذا الحاجز الجليدي التي تقيمه ليلى بيننا حقيقة مشاعرها وقلت ان هذه السعادة التي اشعر بها وانا معك ، الآن ، سعادة تتحول الى نقيضها ، فاود ان ابكي ولاأتوقف ابداً . . . هذه الحجرة مثلاً ، المنتزعة من قصر في الجنة ـ تذكرت السلم الذي صعدته منذ قليل : الورود والزخارف والهواء النقي كالبلّور ـ وهذا البيت الكبير جداً والخالي جداً كبيوت القصص ، وحديقته الكبيرة ، بيت وحديقة مسكونان بارواح لطيفة ناعمة ، وارواح اشباح مخيفة ، تكتب عنها روايات رعب وحب وجنون . . قالت :

ـ جنون ؟

وادركت على نحو بهم انني اهنتها دون قصد ، فقلت بحدة : جنون . . نعم جنون ، لأنك اعقل انسانة في الكون . . . وانت جميلة ، جميلة مثل . . مثل . . .

قالت وكأنها تتحداني :

ـ استمر !

قلت : هذه كلها فخاخ ، فخاخ ياليلى . . . واود ان اقول شيئاً فيتوه مني ، وانا مطالب ان استمر ، فاصيح :

ـ ليلى .

فتقول :

ـ اسمعك .

واخذت توجّه الي نظرة ثابتة ، لامعة ، تكاد تبدو عمياء . بدت عيناها تزدادان اتساعاً ببطء ، تسعان ؛ وقلت لنفسي بفزع ، هذه ليست ليلى ، انها في سبيلها لأن تصبح فتاة اخرى . قلت : ياليلى ، انك تخيفتني . قالت :

ـ فهمت الآن ؟

قلت :

- فهمت .

فابتسمت ، واضاء وجهها فتأكدت انها ليلى . نظرت الي طويلاً ، وابتسامة عابثة على وجهها ، ثم اقترب وجهها من وجهي ولامسه ، وهمست شيئاً لم اتبينه ، قلت :

- نعم ؟

قالت :

- وسهام ؟

مرة أخرى شعرت بذلك الدوار ، ودخلت تلك المنطقة الغريبة ، منطقة الكوابيس ، حيث تتحقق اعمق واروع الرغبات في ظرف يفقدها كل طعم وكل متعة . سهام ؟ اي سؤال حقاً ؟

لسبب غير مفهوم صحت :

- قلت لك انا عايز حلاوة طحينة .

اشارت باصبعها . وقالت ببرود :

- قدامك .

وفعلاً كانت هناك ، اكوام منها . ولكنني لم اعد ارغب فيها .

قلت :

- مش عايز .

قالت :

- انت حر .

صمتنا . احنيت راسي لاهرب من نظرتها اللائمة . وخلال ذلك كنت اعلم ان تحولات غريبة تحدث حولي . وان علي ان استعيد احترام ليلى حتى لاتصبح امرأة . قلت :

- بحبك .

قلت ذلك بهمس ، وانا مطرق ، حتى ابدو اكثر اقناعاً . رفعت راسي ببطء ، وهنالك كان ذلك التجهم ؛ وتلك النظرة الصارمة الغاضبة . . . لماذا اخفي الحقيقة ؟ كانت تكرهني في تلك اللحظة . قالت بهمس مشحون بوعيد احسسته رهيباً :

ـ وسهام ؟

قلت :

ـ مالها ؟ انا بحبك انتِ .

قالت باللهجة المصرية التي تتقنها :

ـ مش بتجي لك كل يوم ؟

ـ ايوه

ـ مش بتهارس معها الجنس كل يوم ؟

قالت ذلك واضافت الى ماقالته حركات وكلمات بذيئة جداً . ولكنني ابتسمت ابتسامة المذنب وقلت :

ـ ايوه .

قالت بشراسة :

ـ وبتقول وبتصر انك بتحبني ؟

ـ طبعاً .

قالت بعصبية :

ـ طبعاً . . طبعاً . . . ايه هوه اللي طبعاً ؟

قلت ، وكأني اناديها :

ـ ليلى .

ـ سامعاك .

قلت :

ـ ماتنسي انا في عصر الامومة .

حدثت امور غير محددة . تبدو ليلى حزينة وحانية ، وانا احاول ان اوضّح لها بعض المسائل . قلت :

ـ نسيتي ياليلى ؟

ـ نسيت ايه ؟

ـ بطّلي سرحان ، وخليك معايا .

ـ حاضر .

قلت :

ـ من البداية . كانت الرسالة موجهة لك . واضح ؟ وانا اعطيتك اياها ؟

فاكرة ؟ كنت اعتقد ان اسمك سهام . واللبس ممكن في ظروف بغداد . وصار اللي صار .

ـ مش فاكره .

ـ مش فاكره ؟

ـ ايوه مش فاكره . بس اذا كان خطأ زي مابتقول ، ماحاولتش ليه تصحيح الخطأ ؟

ـ ازاي ؟

قالت :

ـ ازاي ؟ انت كنت بتحبني انا ، اناالذاتي ، مش كنت بتحبني لأن اسمي سهام .

ـ اذن ؟

قالت :

ـ المسألة واضحة .

قلت وكأنني استنجد :

ـ ليلى !

ـ نعم ؟

ـ انت فقدت الذاكرة ؟

ـ لا .

ـ اذن ؟

ـ اذن ايه ؟

ـ ايه معنى الكلام دا كله ؟

اخذت تصرخ بهستيرية : كيف ، قل لي كيف تستقبل فتاة كل يوم في بيتك ، كل يوم ، كل يوم ، وتمارس معها الجنس كل يوم ، ولم تحاول ، ولو لمرة واحدة ، ان تشرح لها انها لم تكن هي المقصودة . وبالمناسبة ، لماذا الجنس كل يوم . وطيلة الوقت. الم تكونا تأكلان وتشربان . . ؟ جنس فقط جنس ولاشيء غير الجنس .

قلت لها ان هذا غير صحيح . من قال لك هذا ؟ بالعكس كنت احاول ان ارفع مستواها السياسي .

ضحكت طويلا ، وعندما سالتني اعترفت اني اكذب . عاودت خطبتها بحمية اشد : جنس فقط جنس . . .

قلت :

ـ ليلى مش معقول .

ـ عايزه افهم .

قلت :

ـ ليلى . . .

ولم تدعني اتم عبارتي . قاطعتني قائلة :

ـ شلون خربطات هذي !

قالتها بمرح انفلت عقاله ، بذلك التهريج الخفيف الظل ، وفي عينها لمع ذلك البريق الذي هزني من اعماقي . وكانت تلك اشارة البدء . اندمجنا فوق سرير ايوب في عناق ـ عراك صاخب ، ضاحك ، لاهث . امتزج الجسدان ، وسمعتها تقول وهي في قمة ذلك الاندماج « نسينا الأكل » اطبقت على فمها . وانا اقول :

ـ الكلام المناسب في الوقت المناسب !

شعرت بجسم صلب تحت البطانية جنبي فآلمني . انفصلت عن ليلى وامسكت به . والبطانية تحيطه . وسألتها :

ـ ايه ده ؟

هدأت ليلى تماماً ، واخفت وجهها بكفيها ، ولم تجب . كان ذلك الشيء بيني وبين ليلى فلم استطع استخلاصه . كررت سؤالي :

ـ ايه ده ؟

ـ قزازه .

ـ قزازه ؟

وانهض . وارفع البطانية ، واجد زجاجة جوني ووكر فارغة ، وبدون غطاء . امسكها واتأملها ، واتساءل : ماالذي جاء بها ؟ وانظر الى ليلى مستفسراً . تبادلني النظر ، دون ان تقول شيئاً . اسألها : ماذا تفعلين بزجاجة فارغة ، بحق الله ؟ فتجيبني بصوت اخشنه نحيب مكتوم .

ـ ماتعرف ؟

قلت :

ـ لا .

ـ لا ؟ ماتعرف ؟

وكأنها تتهمني . اضافت :

ـ اتدرب عليها .

وفجأة فهمت . قلت :

ـ على هذه ؟

ـ ايه .

ـ بس هاي كبيرة .

قالت :

ـ اعرف .

ـ لكن هم يستعملوا قزايز بيبي .

قالت بصوت شاك :

ـ اتدرب على الكبيرة ، علشان الصغيره ماتشلمني .

قلت لها ان من الافضل ان تتدرب على نفس الزجاجة ، زجاجة البيبي . واصلت كلامي بهدوء وحيادية : على كل حال اعتقد انهم في حالة فتاة جميلة مثلك سيستخدمون الرجال . اعتقد ذلك . ولن يكونوا اكثر من ستة اوسبعه ، اوعشرة على الاكثر . وربما يختارك الكبار انفسهم . ليش لا .

قالت : انها تتمنى ان يكتفوا بذلك . ياريت . ولكن من يضمن . الانسان يجب ان يكون مستعداً لكل الاحتمالات . على كل حال ، التدريب على زجاجة الجوني ووكر ، جلست عليها نصف ساعة كل يوم تقريباً ، يجعل كل ماعداها سهلاً . الاترى ذلك ؟

قلت :

ـ معقول .

ثم قالت وهي تبتسم ابتسامة خجلة :

ـ معقول ؟

قلت :

ـ تحبي اساعدك ؟

نظرت الي بذهول . قالت :

- تساعدني ؟

وانطلقت في ضحك هستيري . تحني رأسها وتضحك . ترفع رأسها ، تحاول ان تقول شيئاً ، فيمنعها الضحك .

قلت بلعثمة :

- يعني ، ليلى ، كنت بحاول يعني . . .

احتوتني بين ذراعيها وجسدها يهتز بالضحك . قلت :

- بطلي ضحك !

فمها الذي يضحك على فمي ، وايقاع الضحك في جسدها يجعل صدرها يلمس صدري ويبتعد ، وهي خلال ذلك تقول :

- تريد تساعدني ؟

- وليه لا ؟

وتغرق في الضحك .

اشعر ببلاهة وضعي ، فأتخلص من عناقها ، واهبط من السرير . اقف وامسك بالزجاجة ، واتأملها . افحص عنقها بتدقيق . العنق ليس مشكلة ؛ ذلك الانفلاش المريع هو الرهيب حقاً . فجأة اقذف الزجاجة من النافذة المفتوحة . كيف تركناها مفتوحة في هذا البرد ، وفعلنا كل مافعلناه امام عيون المتلصصين ؟ سمعت الزجاجة تهوي محدثة ضجيجاً وهي تصطدم بفروع الشجر والاعشاب . ولكنها لم تتحطم .

سرت الى النافذة واغلقتها . رأيت رأس شخص يظهر من وراء خزان المياه ، القائم فوق سطح البيت المقابل ، ثم يختفي بسرعة . جذبت الستائر ، واتجهت الى ليلى ، وقلت لها :

- من هنا وطالع تدربي على قزازة بيبسي كولا .

كانت تجلس هادئة ، وفي وجهها خوف . قلت بصرامة :

- مفهوم ؟ قزازة بيبسي كولا .

هزت رأسها وقالت بصوت خافت :

- مفهوم .

جلست على السرير انظر اليها . قالت :

ـ زعلت مني ؟
ـ لا .
ـ لا . زعلت .
ـ لا . مازعلت .
قالت ، وكانت على اهبة البكاء :
ـ انا آسفة .
واحنت رأسها .
لم اكن اريدها ان تبكي . ماكنت استطيع تحمل ذلك . ملت نحوها ولمست شعرها بشفتي . ثم احطت كتفيها بذراعي . قلت :
ـ ليلى حبيبتي .
أخذ جسدها يهتز (ابا لضحك ام بالبكاء ؟) . همست لها بكلمات رقيقة وقد اخذ البكاء يخنقني ، واخذت اضغط بخدي على شعرها . رفعت الي وجهاً جميلاً ، بريئاً كوجوه الملائكة . البكاء (ام الضحك ؟) جعل وجهها اكثر رقة وحساسية . كان جمال ذلك الوجه موجعاً .
ـ ليلى .
ـ نعم ؟
ـ احبك .
عدلنا وضع اجسادنا ، ونحن مانزال متماسكين ، وشيئاً فشيئاً ، انسجمت اجسادنا ، واستغرقنا في عناق باك لاهث ، صامت ، ثم اخذت ليلى تتأوه وتئن . كانت تردد :
ـ فدوى ، عيوني ، فدوى . . .
وكلمات مبهمة .
خلال ذلك ، وبنصف وعي ، اسمع باب المطبخ يفتح (ام تخيلت ذلك ؟) واسمع خطوات تتجول . اسمع همهمة وصوت ادوات المطبخ يتم تحريكها . بدا من استغراق ليلى في العناق والانين ، ومن عبارات التأوه والضراعة انها لم تسمع شيئاً احاول ابعادها عني ولكن تشبثها بي يزداد . احسست بها تطوقني بيدين يستحيل الفكاك منهما . اقول :
ـ ليلى .

فتهمس همساً مختنقاً خشناً :
ـ اسكت .
وتندفع في العناق الذي بدأ يتخذ طابعاً عنيفاً . وقد اصبح ذراعاها كطوقين من الفولاذ المرن . وتقول بهمس مليء بالعنف :
ـ اسكت ، اسكت ، اسكت . . .
عناقها يكاد يحبس تنفسي ، اكاد اصرخ الماً ، وانا اجاهد بكل ما املك من قوة لابعادها ، وانا اقول :
ـ فيه حد دخل البيت .
تقول :
ـ خله يدخل .
فيجن جنوني . واصيح بصوت مختنق :
ـ حد ، حد دخل البيت .
تقبلني على فمي ، وتقول لاهثة :
ـ اعرف . ماتدير بال .
واستغرق في محاولاتي اليائسة للتخلص من عناقها الذي اختلط بالانين والرجاء ، والصرخات الثاقبة التي تطلقها بين حين وآخر . . . واكابد للتخلص من احتواء ذراعيها وساقيها ، فلاانجح بل ادفعها الى تشديد الضغط والاحتواء ثم اصبح لذلك كله ايقاع اشبه بضربات ملاكم تتجه الى اسفل البطن ، وهي خلال ذلك تردد :
ـ تحبني ؟ تحبني ؟ تحبني ؟ تحبني ؟
لما لا نهاية .
واقول لها ، وانا اكاد ابكي :
ـ ليلى ، حد دخل . . .
وهي ماضية في ترديد :
ـ تحبني ؟ تحبني ؟ تحبني ؟
اصرخ دون تحفظ :
ـ ليلى ، فيه حد دخل البيت .
يتوقف ايقاعها ، وتنظر الي بعينين خابيتين وتقول :

ـ ماتدير بال .

ـ شلون ماادير بال ، احنا في خطر .

ـ يجوز سهام بابا . . .

وانتقلت الى الجنون المطلق ، اجتاحتني وهي تطلق صرخات القتال . عضت كتفي وهي تهدر . اسمع باب حجرة ايوب وهو يصدر صريراً . استدير بقوة نحو الباب . نتوقف . تتوقف ليلى . ترفع رأسها وتحدّق بالباب . ينفتح الباب ببطء شديد ، دون ان يظهر خلفه احد ، مازالت ليلى تحتضنني من الخلف ، وبنفس القوة ، والباب مازال يواصل الانفتاح حتى اصطدم بالجدار ، وليس وراءه سوى العتمة الكثيفة .

تقول ليلى :

ـ من هو ؟

لفظتها « منهو » وذقنها يستقر على قمة رأسي . ولانسمع رداً . نسمع حركة اقدام في الخارج وهمساً ، وليلى تتنفس بعمق . انزلق ذقنها على سطح رأسي ، وهي تساءل :

ـ منهو خوي ؟

يصمت الهمس وحركة الاقدام وتنفس ليلى ، وانا احاول النهوض فلااستطيع . مازلت في قبضتها . تهمس ليلى :

ـ ماكو احد . يجوز الهوا .

ـ لا . ليلى . فيه حد .

تقول بنفاذ صبر :

ـ ماكو .

فجأة ينغلق الباب بعنف ، وضجيج . فعل ذلك من تلقاء نفسه . اهمس لليلى :

ـ شافونا .

تقول :

ـ قلت لك ماكو احد .

وتعاود تقبيلي . ادفعها واهمس :

ـ خبلة انت ؟

- ماكو احد .

- ماتسمعي ؟

- ماكو احد .

وينفتح الباب فجأة ، ويندفع ايوب الى الداخل حاملاً سكيناً ، راكضاً يصرخ ، شعره متناثر على وجهه ، وعيناه تلمعان ببريق مخيف .

- على سريري ياكلاب ؟

قفز نحونا . طار بالضبط .

ملأ الظلام عيني ، ورحت في غيبوبة .

- ٨ -

كنا نجلس في حجرة المكتب ، وكانت ترتدي قميص النوم الذي يجعلها خفيفة كفراشة سألتها : الانبردين ؟ الجوبارد هنا . قالت : كيف ابرد ؟ وانت ماوظيفتك ؟ قلت : انني احياناً ادخل الحمام : او احلق لحيتي . . . او . . . قالت : هنا ، يصبح البرد مشكلة .

سألتها إن كانت تحبني ، قالت : احبك ، ولكنك انت تحب ليلى . قلت : ولكن اين ليلى حتى احبها ؟ قالت : لاتلعب بالكلام . انت تحب ليلى .

- ثاني ؟

- وثالث ورابع وخامس . تعال واياي .

مسكت بيدي ونهضنا . صعدنا ، وهي تقودني ، السلم المؤدي الى حجرة أيوب لم فتحت باب الحجرة . قالت :

- باوع هنا .

دخلت . كان السرير مهوشاً . وعلى الكومودينو التي بجانب السرير صينية عليها بقايا طعام وبيضة مسلوقة ، وطبق مليء بالحلاوة الطحينية . قلت :

- شيء غريب . ولكن رغم غرابته ، ابه علاقته .

قالت ، لم ننته بعد . فتحت الخزانة ، وانحنت تبحث ، ثم استقامت وفي يدها شنطة من القماش الازرق ، مكتوب عليها بالخط الابيض : « شركة الطيران

العراقية » . فتحت الشنطة بجذب السوسته واخرجت قميص نوم احمر ، وخفاً مخملياً احمر ، وفرشة اسنان ومعجون . القتها على السرير واحتفظت بالحقيبة .

قالت :

ـ اش تقول ؟

قالت ، وكأنها توجه الي سؤالاً عادياً . قلت :

ـ غريب ؟

قالت ، وكأنا توجه الي سؤال عادي . قلت :

ـ غريب طبعاً . ولكن من الواضح ان هذه الاشياء تخص ايوب .

قالت :

ـ ايوب ؟

وضحكت . ثم اضافت : هذا قميص نوم ليلى ، اشتريناه سوياً . وهنالك علامة انظر ، ونظرت الى التطريز الذي في الصدر . قالت : تأمله جيداً . تأملته ، واكتشفت بالفعل ان التطريز هو عبارة عن اسم ليلى بحروف على شكل قوس ، جعل الاسم يبدو كدائرة .

اخذت اهز رأسي . قالت : اتعرف من الذي طرّز هذا الاسم ؟ قلت : لا .

قالت :

ـ انا .

ولم لا ؟ قلت لنفسي . غادرنا الحجرة وهبطنا السلم . دخلنا حجرة المكتب . جلست سهام بجواري ، ووضعت رأسها على صدري . اخذت اقبل شعرها ، ثم ادفن وجهي في غزارته .

قالت .

ـ تحب شعري ؟

ـ شعرك وكلك . كل شيء فيك .

ـ وعيوني ؟

ـ وعيونك خليني ابوس عيونك .

رفعت وجهها الي ، فقبلت عينيها ، وانفها (قلت : واحب انفك) وفمها ، وذقنها . قالت :

ـ وتحب كمان . . .

وتمهلت ، فقلت :

ـ من غير مانقولي . كله . . . كلك . .

وضحكت .

صمتنا . وعادت تضع رأسها على صدري . قالت بعد قليل : لقد سألتني منذ حين إن كنت بردانه ، وانا البس ملابس داخلية وقميص نوم . ولكن الم توجّه السؤال الى ليلى ؟

قلت :

ـ مش فاهم .

قالت : وهي تسير عارية خلال البيت كله ، وتجلس على الكنبات عارية ، الم تسألها إن كانت بردانه ؟

قلت ، كيف عرفت ان ليلى تسير عريانه ، وتجلس عريانه ؟

قالت :

ـ باوع .

واشارت باصبعها الى جسد ليلى المرسوم على غبار الكنبات . واضافت انها شاهدت آثار اقدام ليلى الحافية على السلم .

قلت :

ـ غريبة ليلى هذه .

وخلال ذلك كنت احاول ان اتذكر ، ان افهم . ثم اهملت المحاولة .

ـ٩

لم اذهب الى العمل اليوم

بدأ اليوم جميلاً . شمس الصباح طلعت في سماء صافية ، والهواء ساكن ، جاف عابق برائحة الشجر . كان صفاء الجو يجعل المرئيات شديدة الوضوح والتحديد وبدا كل شيء ناعماً .

كنت اقف امام شباك حجرة النوم المفتوح على الحديقة ، التي هاجت وتوحشت حتى اصبحت اشبه بغابة صغيرة ، او غابة مصغرة . وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بقليل .

لااحد يزورني في البيت ولاازور احداً . وفي العمل يبدو انهم نسوني تماماً . لااقدم اي مادة للمجلة ، ورئيس التحرير لايطالبني بشيء . ولم يعد احد من الزملاء يزورني في حجرتي الا نادراً جداً . وحين يفعل احس به شديد الضجر ، راغباً في المغادرة باسرع ما يمكن . لااعرف لذلك سبباً محدداً . قد يكون السبب عدم قدرتي على ادارة حديث متصل ؛ اذا اصبحت كثير الشرود . ففي بعض الاحيان لا يفوتني فقط ما يقوله محدثي ، بل انسى وجوده كلية .

اما المدير العام ومدير المكتبة فقد ابتعدا عن طريقي ، حتى نسيت انهما موجودان . او قد يكون العكس هو الصحيح ؛ اعني انني ابتعدت عن طريقهما فنسيا انني موجود .

اصبحت كثير السرحان ، وقدرتي على التركيز انعدمت . يحدث احياناً ان اقوم بارتداء ملابسي استعداداً للخروج . وقبل ان انتهي من ارتدائها اجد نفسي اقوم بعملية عكسية . اعني ، انني اخلع ملابسي والبس البيجاما ، وادخل السرير . ثم افطن الى وضعي ، فارتدي ملابسي مرة اخرى .

انتاجي في الكتابة صار قليلاً . وتوقفت تقريباً عن مواصلة كتابة الرواية . وحين كنت اسير عبر الممرات المؤدية الى حجرتي ، كنت الاحظ ان لا احد يرقبني وانا داخل ، او يرفع رأسه ويطالعني ، انتظاراً لتحيتي . احسست ان هنالك شيئاً ما يحاك ، او ان ترتيباً ما قد حدث . ولكنني لم اكترث لذلك . ما كان يؤذيني هو هذا الصدود المبرمج . ورغم ان هذه العزلة هي ما كنت اتمناه ، فانها ، ما إن تحققت حتى احسست بها كطوق فولاذي يضغط على عنقي .

كنت اجلس في حجرتي اطالع السور الكرتوني الاسود ، اركز النظر على البقعة الرمادية . في كل يوم كانت تبدو جديدة . اصبحت تفتنني .

واما سهام فها قد مر ربيع وصيف وها نحن في الخريف على رؤيتي اياها لآخر مرة . لم تعد تزورني ولم اعد اراها في العمل . اختفت هكذا دون مقدمات . ظلت تأتي كل يوم بانتظام وانقطعت عني فجأة ، دون ان تمهد لذلك بكلمة واحدة . في آخر مرة زارتني فيها قبلتني وهي تغادر ، قالت :

ـ في امان الله .

كما تفعل كل يوم . ولكنها في هذا اليوم مضت ولم تعد

بعد الكثير جداً من التردد سألت احدى زميلاتها عنها (البنية السمينة ،

اسمها شهو؟ هاي . . . ايه سهام . . قالت لي عن كتاب . . هية وينها . . اوشي، كهذا) فقالت الزميلة انها غائبة . غائبة ؟ قلت . قالت : غائبة في مهمة . مهمة ؟ قلت .

- اي مهمة ؟

قالت :

- اشمدريني .

وزميلاتها ؟ الايعرفن ؟ قالت لي من الخير لي الا اسأل . الآن ابتعد ، فقد يراني احد اكلمك ، ويبلغ مدير المكتبة . وابتعدت .

وقد حدث امر غريب بعد انقطاع سهام عن المجيء، انتظرتها طيلة ذلك اليوم ، وانا مندهش - مجرد مندهش - لعدم مجيئها . جلست في المساء اواصل الكتابة في الرواية . ثم سمعت حركة في حجرة ايوب . خطر لي انه ربما كانت سهام مختفية هناك تمارس احدى الاعيبها المبهمة . صعدت السلم دون ان يصدر عني صوت ، وفتحت حجرة ايوب واضأت النور بشكل فجائي .

كانت الحجرة على حالها التي تركها فيها ايوب . لم اجد فراشاً منكوشاً او صينية عليها بقايا طعام . او حقيبة قماشية تخفي فيها ليلى قميص نومها . بحثت طويلاً في الحجرة فلم اجد اثراً لانسان فيها منذ ان ذهب ايوب الى المستشفى . قلت لنفسي : « لاتفكر . فقد تصاب بالجنون » . اطفأت النور ، واغلقت الباب وهبطت .

جلست اكتب ، ثم خطر لي مرة اخرى ان ابحث عن اثار جسد ليلى العاري فوق كنبات المكتب الجلدية . نهضت واخذت افحص الكنبات . ولفزعي الشديد لم اعثر على اثر لليلى .

جلست المكتب عاجزاً عن فعل اي شيء ، عاجزاً عن التفكير في اي شيء . كنت انتظر فقط ان ينفتح الباب الخارجي ، وباب المطبخ ، وتدخل ليلى . بعد ان جلست طويلاً هكذا ، قلت بصوت مسموع : « انا تعبت » .

نهضت لاعد لنفسي فنجان قهوة .

ايوب مازال في مصح غامض للامراض العصبية . بعد بحث اكتشفت المصح فذهبت لزيارته . سألت الاستعلامات ، فأخذ يفتش عن الاسم ، فالتفت اليه رجل يجلس بجواره وقال :

- ايوب الذي يعوي .

قلت :

ـ يعوي ؟

لم يردا على سؤالي . قال لي رجل الاستعلامات :

ـ هناك .

قلت :

ـ فين هناك ؟

قال لي ، هناك ، اسأل عن الدكتور حبيب . سألت عنه بالفعل وادخلوني اليه .

قال :

ـ تريد ايوب .

ـ نعم .

ـ زيارته ممنوعه .

سألت عن السبب فلم يجب . سألته عن حاله ، فقال انه يتحسن ببطء ، ويحتاج الى فترة طويلة من العلاج . وعندما سألته عن طبيعة مرض ايوب ؛ اجاب بجفاف ان هذا ليس من شأني .

قبل ان انصرف سألت الطبيب :

ـ صحيح انه يعوي ؟

سأل بكشرة :

ـ ان ايوب يعوي ككلب ، هل هذا صحيح .

نظر الي الطبيب طويلاً ، وقال : يبدو انك لست احسن حالا منه . ونهض فتخيلت انه يود الامساك بي ؛ فانصرفت مسرعاً . ومنذ ذلك الوقت لم اعد للسؤال عن ايوب .

* ■ *

في هذا الخريف تساقط اوارق الشجر اليابسة بغزارة . صفراء ، ملوثة بالطين كانت ، والمشي فوقها ، تحت الشجر كان اشبه بالمشي فوق الثلج . كانت تملأ ارصفة الشوراع الخالية ، وتهبط على قنوات المياه فتغطي سطحها .

قبل ان انام اجذب شرشف السرير وانفضه لازيل اوارق الشجر التي تساقطت

عليه . تظل فيه رائحة الورق والطين ، رائحة مادة عضوية متحسبه .

واقول لنفسي : عندما كانت سهام تجيء ، كان البيت نظيفاً ، ولم يكن الطين واوراق الشجر يعلق بالسرير . اما الأن فقد اصبح البيت مزبلة .

وفي الليل ، كان مرور الزواحف بين اوارق الشجر والاعشاب الجافة في الحديقة يثير خشخشة صاخبة ، تثير اعصابي ، وتجعلني احياناً اصحو من نومي مذعوراً . حتى بلا هذا وذاك ، فانني كثير مااصحو من نومي مذعوراً . وكانت اصوات الحديقة تجعلني اتخيل ان هنالك اناساً على الشبابيك ، يتفرجون علي ويهمسون .

في كل مكان كانت تنتشر طبقة من التراب الاسود اللزج . في الليل والفجر خاصة يكون لزجاً . اما في النهار ، خاصة في الاماكن المشمسة ، كان يبدو كالطلاء حين المسه يلتصق بيدي كالقار . ولايزول الا اذا غسلته اكثر من مرة بالماء الساخن والصابون

■ ■ ■

عندما استيقظت من النوم سمعت حركه تدور فوقي في حجرة ايوب . اوعلى الاصح انني استيقظت من نومي بسبب هذه الحركة . ورغم انني لم اعد اندهش لشيء في هذه المدينة ، فانني قد فوجئت بالفعل من الحركة التي تدور فوقي . كانت خافتة جداً ، اشبه بهمس ملحّ لاناس كثيرين ؛ او ، ربما كانت حركة اقدام كثيرة ، تتحرك بحيطة وحذر . على الفور تشكلت في ذهني صورة مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ، يحيطون برجل يحتضر ، وهم يتدافعون ويهمسون ؛ ولكنهم ، في الوقت ذاته ، يحاولون ان يصمتوا اجلالاً للمناسبة .

قلت لنفسي : فلاتوقف . انا متأكد انني اتخيل اشياء ، وانني إن واصلت ذلك فسوف اصاب بالجنون . لهذا حاولت ان انسى الحركة التي فوقي . لم انجح كنت استعيد صوة المحتضر ، والنساء والرجال المحيطين به ، ولكنها اصبحت كصورة زيتية : حركة معلّقة .

لايمكن تجاهل هذه الحركة . يستحيل ان اعزوها للوهم وهي بهذا الوضوح . هل يرقصون الدبكة ؟ نظرت الى السقف متسائلاً ، كأنه سوف ينبئني عما يحدث في

حجرة ايوب . كان صامتاً . لاحظت ان عنكبوتاً قد نسج خيوطه في احد الاركان ، وان تراباً اسود قد طرّز دائرة محيطة بالنسيج . ثم تنبهت ان الحركة توقفت تماماً فوقي . وكأن ذلك حدث استجابة لنظرتي المتسائلة

كطعنة في صميم القلب . احسست بقلبي ينكمش كأن يداً تعصره ثم يهبط - .
تذكرت وجه سهام وهي تنظر للسقف وتبتسم . شوقي اتخذ شكل احساس جسدي بأنها تتمدد قربي . وباحساس آخر انها اصبحت بعيدة حد الاستحالة ومستعصية على اللمس . لقد كانت سهام قادرة على قراءة الحركة التي تدور فوقنا . لقد قرأتها وعلقت عليها بتلك الابتسامة . اصبح الشوق الى سهام كابوساً ، يكاد يخنقني .
كنت اختنق ببكاء صامت يمسك بالحلق ، ويود ان يتحول الى دموع فلايستطيع .

ثم اتى الاسترخاء . نصف اليقظة . اصبحت سهام نصف موجودة ، تنقل الي روحها عبر اللحاف الذي يكن بين ذراعي كامرأة . هنا اصبح مايدور فوقي مجرد وهم ، بقايا من لغة احلام المنام امتدت حتى لحظات اليقظة .

- هل عذبوك كثيراً ياسهام ؟

- اود ان انسى .

- والزجاجة ؟

تتنهد :

- مره او مرتين .

كان النهوض من السرير ، والسير الى الحمام ، ثم الحلاقة وشرب القهوة ، وتناول الفطور والشاي . . . كان ذلك كله يتم في جو الفة مع العالم . للسيجارة طعماً يبعث على دوار خفيف ممتع ، في البداية ، ثم تصبح ارضاء لتوق .

- هل سألوك عني ياسهام ؟

- حين يسألون عنك فلن يسمعوا اجابة مني .

والدوران في البيت واستعادة حلم اليقظة مرة بعد مرة . ثم اشتاق الى العالم الخارجي : الشمس والحديقة واصوات انسانية . ادخل حجرة النوم واقف امام الشباك . جارتنا تقف على السطح تنظر الي . اتساءل : هل هي بداية شيء ما ؟ تختفي تاركة وراءها فضائح من الرغبة .

- هل سألوك عني ياسهام ؟

- حتى لوسألوني عنك فلن يسمعوا اجابة مني .

ـ والزجاجة ؟ . . . الرجال فقط ؟

خارج الشباك الشمس ساطعة ، والسماء والبيوت والاشجار وصورة النساء في خيالي ساطعة ايضا . كل الاشياء ، وانا كذلك ، في قلب إناء بلوري ضخم .

ثم حدث ذلك الشيء الغريب الذي لم اشهد له مثيلا في حياتي . كان للجو ملمس بارد ، شديد النعومة . ثم اخذت اوراق الشجر تهتز وترتعش بسرعة مذهلة ، مصدرة صليلا يكاد يكون معدنيا . كل ورقة كانت تهتز بمفردها ، اهتزازاً خاصاً بها ، ثم تنفصل عن الشجرة وتسقط عامودية كأنها حجر . لم يكن هنالك ريح ؛ بل لاهواء على الاطلاق . وهذا اعجب مافي الامر . بدا وكأن الاوراق ترتعش من تلقاء نفسها . وكانت اوراق الشجر شديدة البريق ، ذلك البريق المتذبذب ، المتعدد المصادر ، الذي يزغلل العين .

شيئاً فشيئاً اخذت الاوراق تفقد بريقها ، وتتحول الى سمرة كسمرة الحديد المطفأة ، واخذت زرقة السماء تغمق ، حتى اصبح يشوبها سمرة باردة . حتى الشمس شحبت واخذ الجو يعتم .

لم تكن غيوما تلك التي حجبت نور الشمس ، بل لون اسود . كان مجرد لون اسود ، انبثق من قلب النخيل الذي يشكل الجزء الارضي من الافق ، واخذ ينتشر في السماء بسرعة مخيفة . زحف السواد من كل جزء من محيط دائرة الافق الى المركز . احتجبت الشمس .

بعد دقيقة او اكثر قليلا هبطت على المدينة ظلمة ككابوس خانق . كثيفة عدوانية ، شاملة ، لاوجود لضوء من اي نوع في قلبها . عجزت حتى عن رؤية يدي . ظلمة كانت كالعمى المفاجىء . استدرت متجها الى موضع مفتاح الضوء . تلمست الجدار حتى عثرت على مفتاح الضوء . كان التيار الكهربائي مقطوعاً . ووقفت حائرا ، عاجزا عن تحديد الاتجاهات ، وسط ظلمة مفترسة ، رافقتها عاصفة مفاجئة ، تجأر وتزأر ، محاولة ان تحتوي كل شيء في اندفاعها ، بما فيه البيت وانا .

سرت ببطء نحو الشباك . اخذت اصطدام بكراسي ، وطرابيزات صغيرة كيف تولد فجأة كل هذا الاثاث ؟

اخذت عيناي تتعودان الظلمة ، التي اصبحت ، مع العاصفة اقل كثافة . اخذت الاشجار تتجرد من اوراقها ، وراحت الاوراق في كتل هائلة ، تتخذ شكل كرة ضخمة راحت تدور وتدور في حركة لولبية ، تدور حول نفسها بسرعة كبيرة

وتتقدم الى الامام ببطء ،ولكن ماافزعني بالفعل هوان تلك الكتلة الهائلة من اوراق الشجر تقدمت نحو البيت ، وقد اصبحت تياراً عاتياً ، واندفعت بتصميم عبر نوافذ البيت .

احتجبت حجرة النوم عن النظر خلف ستار الاوراق الذي ملأ فضاء الحجرة . حاولت اغلاق النافذة ، وكانت الريح تقاومني بضراوة . ولم يكن لمقاومتها طابع اندفاع لعاصفة ، بل كانت كايد بشرية كثيرة ، بالغة القوة ، تحاول منعي ، وتدفع درفتي الشباك . في اللحظة التي نجحت فيها باغلاق النافذة تحطم زجاجها بقرقعة مروّعة ، اصابتني شظايا . وتناثرت فوق ارضية الحجرة . وفي تلك اللحظة بالذات ، وكأنها كانت تقف بانتظار انفتاح النافذة اندفعت الموجة الثانية من اوراق الشجر . من الضربات التي اصبت بها في وجهي وصدري وبطني علمت انها محملة ، بالاضافة الى ورق الشجر ، بالاتربة والحصى

اخذت اقاوم الريح حتى لااسقط ، فكنت اندفع الى الخلف خطوات ، ثم اتوقف ، واتقدم خطوة واحدة ، ولكن اسريح كانت تجعلني ادور حول نفسي عدة مرات ، ثم اسقط على الارض ، لاقوم ثانية واحاول ان اتقدم الى اتجاه غير محدد . فقد اضعت الاتجاه .

ورغم زئير الريح ، وعويلها ، ورغم العتمة ، فلقد استطعت ان ارى المرآة الكبيرة التي تعلو الشوفيره ، وهي ترتد الى الخلف ، ثم ترتطم بالجدار بصوت هائل فيتحطم خشبها وزجاجها ، ويرتفع في الهواء كأنه ناتج عن انفجار . وعمّ التدمير . شراشف السرير ارتفعت في الهواء عملاقة ، تملأ فضاء الحجرة ، ثم اراها ترقص وتتلوى ، وتطوى لتصبح مجرد كتلة بيضاء ، تزحف على الارض .

فقدت القدرة على التماسك واصبحت العاصفة التي تجوب البيت ناشرة الخراب والدمار توجهني كيف شاءت . على نحو ما ، كان ذلك مريحاً . كنت انزلق خارجاً من حجرة النوم وانا امد ذراعي على امتداد كتفي . انزلقت الى الممر الموصل بين حجرة النوم والمطبخ . دخلت المطبخ وكأنني البس قبقاب انزلاق . قلت لنفسي : يجب ان ادخل غرفة المكتب حتى اطمئن على الرواية . على ارضية المطبخ تناثر زجاج الاكواب وصيني فناجين القهوة والاطباق ، ومعدن الملاعق والسكاكين والشوك وسط اوراق الشجر التي بلغت كاحلي وانا انزلق بينها . ثم استدرت ، معطياً الريح جانبي ، ووصلت الى باب حجرة المكتب . فتحته واغلقت الباب خلفي بسرعة .

كانت النوافذ مغلقة وسليمه ولكن الاوراق ، اوراق الزاوية ، كانت تسبح في فضاء الحجرة برقة كأنها حمامات بيضاء بسبب بطء حركتها بدت وكأنها معلقة في الفراغ . لاخوف عليها ، قلت لنفسي ، ستهبط على الارض ، وسوف اجمعها واعيد فرزها . رأيت ورقة بيضاء ، منمنمة بالخط الازرق ، تتجه بتقصد واضح الى الباب ، وتقف مرفرفة على الحد الفاصل بين الجدار والباب . اذن ، هي تبحث عن فرصة للخروج لتشارك في المدير الخارجي المشؤوم . اقتربت منها ببطء وبسرعة امسكت بطرفها . حاولت ان تنفلت من يدي وقد اصبحت ككائن حي ، يرتعش ، وينبض ، ويقاوم . ولكنني امسكت بها بيدي الاثنين ووضعتها في جيبي .

خرجت من الحجرة واغلقت الباب خلفي بسرعة . اصبح للعاصفة عضلات . فما كدت اخطو عرض الممر ، وهو المسافة الفاصلة مابين باب حجرة المكتب وبداية السلم الصاعد الى الدور العلوي ، ماكدت افعل ذلك حتى صدمني بقوة لوح خشبي ، قدّرت انه باب الخزانة .

اخذت اصعد السلم ، وانا اتحسس اعضائي بعد ان صدمها اللوح الخشبي . كانت سليمة . بدت العاصفة كامرأة تنوح . كنت اشعر برغبة جارفة ان اكلم احداً عن هذا الرعب الذي يجتاح البيت . وكنت متيقناً انني ساجد احداً في غرفة ايوب ، وتمنيت ان يكون ذلك الاحد ليلى . من بسطة السلم رأيت باب حجرة ايوب مفتوحاً . صعدت بسرعة وتوقفت امام الباب .اذهلتني المفاجأة . لم اكن اتصور حجرة ايوب تتسع لهذا العدد الكبير من الناس . كانوا جميعا هنالك : المدير العام السابق ، مدير المكتبة ، وسكرتيراته الست ، سهام ايوب ، محررون في المجلة ، رجال ونساء من مكتب الوزير ، وآخرون وأخريات لم استطع التعرف عليهم . اما ليلى فلم تكن بينهم . وكان يبدو على الجميع الانهماك والجدية التامة . عبوسهم كان عبوس اناس عمليين استغرقوا في عمل بالغ الاهمية منعهم حتى من التنبه لحضوري بينهم . لم يلق واحد منهم نظرة نحوي .

ورغم ان النوافذ كانت مفتوحة على اتساعها ، فلم يكن هنا للريح اثر ، او لضوضائها . هنا صمت اشبه بصمت القبور . كما كانت الرؤية في الحجرة ممكنة . لون رمادي كغبشة الفجر كان يخيّم ، يرسم اطاراً للاشخاص ، ويضيء الوجوه الى الحد الذي يكفي للتعرف عليها وتمييز حركاتها .

بدا الجميع منشغلون باستغراق صامت . وإن كان يدور بينهم حديث

فلاصوت يصدر عنهم . اخذت اراقبهم . كان ايوب عارياً تقريباً ، يلبس فانيلة صيفية تكشف كتفيه ونحره وقوساً من ظهره . واما مدير المكتبة ، فقد كان يرتدي قميصاً ناصع البياض ، ورباط عنق على شكل فراشة ، وجاكته سوداء . لاحظت زرين ذهبيين يلمعان على كمي قميصه . اما الجزء الاسفل من جسده فقد كان عارياً تماماً . وكان مدير المكتبة ينحني على السرير ، يدقق النظر ، ويشير بسبابته . واما ايوب فقد كان يقف خلفه ، يكاد يلتصق به ؛ كان يقف على رؤوس اصابع قدميه ، وينحني ليرى بوضوح ايشير اليه مدير المكتبة .

لم يكن ايوب شاهداً محايداً لما يجري على السرير . بل كان انفعاله وحب ستطلاعه ينعكسان بوضوح على وجهه . كان يضيّق عينيه ، كما يفعل قصار النظر ثم يزداد اقتراباً برأسه من السرير ، ثم يبتعد برأسه فجأة كأنما ليحمي نفسه من شيء سوف يصطدم بوجهه . ثم يعاود النظر مرة من فوق كتف مدير المكتبة الايمن ، ومرة فوق الايسر ، ومرة من فوق رأسه ، أومن وراء خاصرته . وخلال ذلك كان المدير يشرح ويكرر الاشارات الى السرير باصبعه ، دون ان يصدر عنه صوت .

ماذا يفعلان ؟ سألت نفسي . وانا في كل لحظة اتخيّل ان ايوب سوف يحتضن مدير المكتبة من الخلف . ولكن ذلك لم يحدث . اذن فما معنى تعرية العجيزتين واقترابهما من بعضهما على هذا النحو ؟

حاولت ان انادي سهام . قلت لنفسي : قد يكشف صوتي مكاني ، فاخذت الوّح واشير لها بذراعي اليمنى ، ولكنها لم تنظر في اتجاهي ، ولم تلحظ محاولاتي لاجتذاب انتباهها . كان ذلك مؤلماً جداً . هل نسيت كل شيء ؟ هل كانت تحب المدير العام السابق طيلة الوقت وتخدعني ؟ ولكن ماالذي يدعوها لأن تفعل ذلك ؟

كانت سهام ترتدي احدى بيجاماتي ، وقد كفكفت ردنيها حتى الكوع وطوت رجلي البنطلون حتى الركبة . بدت كياناً عضلياً متماسكاً وشامخاً كانت تمسك بوجه المدير العام السابق بين كفيها ؛ ووجهها قريب جداً من وجهه . الغيرة هي التي جعلتني اتصور انها تفعل ذلك تحبباً . ولكنني ، في داخلي كنت اعلم انها تفعل ذلك تمنعه من ارتكاب احدى حماقاته المعروفة ، وانها بهذه الامساكة تسيطر عليه .

كان المدير العام يرتدي سروالاً داخلياً قصيراً ، وواسعاً ، وفانيله بنصف كم . ساقاه وذراعاه كانتا نحيلتين ، يغطيها شعر اسود كثيف . كان وجهه يتشنج ببكاء صامت ، وهو يشير بيمناه الى السرير . كان الذراع يشير الى السرير اشارات

سريعة متوالية ، وجسده يتلوى ويحاول الاسراع في اتجاه السرير . ولكن رأسه كان ثابتاً وكأنه لاعلاقة له بجسده الكثير الحركة . كان الرأس مثبتاً في مكانه بين كفي سهام وكأنه رأس تمثال . كانت سهام تلتفت ، وتشير برأسها في اتجاه ايوب ، الذي كان يبذل جهوداً جسدياً كبيراً ليتابع سبابة مدير المكتبة وهي ترتفع في الهواء ، ثم تنخفض على [illegible] كأنها تودان تطعنه . وايوب خلال ذلك يكثر من التنقل والحركة ليتابع مسار السبابة .

ولكن مامعنى هذا ؟ هل سهام هي التي تحدد الادوار في هذه المجموعة ؟ ولكن ماذا يحدث بالضبط ؟ رغم هذا فقد شعرت بالاعتزاز لهذا الدور المميز الذي تقوم به سهام .

يبدو ان سهام قد سئمت محاولات المدير العام السابق ، التي لاتتوقف للوصول الى السرير . كان يتفلت منها ، وهو يشير بذراعه على امتداده الى السرير . احاطت جسده النحيل بذراعيها ، واخذت تضغط . فسّرت ذلك تفسيراً خاطئاً في البداية ، اذ ظننت انها تعانقه . ولكنني رأيته يتلوى بين ذراعيها ، ثم اذ به يفرد ذراعيه الى الحد الاقصى ، ويلقي رأسه الى الخلف ، وقد جحظت عيناه ، وانفتح فمه . بدا كالمصلوب . ثم رأيت ذراعيه يسقطان ، ورأسه يسقط على صدره . رأيت سهام تفك ذراعيها . واذا بالمدير يسقط على الارض كومة واحدة بلاحركة .

هل مات ؟

اقتربت من الكومة . واخذت اراقبها . لقد كانت ساكنة تماماً . سكون الموت قلت لنفسي .

دون ان تلقي نظرة واحدة على الجثة سارت سهام الى الشباك . اتكأت بكوعيها على حافته واخذت تنظر للخارج . سرت وتوقفت بجوارها ، محاذراً ان المسها . التفت اليها . لايبدو انها شعرت بوجودي جوارها . قررت ان اسألها عن معنى هذا كله ؛ وعندما فتحت فمي اكتشفت انني فقدت صوتي .

ادارت سهام رأسها الى الخلف . ثم استدارت وسارت نحو مدير المكتبة .

كانت مسألة اخرى تلح علي : لماذا ابتعدت العاصفة عن هذه الحجرة ، في حين انها تهدر في الطابق السفلي ، وقد حولته الى انقاض ؟ اخذت اتأمل المنظر الذي امامي من النافذة . كان كل شيء هادئاً . الاشجار تغرق في صمت قديم ، والنخيل ساكن لاتتحرك ورقة واحدة من اوراقه والصمت . فلقد انتهت جميع الاصوات

تأملت السماء . كانت رمادية ـ زرقاء وفي الشرق كانت بيضاء ، لامعة ، فيها لمسات حمراء شفافة ورقيقة . كان هذا الجزء من السماء يقبع لامعاً ، ناعماً ، ساكناً بانتظار طلوع الشمس .

استدرت واخذت اسير في الحجرة . لم يعترضني او يتعرف على احد . المدير العام مازال كومة ساكنة ، سكون المادة الميتة . كان يفتح فمه ، وقد برز جزء من لسانه . كانت سهام الواقفة بجوار مدير المكتبة تنحني لتطوي ساقي البيجاما ، اللذين يبدو انهما هبطا خلال عراكها مع المدير العام . طوتهما حتى اصبحا فوق الركبة . ثم اخذت تطالع الجميع بنظرة يقظة . ملكة تطالع رعاياها ، تريد من الجميع ان يكون كل في مكانه .

كان مدير المكتبة مايزال يشير الى السرير ، ولكن وجهه كان مرفوعاً الى سهام ، وعيناه معلقتان بعينيها . بدت حركة يده ، وهو في هذا الوضع ، ميكانيكية خالية من الحياة . اشارت سهام الى السرير ، ثم خبطته بكفها على عجيزته العارية . لم يصدر صوت عن الخبطة ـ ، ولم تبعد كفها عن عجيزته .

بفعل ضغط كف سهام ، او ان ذلك كان بسبب امر تلقاه بصوت غير مسموع رأيت مدير المكتبة يقفز بخفة على السرير ، يستقر على ركبتيه وينحني . بدا انه يمسك شيئاً ، ويحاول انتزاعه . من الواضح انه كان يبذل جهداً ، فقد انتفخت طاقتا انفه ، وتورد وجهه ، واصبحت اذناه مثل قطعتين من الكبدة .

كان ايوب قلقاً تزايدت حركته حول السرير .

ثم سمعت صوتاً اشبه بصوت انفتاح غطاء زجاجة شمبانيا ، وقد تضاعف عشرات المرات ، ورأيت المدير يسقط على قفاه وهو يمسك بزجاجة ويسكي جوني ووكر فارغة . وفي نفس اللحظة حدثت عدة اشياء . اقترب الكثيرون من السرير بحذر . باشارة من يدها ، على شكل نصف دائرة في الهواء ، اعطتها سهام لايوب رأيته يطير في الهواء ويسقط بجسده على السرير . وفي اللحظة ذاتها ، وايوب يطير في الهواء ، قام مدير المكتبة بحركة بهلوانية مدهشة اقتربت ركبتاه من وجهه ، ثم قفز بسرعة مذهلة ، واذا به يقف على الارض .

ماذا بقي لافعله ؟

سرت نحو الباب ، توقفت قليلاً ثم التفت خلفي . من تحت كتف ايوب برز شعر كثيف ، ثم وجه لم استطع تحديد ملامحه . اخذ يرتفع ، حتى ارتفع بالقدر

الكافي ، ثم ناداني

ـ غالب . لاتنس ان تأتي للحفلة .

تأملت الوجه . كان وجهاً مجهولاً ، وكذلك الصوت كان من الصعب التعرف عليه ، اذ كان مختنقاً

ـ سوف اجيء للحفلة بالطبع .

واخذت اهبط السلم الى الدمار .

١٩٨٤/١/٣٠٠٠

آفاق للدراسات والنشر
نيقوسيا - قبرص - ص.ب ٣٩٩٧

السعر ٢٥ ل .